297
A13
C.1

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

297.3
A13in A
c.1

الإسلام

والرد على منتقديه

بقلم الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

(رحمه الله)

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

سنة ١٣٤٦ هـ — ١٩٢٨ م

المطبعة الرحمانية بمصر
لصاحبها عبد الرحمن موسى شريف

Cat. Mar. '54

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مؤيد الاسلام ومعلى كلمته ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل مبعوثيه ورسول رحمته ، وآله وصحبه وسلم ﴿ وبعد ﴾ فقد وصل الىّ مجموعة فى الاسلام والرد على منتقديه جمعت من آثار الاستاذ مفتى الديار المصرية سابقا الشيخ محمد عبده ومن مقالات حماة الاسلام فى العصر الاخير قام بطبعها غير واحد فحال دون اكمالها وفات الاستاذ عليه الرحمة والرضوان أو أمر آخر وكلنا يعلم الاستاذ ومكانة مقامه فى الذب عن الاسلام والرد على منتقديه فأحببت الا يفوت المجتمع الاسلامى ذلك الأثر الجليل فكلفت صديق الفاضل السيد محمد بدر الدين النعسانى أن يصل مقطوع ذلك المجموع بمقدمة توضح مضمونه ، وتفصح عن مكنونه ، فأحسن بذلك جزاه الله خير الجزاء ونظرت الى آخر المطبوع فوجدته أدرج فيه خطبة اللورد كورزون حاكم الهند فى مدرسة عليكدة الاسلامية المدرجة فى عدد ٣٣٥٩ من جريدة المؤيد فأكملتها نقلا عنها وبذلك ختمت المجموعة لئلا أشوب كلام الاستاذ بغيره وعنونته باسم ﴿ الاسلام والرد على منتقديه ﴾ ليطابق معناه ومن الله استمد التوفيق

كاتبه

تحريراً في ١٦ ذى القعدة سنة ١٣٢٧ محمد أمين الخانجى

مقدمة

ن التعاليم الاسلامية التي جاء بها النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم نشرها بين الناس من عرب وفرس وروم وقبط وهند وغير ذلك من الامم التي كانت تشغل وجه المسكونة حين بعثته وحمل الناس على الاخذ بأحسنها والارشادات الحسنة التي بعث لتطهير الانفس من رعوناتها بواسطتها لم تكن بالتعاليم التي تقبل النقض ولا الارشادات التي يتوجه اليها الطعن

ان تعاليم الدين الاسلامي الحنيف مبنية على أساس من الحكمة متين لا يزعزعه شيء ولا يؤثر عليه مؤثر ومبادئه عقلية بحتة لم يدخلها شيء من أوهام النفس ولا من خرافات الاعتقادات ولا فاسدات العادات ولم تبن على الف قوم مخصوصين من استحسان شيء واستقباح آخر وانما بنيت على صرائح العقول التي تثبت في كل زمان وتصلح لكل قوم

من ذلك كانت الدعوة اليه عامة لا تختص بعربي دون عجمي ولا بحضري دون بدوي لموافقة مباديه لكل الامم على شكل واحد ونسبة واحدة :

وهذه الميزة لم تكن لدين من الاديان السماوية ولا لشريعة من الشرائع الوضعية فلقد يرى الناظر الى الاديان السالفة ان تعاليمها لا تليق إلا بقوم باعيانهم ويستحيل تكليف غيرهم بها من سائر الاقوام لعدم امتزاجها بطباعهم وارتباطها بنفوسهم ولذلك كانت الدعوة اليها خاصة وكانت أبداً معرضة للتغيير والتبديل على حسب ما يعرض من حاجات الامم ويطرأ من الانقلابات الكونية

وكذلك الشرائع الوضعية التي يظن واضعوها انهم أشرفوا على طبائع الامة وأخلاقها وعوائدها من كتب ووضعوا لها قانوناً يصلح له حالها ويستقيم عليه أمرها لا يلبثون اذا أخذوا في التطبيق أن يجدوا تبايناً عظيماً واختلافاً كبيراً

فيعمدوا الى التغيير والتبديل والنقض والابرام طلبا لغاية لا يمكن ادراكها .

قسم الدين الاسلامى الحنيف تعاليمه أقساما (١) الاقرار بصانع واحد والاعتراف بالمعاد (٢) الافعال البشرية المتعلقة بالامور الاخروية (٣) الافعال البشرية المتعلقة بانتظام الامور المدنية وصلاح حالة المعاش هذه هى الاقسام وتحت كل قسم أقسام كثيرة ليس هذا موضع ذكرها

فأما الاقرار بالصانع والاعتراف بالمعاد فلم يكونا في دين من الاديان بالشكل الذى كانا عليه فى الدين الاسلامى الحنيف وضوحا وجلاء وان اتفق مع سائر الاديان السماوية فى أصل المعنى وكذلك لم يقع فى التوحيد شىء من الشوائب التى وقعت فى الاديان الاخرى من الحلول والاتحاد والتجسم والتشبيه والتعطيل وغير ذلك مما يخل بمقام الالوهية وان سمعت بشىء من هذه الآراء فى المقالات المنسوبة الى أهل الاسلام فان ذلك مما أدخله الزنادقة الملحدون أعداء الدين الذين قصدوا النكاية بالدين والايقاع به وتترسوا بالدين من أن تنالهم يد عقاب وليس ذلك من تعاليم الاسلام ولا فى تعاليمه الواضحة ما يوقع فى مثل هذه الشبه والارتباكات

وكذلك الاعتقاد بالمعاد لم يدخله شىء من الاوهام والخرافات التى جاءت فى الاديان الاخرى وانما جاء الاسلام بالمعاد مقتصراً فيه على ما لابد منه لصلاح النشأة الاولى وعلى ما هو ضرورى بعد التسليم بالصانع القديم والاعتراف بالتكليف ، أثبت ذلك اجمالا وترك التفصيل لقيام الكفاية به وحصول الزجر عنده

جاءت العقيدة الاسلامية فى ذلك واضحة بينة ظاهرة يشترك فى معرفتها عامتهم وخاصتهم بل مجاوروهم ومخالطوهم من أهل الاديان الاخرى ولم يخلص أهل الاديان من ارتباكات وتلبيسات يقع فيها الخاصة فضلا عن العامة لان التعاليم التى انتهت اليهم لم تكن من الجلاء والوضوح بحيث تبدو للناظر لاول وهله أو بعد قليل تأمل بل كانت فى غاية الغموض والخفاء

أما الافعال البشرية المتعلقة بالنشأة الآخرة كالصلاة والصيام والحج

وأشباهها من التكاليف الشرعية ففيها من المحاسن مالا يطيق القلم احصاءه وأهم ذلك الايرفع الانسان كلتا رجليه عن عتبة الالوهية وينسى سعادته الحقيقية فيعيش ذئبا ضاريا يودى بنفسه وبأبناء جنسه

على أن أهل العلم اليوم حتى غير المسلمين يذكرون لهذه التكاليف الشرعية البحتة التى لايدرك العقل لها فائدة بعد أن يعلم أن البارى لاينالله خير منها من الفوائد والمرافق الدنيوية ما لو كان السبب الوحيد فى التكليف بها والغرض المقصود منها لقامت به الكفاية وصح به التكليف

ويقدر كثرة التكاليف للائمة للفطر تتهذب النفوس وترتاض ويشتد ميلها إلى الخير وينتزع منها الفضلات الرديئة ويقرب النوع البشرى من السعادة الدنيوية المطلوبة له

فاما ما يتعلق بانتظام الامور المدنية وصلاح حالة المعاش فالدين الاسلامى فى ذلك البحر الذى لايدرك غوره والغاية التى ليس بعدها أمل لآمل ولا زيادة لمستزيد

خدم الاسلام البشر خدمة لم يخدمه بها دين من الاديان السالفة إلا اهتدت لمثلها عقول أهل القوانين والمعنيين لترتيب نظامات البشر وتنسيق أمور المعاش وتحسين حالة المجتمع البشرى

أمر بالاحسان فى معاملة الخارجين عنه وهم أول من تسبق النفس الى الوهم بان اساءة معاملتهم ربما كانت من القربات الدينية فقال ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ﴾ وأمر بان يسوى بين المسلم وغيره فى الحقوق والمعاملات الدنيوية التى لامساس لها بالدين وبين ذلك فى مواضع كثيرة من الكتاب والسنة حتى تطمئن نفوس غير المسلمين لأحكام الاسلام ولا يجدوا فيها ثقلا على نفوسهم ولينالوا من المرافق الحيوية التى خلقها الله مشتركة فى خلقه بقدر حظهم منها وأمر بتركهم وما يدينون ولم يجبرهم على الدخول فيه لتكون محاسنه وتعاليمه الواضحة داعية اليه وتفاديا

مما وقع لأهل الأديان الأخرى من أشهار السيف على النفس لتعترف او تنكر والوجدان لايتسلط عليه حكم حاكم مهما كان جبارا قوى السلطان

ولم يكن الجهاد المفروض فى صدر الاسلام لاكراه النفوس على الاعتراف به بقوة السيف وانما كان الغرض الذب عنه وفتح الطريق أمام القائمين بنشره وتبليغه ليتسنى لهم ايصال تعاليمه الى آذان العالم الذين كانوا ينتظرون ظهوره منهم

أمر بالاحسان فى معاملة الجار والزوجة والصاحب والوالدين والأبناء وكل قريب وبعيد ممن يدين به ومن لايدين وحث على ذلك بأبلغ العبارات واقربها الى الافهام وتوعد على الخروج عن هذه الجادة بالعقبات الاخروية وسن لذلك من العقوبات الدنيوية ما لابد منه لسعادة البشر

وكانت أحكامه وتعاليمه فى كل ذلك وسطا بين جانبي الافراط والتفريط فأمر الانسان بالصفح عمن أساء اليه وأمره بمقابلته بمثل ما وقع منه إذا كان المتعدى ممن لاينفعه الصفح ولا يزجره الاغضاء عنه لئلا تستطيل أيدى أهل العبث والفساد على أهل التقوى والصلاح وأوجب طاعة أولى الأمر وحتم الخروج عليهم إذا اشتطوا على الرعية وحكموا أهواءهم وأغراضهم وجعل لكل حسن حداً اذا تجاوزه صار الى القبح ولكل شيء غاية يفسد بتجاوزها وجعل لكل شيء طرفين ووسطا وأمر باتباع الوسط وترك الاطراف إذ لا تخلو عن افراط أو تفريط وأشار إلى ذلك كله وحث عليه بقوله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ أى وسطا في الاعتقاد والاعمال لافى الشيء والظهور

هذه أمهات التعالم الاسلامية وهي حقيقة الدين الاسلامى الحنيف وهى النور الذى سطع على العالم وهو يتخبط فى ظلمات الجهل فأشرقت له أرجاؤه وهى دين الفطرة التى لاتقبل الفطرة غيره ولا تعدل عنه اذا خلت عما يكدرها من العقائد وهي هى السعادة الحقيقية فى المبدأ والمعاد

ليس أخذ هذه التعاليم اللطيفة من القرآن المجيد بالامر المشكل ولا فهمها بالعقدة المشكلة وانما يمكن أخذ هذه المجموعة التوحيدية الدينية الاخلاقية العمرانية من الكتاب المقدس فى سويعات قليلة بأدنى تأمل والتفات

يندهش القارىء اذا قرأ ما تقدم وقارن بينه وبين ما يجده الآن من أهل الاسلام ومايراه منسوبا الى الدين مما يختلف كثيرا عن التعاليم الاسلامية التى سبق شرحها ولم يكن يعلم حقيقة الديانة الاسلامية وكنه تعاليمها الحقة وهو استدراك حسن يجب الاعتناء به ولا يجمل بنا اهماله وعنه نشأ سوء ظن استحكم للمشرفين على الاديان من غير المسلمين بل فشى هذا الظن السيء بين أهل الاسلام ممن لم ينظروا فى كتب أصول الديانة الاسلامية ولا سمعوها من أحد وانما أخذوها من مجموعة أعمال المنتمين الى الاسلام والمتدينين به وان كانوا فى الحقيقة غرباء عنه .

انتشر الطعن في الدين الاسلامى فى العصور المتأخرة وكثر المزورون عليه ممن ينتمى اليه ومن لا ينتمى وليس ذلك عن تعصب لدين آخر أو مروق منه ولا عن حقد على أهله ومن تمسك به وانما ذلك فى الاغلب للغلط فى الفهم وظنهم أن الدين هو ماعليه المنتمون اليه والمنتسبون له والدين شيء وأعمال أهله شيء آخر ليس فى حسن أحدهما دلالة على حسن الآخر ولا فى قبحه دلالة على قبحه

الدين الاسلامى على مثل ما سمعت وأحسن الا أنه لم يمن دين من الأديان بما منى به الدين الاسلامى الحنيف من الاعداء الالداء الذين يعملون دائبين لتشويه وجه محاسنه وتنفير الطباع عنه

ظهر الدين الاسلامى في الجزيرة العربية فداس الوثنية باقدامه ثم انتحى الى اليهودية فاخنى عليها ولم يدع لها فى جزيرة العرب أثراً بعد منعة لهم قوية وشوكة لا تحطم ثم زحف بجيوشه الى مصر والشام والعراق والاندلس وغيرها من الممالك الشاسعة المتنائية الاطراف فقض فيها صروح النصرانية

والمجوسية ورفع صروح التوحيد وشيد قواعد الاسلام

كان هذا كله فى نحو نصف قرن فلو أنه سيل جارف انحط من حادر لم يبلغ هذا المدى فى هذه المدة القصيرة على ان فتوحاته اللطيفة كانت فتوحات شفقة وحنان لا يشوبها شيء من جبروت الاستعمارات التى نشاهدها اليوم من الامم المتمدنة

لم يرق هذا فى أعين تلك الأمم التى زاحمها الأسلام وأخذ مكانها ولم تر فى نفسها قدرة على صد تياره الجارف ورأت فى سهولة تعاليمه وموافقتها لطبائع البشر ما يدعو الناس لترك ما هم عليه من الديانات والتمسك به فلم تر فى مقابلته خيرا من الكيد له ونصب الحبائل فى طريقه

دخل جماعة لا يستهان بهم فى الدين الاسلامى لا رغبة فيه بل كيداً له وحقداً عليه ففرقوا بين أهليه وأوقعوا بينهم العصبية وقطعوا بينهم حبال الاخوة حتى كان من الحوادث الفظيعة فى صدر الاسلام ما لولاه لعم الدين وجه المسكونة وذهب كل شيء سواه

ثم قام آخرون فأدخلوا فى الدين من العقائد الفاسدة والأهواء الباطلة ما تأباه سماحة الدين الاسلامى ووضعوا لذلك الاحاديث الباطلة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم والدين لم يدون بعد ولا جمع شتاته وانما هو فى صدور الرجال ممن لقى صاحب الشريعة أو لقى من لقاه فاختلفت العقيدة وتشعب المسالك على الناس واستحكمت العصبية بينهم فقاتل بعضهم بعضا كل يرى أن ذلك جهادا لاعلاء كلمة الحق والدين

كان هذا فى العصرين الاول والثانى للاسلام ثم كان من الفتن باستحكام ذلك الغراس الخبيث وتفرع غصونه ما كاد يقضى على الاسلام والمسلمين لولا بقية فيهم بذلت أموالها وأرواحها فى حفظ كيانه من الدثور

ظهر الاسلام بعد تلك الفتن الجارفة والخطوب الجائحة كأنه هلال يلوح من وراء غيوم سوداء متقطعة أمامه تلك الصروح الهائلة خامدة هامدة

كأنها بعض تلك المبانى التى مضى عليها ألوف الأعوام وأعجب شىء يشاهد فى هذه السلسلة التاريخية أن تكون نيران هذه الفتن أسرع الى مؤججيها منها الى المقصودين بها

أخذ الاسلام شكلا غير شكله الاول فسارت الحكومات الاسلامية فى خطتها سير رأى وهوى تاركة وراءها القوانين التى دونتها الشريعة الاسلامية على ما فيها من بساطة واعتدال وهجرت العلوم الاقتصادية لتسلط الحكام وعدم وقوفهم فى امتهان الأمة والتطاول على حقوقها عند حد وأضيعت مبادئ تلك العلوم بعد أن قربت ثمرتها من أيدى متعاطيها واقتصر فى العلوم على العلوم الشرعية وعلى ما يظن أن له بها مساسا وارتباطا

جاء هذا الدور من أدوار العلم والناس بعيد وعهد بأصول الدين والسليقة العربية وهى أكبر معين على فهم معانى القرآن والسنة بلا مشقة ولا عناء فاسدة والاقوال فى كل فن من فنون العلوم متضاربة متناقضة والتمييز بين غثها وثمينها مشكل فلم تسم همتهم الى الرجوع الى سنة الاسلاف وطريقة صاحب الامر والاهتداء بهديهم حصراً لدائرة الاختلاف فى أضيق الدوائر وتقليلا للاشكال على الناس قدر الامكان وانما رجعوا الى ما وقع اليهم من مقالات من سبقهم فأخذوها وتشبثوا بها وعكفوا على تعلمها وتعليمها بلا نظر فى دليلها ولا نظر فى وجوه استنباطها بل بمجرد حسن الظن بقائلها وربما كانت المقالة فاسدة وكانت غير مزعومة على قائلها مفتراة عليه أو ربما كانت له مقالة ثانية رجع عن مقالته الأولى اليها

ومن ذلك الوقت أخذ المسلمون فى الجمود من جهة والاستكانة والرضوخ من جهة أخرى وأخذت هذه المبادى تتأصل فى طبائعهم حتى صارت احدى الغرائز فصارت طاعة المتسلط فريضة مهما كان أثرها سيئا على الدين والدنيا وتقلص ظل السنن والشعائر الدينية وحلت محلها البدع والمنكرات وأصبح

انكار هذه البدع والحط منها ازراء على الدين وانتقاص للشريعة يوجبان شدة العقاب

جردت الكتب المؤلفة فى الدين من أصول الدين وسنته ومحاسنه وآدابه وقوانينه الأخروية والاجتماعية وحشيت من الخرافات والاكاذيب والاحاديث الموضوعة المفتريات على صاحب الشريعة وقصر حملة العلم نظرهم عليها كأنها أم الدين بل شدد فى أمرها قوم منهم فقالوا انها الدين وان خالفت أصول الدين كتابا وسنة بلا بحث فيها ولا تروٍ في شأنها

نشأ عن هذه الاعراض التى ذكرناها وبينا كيفية تسلطها أمراض قتالة

(١) احتجاب نور الشريعة عن أنظار العالم الاسلامى وراء ستر تقليد من لا علاقة له بالدين

(٢) شيوع البدع والاحداث ونزولها أمهات منزلة المسائل الدينية

(٣) استكانة النفوس لهذه البدع والركوع أمامها من العلماء جهلا ومن العامة تقليدا لهم

(٤) قعود أهل الايمان والنظر الصحيح عن بيان حقيقة الدين خوفا من علماء السوء أن يثيروا العامة عليهم كما اتفق ذلك لكثير ممن تقدمنا من أهل العلم الصحيح ومن رأيناه فى عصرنا . ولقد رأينا رجلا أنكر بدعة ربما كانت مكفرة فافتى نحو ثلاثمائة رجل ممن ينتمون الى العلم للتزيي بزى أهله بكفره ومروقه من الدين فلحقه لذلك ما فيه كفاية الردع أقوى رجل مجرد لخدمة الدين والجهاد فى اعلاء كلمته والذب عنه

(٥) وقوع المسلمين فى الحيرة اذا توجه عليهم اعتراض فى أمر وقامت عليهم حجة فى قبحه ظنا منهم ما هم عليه هو الدين ولو علموا ما هو الدين لأيقنوا أن الاعتراض متوجه عليهم لا على الدين وحاشا الدين الحنيف السهل أن يتوجه عليه اعتراض

هذه الامراض التى لحقت جسم الدين الاسلامى الحنيف كافية لان

تفده حياته ولو أن أصول الدين محفوظة من التغيير والتبديل لم تصل اليها يد عابث لم يصل الينا شيء من حقائق الدين ولا يندثر كما اندثر غيره من الأديان التى نالت أيدى المتلاعبين بها أصولها

أخذت الحكومات الاسلامية من أعوام قليلة شكلا غير شكلها الاول انتقل اليها من بلاد الفرنجة لمجاورتهم لنا ومخالطتهم إيانا فى ديارنا فأباحت التفكر وأعطت حرية القول فانطلقت الألسنة التى كان يعقلها الظلم لا الجهل وظهر من كان يستره الخوف لا الخمول فتقاص من ظل البدع وظهر من شعائر الدين في نحو ربع قرن ما يبشر بحسن المآل إذا استمرت الحال على مثل مانشهد اليوم

إلا أن محاربة البدع والاحداث وعلاج هذه الأدواء الفتاكة يجب أن تكون من جهة النابتة الجديدة والناشئة الحديثة لا من جهة الشيوخ علماء أو عامه فان هذا الصنف من الناس قد استحكمت فيهم الامراض فليس إلى شفائهم من سبيل

أن الخاصة يمنعهم من الرجوع إلى الحق أنيتهم واستكبارهم أن يكونوا تبعا لغيرهم ممن يظلهم وإياه عصر واحد وخوفهم على مراكزهم فى قلوب العامة أن يعلموا أنهم نشئوا على غير هدى دينهم وهكذا شأن رؤساء الديانات وزعماء المشركين فى مخالفتهم النبى صلى الله عليه وسلم والعامة يمنعهم من الرجوع جزمهم بأن الحق من مقلديهم وأن مايقوله غيره بدعة محدثة وقد قيل لعمرو بن العاص ما أخرك عن الدخول في الاسلام مع تقدمك فى العقل قال جاءت النبوة والزعامة بيد غيرنا ونحن أتباع تنتهى حيث ينتهون فلما ماتوا وأفضى الامر الينا نظرنا فاذا مايدعو اليه حق فاتبعناه : فاما النابتة الحديثة فلم تعرف قلوبهم هذه المفاسد ولا وضعوا زمام أمرهم فى يد أحد يقودهم حيث شاء فهم أحرار فهؤلاء إذا ظهر لهم الحق لم يلبثوا أن يطيروا اليه

ان الدين ليبلغ بالتسلط على صاحبه مالا يبلغه متسلط آخر مهما كان السلطان وفى هذا المعنى جاء الحديث — إن الله ليزع بالقرآن ما لا يزع بالسلطان والدين الاسلامى كافل بالسعادتين الدنيوية والاخروية على وجه لايتطرق اليه خلل أونقصان فالذى يريد أن يخدم الامة الاسلامية فى مبدئها اومعادها خدمة حسنة موصلة الى السعادة الحقيقية فاقرب الطرق أن يزيل الستار عن محاسن الديانة فاذا خالطها بشاشتها القلوب وحلت الحقائق محل الخرافات وقامت المحاسن مقام المساوى سار المسلمون فى طريق السعادة فلم يلبثوا أن يحلوا ربوعها وفى هذا أكبر خدمة لنوع البشر وسعادته

ولذلك ترى أن نشر المقالات فى بيان محاسن الاسلام ومحاربة البدع والاحداث ودفع مايتوجه عليه من الانتقادات والاعتراضات وتقرير حقائقه من أحسن ما يخدم به علماء الاسلام الديانة الاسلامية لرفع منارها بين سائر الديانات

انما الواجب فى ذلك أن يكون القائمون باعباء هذه المهمة والناهضون بهذه الوظيفه من خاصة الخاصة من وقفوا اتمام الوقوف على اصول الدين وعرفوا سنة صاحب الشريعة وسنن أصحابه من بعده وأسرار التشريع لئلا يخرجوا بالناس من حفرة الى ماهو شر منه وأنكى : وأقل مافى ذلك أن لايتكلم أحد باستحسان شيء واستنكاره فى نظر الشرع الا بعد التثبت عنه واجادة التأمل فيه ليكون على بينة من أمره

الله الله فى طلب الظهور من جهة الدين أو طلب الدنيا من قبله فانما ضاع الدين فى طلب الظهور منه أو جعله وسيلة للدنيا فان الدين لله وللبشر كافة فلا ينبغى أن يتقدم لخدمته الا من كان يرى فى خلوص نيته وصفاء سريرته وحسن طويته وتجرده عن الاميال والاهواء والاغراض ما يمكنه أن يقدم خدمة ترضى جناب الحق جل جلاله وترضى البشر كافة والله الهادى الى سواء السبيل هو حسبنا ونعم الوكيل

محمد بدر الدين النعسانى

المقالة الاولى

لجناب المسيو جابرييل هانوتو

قد أصبحنا اليوم أزاء الاسلام والمسألة الاسلامية .

اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الافريقية بسرعة لا تُجارى حاملين فى حقائبهم بعض بقايا تمدن البيزنطيين (يونان الشرق) ثم تراموا بها على أوربا ولكنهم وجدوا فى نهاية انبعاثهم هذا مدنية يرجع أصلها إلى آسيا بل أقرب فى الوصلة إلى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم إلا وهى المدنية الآرية المسيحية ولذلك اضطروا إلى الوقوف عند الحد الذى اليه وصلوا وأكرهوا على الرجوع إلى افريقية حيث ثبت فيها أقدامهم احقابا متعاقبة . ولكن كان لايزال الهلال ينتهى طرفاه من جهة بمدينة (القسطنطينية) ومن جهة أخرى ببلدة (فاس) في الغرب الاقصى معانقا بذلك الغرب كله

في تلك البقعة الافريقية التى أصبحت مقر ملك الاسلام جاءت الدولة الفرنساوية لمباغتته . جاء القديس (لويس) الذى ينتهي إلى (اسبانيا) بوالدته ليضرم نيران القتال فى مصر وتونس وتلاه (لويس الرابع عشر) فى تهديده بالايالات الافريقية الاسلامية وعاود هـذا الخاطر (نابليون الاول) فلم يوفق الى تحقيقه الفرنسويون الا فى القرن التاسع عشر حيث أخنوا على دولة الاسلام التى كانت لاتنثنى عن متابعة الغارات ضد القارة الاوروبية فاصبحت الجزائر فى أيديهم منذ ٧٠ عاما وكذلك القطر التونسى منذ ٢٠ عاما

قد وصلت طلائع قوانا الآن الى اصقاع من الصحراء تنتهى اليها

كشبانها الرملية فعظم اندهاش الباقين من خصومنا وتزايد ذهولهم لانهم بعد اندفاعهم شيئا فشيئا فى الفيافى وبطن الخبوت وظنهم أنهم صاروا فى أمنع موئل شعروا بانفسهم وقد حلق عليهم الاوربيون من جميع الجهات وكانت القبائل الواردة اليهم من السنغال أخبرتهم بان الاوروبيين امتلكوها وتقدموا منها إلى باقل وباماكو وسيجو سيكورو وتوغلوا فى جهات أخرى حتى وصلوا إلى النيجر وبحيرة شاد وأن مدينة تمبكتو المقدسة قد سقطت فى أيديهم منذ أعوام . وأكد لهم هذه الاخبار أيضا رسلهم الذين يخترقون أفريقية الوسطى ويجوبون نواحيها بما ذكروه لهم من ان جهات صانغا وتجا وندره قد وطئتها أقدام الحاملين للعلم المثلث الالوان الذين يصعدون الانهار لتنظيم البلاد وترقية شئونها وأن وابوراتهم (فى الاصل بابور على التحريف الشائع عند الامم الشرقية من تسمية البواخر النهرية أو البحرية بالبابورات بدلا عن البواخر) تشق عباب نهرى الكونغو والشارى وتنعكس على سطحهما صورة الدخان الاسود المسترسل خلفهما عندئذ كان يطرق الآذان صوت اليائسين وقد جلسوا أمام دورهم واضعين رؤوسهم بين أفخاذهم لكثرة الغم والكدر وهم يدعون إلى الله ويكررون قولهم عن فرنسا يشبهونها بسرادق كبير اذا حاول الانسان خلعه فلا يزال له السمو عليه ويختمون كلامهم بقولهم « قد كان هذا قدراً مقدورا »

اذن فقد صارت فرنسا بكل مكان فى صلة مع الاسلام بل صارت فى صدر الاسلام وكبده حيث فتحت أراضيه وأخضعت لسطوتها شعوبه وقامت تجاهه مقام رؤسائه الأولين ، وهي تدير اليوم شؤونه وتجبي ضرائبه وتحشد شبانه لخدمة الجندية وتتخذ منهم عساكر يذبّون عنها فى مواقف الطعان ومواطن القتال ، تلك المملكة الفسيحة الأرجاء التى أنشأتها فى باطن القارة الافريقية وهى الوارثة لما أبقته الدول السالفة والأمم البائدة من قرطاجيين ورومانيين وعرب من آثار المدينة التى كانت القارة الافريقية منبتا لمعارها اليانعة .

ان شعباً جمهورى المبادئ يبلغ عدد نفوسه أربعين مليونا لا مرشد له الا نفسه ، لاعائلات ملوكية فيها يتنازعن الحكم ، ولا رؤساء يتناولون الرئاسة بطريق الوراثة هو الذى تقلد زمام أدارة شعب آخر لا يلبث أن ينمو حتى يساويه فى العدد وهو ذلك الشعب المنتشر فى الارجاء الفسيحة والاصقاع المجهولة والمتبع لتقاليد وعادات غير التى نعنو لها ونحترمها وهو الشعب الاسلامى السامى الاصل الذى يحمل اليه الشعب الآرائى المسيحي الجمهورى الآن ملح وروح المدنية ، نعم أن ظروف وشروط هذه المعضلة نادرة ، ولكن ليس على الشعب الغالب أن يحاول جهده لمعرفتها والاطلاع عليها .

ليس الاسلام فينا فقط بل هو خارج عنا أيضا قريب منا في مراكش تلك البلاد الخفية الاسرار التى يشبه وجودها الحاضر مقدور الأبد فى الغموض والاشتباه قريب منا فى طرابلس الغرب التى تتم بها المواصلات الاخيرة بين مركز الاسلام فى البحر الابيض المتوسط وبين الطوائف الاسلامية بباطن القارة الافريقية ، قريب منا فى مصر حيث تصادمت الدولة البريطانية مصادمتها إياها فى الاقطار الهندية ، وهو موجود وشائع في آسياحيث لا يزال قائما فى بيت المقدس وناشراً أعلامه على مهد الانسانية ويحسب أنصاره وأشياعه فى قارات الارض القديمة بالملايين ، وقد انبعثت شعبة منه فى بلاد الصين فانتشر فيه انتشاراً هائلا حتي ذهب البعض الى القول بان العشرين مليونا مسلما الموجودين فى الصين لا يلبثون أن يصيروا مائة مليون فيقوم الدعاء لله مقام الدعاء (لساكياموني) ، وليس هذا بالامر الغريب فانه لا يوجد مكان على سطح المعمورة إلا واجتاز الاسلام فيه حدوده منتشراً فى الآفاق فهو الدين الوحيد الذى أمكن اعتناق الناس له زمراً وأفواجا وهو الدين الوحيد الذى تفوق شدة الميل الى التدين به كل ميل الى اعتناق دين سواه ففى البقاع الافريقية ترى المرابطين وقد أفرغوا على أبدانهم الحلل البيضاء يحملون الى الوثنيين من العبيد العارية أجسامهم من كل شعار قواعد الحياة

ومبادىء السلوك فى هذه الدنيا كما أن أمثالهم فى القارة الاسيوية ينشرون بين الشعوب الصفر الالوان قواعد الدين الاسلامى ، ثم هو أى — هذا الدين — قائم الدعائم ثابت الاركان فى أوربا عينها أعنى فى الاستانة العلية حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصال جرثومته من هذا الركن المنيع الذى يحكم منه على البحار الشرقية ويفصل الدول الغربية عن بعضها شطرين

في باحات قصر يلدز ترى العلماء والدراويش وقد تدثروا بثياب الصوف وتعمموا بالعمائم الكبيرة جالسين على الارائك بجانب سفراء الدول ، هم هناك يمثلون فى الخاطر أشخاص ألف ليلة وليلة لايتحركون من مقاعدهم ، ينسبون بكلمات تطابق تحريك أيديهم حبات السبح منتظرين مجيء دورهم في المقابلات لعرض طلب أو توجيه لوم ، وكل المسلمين من مقيم فى (الاستانة) أو فى « مراكش » فى ارجاء آسيا أو أصقاع أفريقية من بدو كانوا أو حضر واقفين فى أماكنهم أو سارين مع القوافل يركعون مع الراكعين اذا أزفت الصلاة يتوضأون أو يتيممون بالتراب مولين وجوههم جميعا شطر الكعبة وسواء منهم الذين يلبسون الثياب الواسعة أو يتزيون بالسترة الاسلامبولية والذين يلبسون الطربوش أو العمائم على رؤوسهم والذين يضعون السيف واليقطان في نطاقهم أو يتلقون العلوم فى مدرسة برلين الجامعة أو يدرسون علوم السياسة فى باريس فانهم يممون وجوههم شطر مكان واحد هى الارض المقدسة هى الارض التى تكتنفها الصحراء ، هى الارض التى عاش فيها محمد ، هى الارض التى تتضمن جسمه المبارك فى قبر لايجسر أحد للوصول اليه إلا مغطى الوجه حياء وهيبة ، هى الارض التى جاء منها الآباء ويعود اليها الابناء بحركة مستمرة هى الحج الابدى الى بيت الله الحرام ، وجميع المسلمين عن بكرة أبيهم يرثون بطرفهم الى هذا المكان المقدس ويمدون اليه أعناقهم ولا يجدون لذة فى الحياة إلا بأمل لعودة اليه ، ومن مات منهم ولم يكن أدى فريضة الحج فقد مات على أسف وحسرة .

وخلاصة القول أن جميع المسلمين على سطح المعمورة تجمعهم رابطة واحدة يدبرون أعمالهم ويوجهون أفكارهم الى الجهة التى يبتغونها وهذه الرابطة تشبه السبب المتين الذى تتصل به أشياء تتحرك بحركته وتسكن بسكونه ، بل هى القطب الذى تنهى اليه قوة المغناطيسية ، ومتى اقتربوا من الكعبة من البيت الحرام ، من بئر زمزم الذى ينبع منه الماء المقدس من الحجر الاسود المحاط باطار من فضة ، من الركن الذى يقولون عنه أنه سرة العالم وحققوا بأنفسهم أمنيتهم العزيزة الذى استحثتهم على مبارحة بلادهم فى اقصى مدى من العالم للفوز بجوار الخالق فى بيته الحرام اشتعلت جذوة الحمية الدينية فى أفئدتهم فتهافتوا على أداء الصلاة صفوفا وتقدمهم الامام مستفتحا العبادة بقوله « بسم الله » فيعم السكون والسكوت وينشران أجنحتهما على عشرات الالوف من المصلين فى تلك الصفوف ويملأ الخشوع قلوبهم ثم يقولون بصوت واحد « الله أكبر » ثم تعنوا جباههم بعد ذلك قائلين « الله أكبر » بصوت خاشع يمثل معنى العبادة .

ولا تظنوا أن هذا الاسلام الخارجى الذى تجمعه جامعة فكر واحد غريب عن اسلامنا ولا علاقة له به . لانه وان كانت البلاد التى تحكمها شعوب مسيحية ليست فى الحقيقة « بدار اسلام » وانما هي « دار حرب » فانها لا تزال عزيزة وموقرة فى قلب كل مسلم صحيح الايمان . والغضب لايزال يحوم حول قلوبهم كما تحوم الاسد حول قفص حبست فيه صغارها وربما كانت قضبان هذا القفص ليست متقاربة ولا بدرجة من المتانة تمنعها عن الدخول اليهم من بينها .

ترى فى قرانا وبلداننا درويشاً فقيراً شاحب اللون متدثرا بأرديته البيضاء المعلمة بخطوط سوداء يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه لا يلويه عن ذلك شيء . هذا الدرويش الذى ينتقل من خيمة الى خيمة

ومن قرية الى قرية راويا حوادث الأقطاب والأولياء من مشايخ الاسلام انما يبذر فى القلوب حيثما حل وأينما توجه بدور الحقد والضغينة علينا . ان العالم الاسلامى منقسم الى طوائف وطرائق لا عداد لها ينخرط فى سلكها الالوف من رعايانا المسلمين ولكن ليس لها فى الغالب مراكز ولا زوايا بالاراضى الداخلة فى دائرة نفوذنا . وغاية الامر أن العاملين فى هذه الطوائف والمذاهب الكثيرة يخترقون بلا انقطاع ولا توان مستعمراتنا الافريقية فيستقبلهم أهلوها بالترحاب ويحسنون وفادتهم ويكرمون مثواهم حتى أن الفقير منهم لايرى فى اكرامه له أقل من أن ينحر له شاة هذا عدا مايجمعه له من صدقات ذوى البر والاحسان أو من المرتبات المالية السنوية التى يبلغ ما يدفعه أهالى الجزائر وحدهم منها ثمانية ملايين من الفرنكات كل عام : وهذا مما يستوجب العجب والدهشة لان مقدار مانجبيه من الضرائب كل سنة من أهالى الجزائر لا يتجاوز ضعف هذا المبلغ .

ومن بين تلك الطرائق والطوائف ما يخلد أعضاؤه الى السكون وربما كانت علاقتهم مع رجال حكومتنا في الجزائر وتونس على أحسن ما يرام . وما ذلك الا لأن الرابطة التى تربطهم ببعضهم قد اعتراها الوهن ، لان الفوضى التى أصابت الاسلام الافريقى قد أخذت نصيبها منهم . ولكن توجد طوائف غيرها بلغت شدة العصبية منها مبلغا عظيما لانها مؤسسة من مبدأ كفاح غير المؤمنين وعلى كراهة المدنية الحاضرة . فقد أسس الشيخ السنوسى في جهة ليست بعيدة من الاصقاع التي تلى أملاكنا فى الجزائر مذهبا خطيرا له أشياع وانصار ومقر هذا الشيخ بلدة جغبوب الواقعة على مسيرة يومين من الواحة التى كان قائما بها هيكل البرجيس آمون وقد هاجر أولاده الى (كوفرة) ومن مذهبهم التشديد فى رعاية القواعد الدينية . ولقد لبثوا زمنا مديداً لا يرتبطون بعلاقة ما مع الدولة العلية أخيرا بسبب مابينها من العلاقات وبين الدول المسيحية ، ولكن يظهر أن أخلاقهم الشديدة

قد تلطفت فتقربوا من الدولة العلية . غير أن هذا لم يمنعهم من طرح حبائل الدسائس التى أوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحها في أفريقية الجنوبية. ولم يكن الامر قاصرا على وسط القارة الافريقية فانه توجد بالاستانة نفسها والشام وبلاد العرب ومراكش عصابة خفية ومؤامرة سرية تحيط بنا أطرافها وتضغط علينا مم قرب ويخشى أنها تفترس بنا اذا أغمضنا الطرف.

كنا نرى من زمن حديث رعايانا الوطنيين فى الجزائر ينصاعون لأوامر سرية تناقلوها بالأفواه وكانت تقضى عليهم بتأليف الزمر والأفواج منهم لمهاجرة أوطانهم والذهاب إلى آسيا الصغرى حيث يجدون الامن المرجو

يؤخذ مما تقدم أن جراثيم الخطر لاتزال موجودة فى ثنيات الفتوح وطى أفكار المقهورين الذين أتعبتهم النكبات التى حاقت بهم ولكن لم تثبط هممهم . نعم ليس لمقاومتهم رؤساء يديرون هذه المقاومة ، ولكن رابطة الاخاء الجامعة لأفراد العالم الاسلامى بأسره كافلة بالرئاسة ففى مسئلة علائقنا مع الاسلام تجد المسئلة الاسلامية والمسئلة الدينية والمسائل الداخلية والخارجية شديدة الاتصال والارتباط ببعضها . وهذا ما يجعل حلها صعبا ومتعذراً كما سنبينه

المقالة الثانية

المسائل الأساسية فى كل دين هى التى ترتبط بالقدرة والمغفرة والحساب وهي كلمات ثلاث مصبوغة بصبغة دينية تلقى فى النفس الاعتقاد بوعورة المسلك فى تفهمها مع أنها من الامور التى ينبغى الوقوف عليها والعلم بها مهما صعب منالها وتعذر مرامها . ان الدين هو الوسيلة التي تمهد للانسان طريق الوصول الى الحضرة الالهية . أو بعبارة أخرى الواسطة فى وقوف المخلوق بين يدى الخالق . اذا تكرر ذلك فهل الخالق بقدرته المطلقة يودع فى نفس المخلوق استعداداً للعمل بمقتضى ارادته السرمدية بحيث لايحيد عما تأمره به هذه الارادة ؟ أو هل للانسان متى تم خلقه أرادة خاصة يعمل بحسبها واختيار مستقل لايستمد من اختيار أسمى منه ؟ وهل للانسان الذى خلقه الله وسواه ارادة مطلقة من نفسه وتصرف مطلق فى ذاته ؟ أم ترجع جميع أعماله من خير وشر الى القدرة الربانية القابضة على زمام الكون والمسببة لوجوده فيه ؟

في دائرة هذا البحث تنحصر الخلافات الدينية والفلسفية التى لم يوفق دين من الاديان ولا مذهب فلسفى الى حسمها بكيفية يقتنع بها الادراك ويرضاها العقل مع أن البحث فيها لاصابة هـذا الغرض السامى لم يكن بالأمر الحديث إذ طالما بحث فيها فلاسفة الأقدمين فلم يجدوا لها حلا وكان حظهم منها كحظ فلاسفة وعلماء المتأخرين

وغاية ما عرف منذ الأعصر السالفة إلى الآن أنه وجد مذهبان تشاطرا فيما بينهما العقائد البشرية من تلك الوجهة المهمة . فالاول منهما يقول بتناهى الربوبية في العظمة والعلو وجعل الانسان حضيض الضعف ودرك الوهن ويذهب الثانى إلى رفع مرتبة الانسان وتخويله حق القربى من

الذات الالهية بما فطر عليه من إيمان وإرادة وبما أتاه من أعمال طيبات وحسنات .

والنتيجة الطبيعية للاعتقاد بمذهب الفريق الأول هي تحريض الانسان على إغفال شئون نفسه وبث القنوط فى فؤاده وتثبيط همته وايهان عزيمته بينا تسوقه نتيجة الاعتقاد بمذهب الفريق الثانى إلى ميدان الجلاد والعمل وتلقى به فى غمرات التنافس الحيوى . ومن الامثال على الفريقين البوذية الذين يدينون بدين يقضى عليهم بالتجرد إذ من قواعده أن الانسان والكون يفنيان في الذات الالهية ، وقدماء اليونان الذين يدينون بدين من قواعده تشبيه الاله بالانسان فى أوصافه المادية يقضى عليهم هذا الدين بالعمل والحياة لاعتقادهم بان الانسان أو « البطل » يمكنه أن يصير فى عداد الآلهة بحسناته وخيراته .

وقد ظهرت على اطلال العالم القديم بعد خمسمائة عام من انقضاء ديانتان إحداهما ربانية والثانية بشرية تمثلان ذينك المذهبين المتناقضين وانما يتلطف فى التناقض . أما الاولى فهى الديانة المسيحية الوارثة بلا واسطة لآثار الآريين والمقطوعة الصلات بالمرة مع مذهب السامية وإن كانت مشتقة منه وغصنا من دوحته . ومن خصائص هذه الديانة ترقية شان الانسان بتقريبه من الحضرة الالهية فى حين أن الديانة الثانية وهى الاسلام المشوبة بتأثير مذهب السامية تحط بالانسان إلى أسفل الدرك وترفع الاله عنه فى علاء لا نهاية له .

هذان الميلان المختلفان يظهران ظهوراً واضحا فى الاعتقاد الاساسى لكلتى الديانتين وهو أصل الالوهية . أما المسيحى فيذهب في هذا الاصل إلى الثالوث أى أن الاله الأب أوجد الاله الابن واتصل الاثنان بصلة هى روح القدس . وعليه فيكون يسوع المسيح إلها وبشراً — هذا الثالوث السرى المشتقة أصوله من ضرورة وجود إله بشرى يمحو ذنب الجنس

البشرى ويفديه من الخطيئة التى اقترفها برفضه المسلم الذى يعتقد بوحدانية الرب ويتمسك بهذا الاعتقاد تمسكا شديداً حيث يقول « لا إله إلا الله »

غير أن ادراك المسيحيين من هذا القبيل هو أخف وأحلى وأجلب للثقة إذ هو يحملهم على إتيان الاعمال التى تقربهم من الله حيث الوسائط بينهم وبين ذاته العلية موصولة ، فى حين أن المسلمين تجعلهم ديانتهم كمن يهوى فى القضاء بحسب ناموس لا يتحول ولا يتبدل ولا حيلة فيه سوى متابعة الصلوات والدعوات والاستغاثة بالله الاحد الذى هو مستودع الآمال : ولفظة الاسلام إنما تعنى « الاستسلام المطلق لارادة الله . »

نرى الديانتين أو بعبارة أخرى المدنيتين المسيحية والاسلامية احداهما بازاء الاخرى وتتصل الاثنتان ببعضهما من حيث المنشأ العام لهما إذ هما مشتقتان من الاصول اليونانية والسامية ومنهما استمدتا جانبا من العقائد والمذاهب والآداب ، فهما إذاً متداخلتان فى بعضهما من وجوه عدة ولكن مسافة الخلف بينهما شاسعة فى الحقيقة من حيث البحث فى القدرة الالهية والحرية البشرية .

وقد كانت هذه المناقضات وتلك الأشباه نقطة تفرع الطريقين المختلفين للذين اتبعناهما فيما يربطنا من العلائق بالاسلام والمسلمين . قصر فريق منا بحثه وحكمه على ما شاهده من المناقضات والخلافات بين الدينين المسيحى والاسلامى فرأى فى الاسلام العدو الالد والخصم الاشد . قال المسيو كيمون فى كتابه « باتولوجيا الاسلام » أن الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك فيهم فتكا ذريعا ، بل هى مرض مريع وشلل عام وجنون ذهولى يبعث الانسان على الخمول والكسل ولا يوقظه منهما الا ليسفك الدماء ويدمن على معاقرة الخمور ويجمح فى القبائح . وما قبر محمد فى مكة الا عمود كهربائى يبث الجنون فى رؤوس المسلمين ويلجئهم الى الاتيان بمظاهر الهستريا « الصرع » العامة والذهول العقلى وتكرار لفظة الله الى

ما لا نهاية والتعود على عادات تنقلب الى طباع أصلية ككراهة لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى والجنون الروحانى والليمانيا والماليخوليا وترتيب مايستنبط من أفكار القسوة والفجور فى اللذات الخ الخ

أمثال هذا الكاتب يعتقدون أن المسلمين وحوش ضارية وحيوانات مفترسة « كالفهد والضبع كمايقول المسيوكيمون » وأن الواجب ابادة خمسهم « كما يقول أيضا » والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة وتدمير الكمية ووضع ضريح محمد فى متحف اللوفر « وهذا أيضا قوله » .... وهو حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشرى .. أليس كذلك ؟ ... ولكن قد برح عن خاطر الكاتب أنه يوجد نحو ١٣٠ مليونا مسلما وأن من الجائز أن يهب هؤلاء « المجانين » للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم

ويذهب غير أصحاب هذا الرأى الى أن الاسلام دين ومدنية يتصلان مع ديننا ومدنيتنا بعروة الاخاء والتصاحب . وتطرف البعض منهم فاعتبر الاسلام ارقى مبدأ وأسمى كعبا من الدين المسيحى . قال المسيو لوازون « القس ياسنت سابقا » معترفا ومقرا بأن الاسلام هو الدين المسيحى محسنا ومحورا ونصح للفرنسويين الذين يتلمسون دينهم المفقود أن يستعينوا بالاسلام للعثور على ضالتهم المنشودة . ويذهب قوم غير الذين سبقت الاشارة اليهم الى وجوب احترام الاسلام وتبجيله مستندين فى ذلك على ما دوّنه أحد مؤرخى الكنيسة الذى صار فيما بعد كردينالا حيث قال : ان الاسلام قنطرة للامم الافريقية ينتقلون بواسطتها من ضفة الوثنية الى ضفة المسيحية فليس الواجب والحالة هذه قاصراً على معاملة الاسلام بالتساهل والتسامح بل لا بد من رعايته وتعضيده بأن نسعى فى توسيع نطاقه وترتيب الارزاق على المساجد والمدارس وجعله رائد المدنية فرانسا وآلة تستعين به على فتوح البلاد .

هذان هما الرأيان السائدان بما بينهما من درجات الاعتدال والتلطف

والمسالمة . ولكنهما وان افترقا متصلان ببعضهما وموجودان فى حيز واحد وقدلوحظ كثيرا أن كل فرد من أفراد موظفينا أووكلائنا أوأبنائنا المستعمرين قد تحير بين المبدأين وسلك الخطة التى رسمها لنفسه تجاه المسلمين طبقا لامياله نحو قطب من القطبين المتناقضين للذين يوجد بأحدهم المتطرفون وبالآخر المتعصبون ولا وسط بينهما .

وتلك الاميال المتعاكسة التى برزت من مكامن الاعتقاد الى مجالى الفعل والتنفيذ هي التى أحدثت التناقض فى أعمالنا الاجتماعية والسياسية والادارية وأدت الى الشكوك والريب ونقض ما تقرر وتقرير ما نقض الى غير ذلك مما جرت عليه حكومتنا ولا سيما فى البلاد الافريقية من عدم السير على وتيرة واحدة . هذا الخلل ينمو شيئا فشيئا ويتضاعف خطره كل يوم اذا فكر الانسان فى أنه لا يصيب بسوءه بلاد الجزائر مع سكانها الوطنيين الذين يبلغ عددهم الاربعة والخمسة ملايين فقط بل يسرى على نصف قارة بأكملها عديدة السكان وستزداد ويتضاعف عددها بامتداد رواق الامان على الاهالى وابطال التجارة فى الرقيق

فالمسئلة اذاً خطيرة جداً ولا بد من الاعتماد على أمر واحد فى حلها اذ لايكفى للوصول الى هذا الحل تنميق عبارات وتسطير كلمات : ولذلك خيرت أن أعرضها على محك الرأى العام مبينا حكم الوسائل وأكثرها انطباقا على العقل والصواب للوصول الى نتيجة فعلية وموردا شيئا واحداً هو من ألزم الاشياء لموضوع تلك المسئلة وأشدها ارتباطا به .

قد سبق لى وقتما تم تشكيل مملكتنا الافريقية تشكيلا تاما ان سألت ولا زلت أكرر هذا السؤال من الحكومة أن تبحث بحثا علميا فى علاقاتنا مع الاسلام والمسلمين بمعرفة أناس خبيرين وعلماء عارفين لينجلى هذا البحث عن الخطة التى يتحتم على العموم اتباعها من حاكم منا ومحكوم

إن الراغب فى الاستعمار من أبناء بلادنا يصل الى الجزائر أو تونس

أو السنغال فيجد نفسه فى اتصال مع العربى أو بعبارة أعم مع المسلم إذ منه يشترى الارض التى يريد استنباتها ومنه يطلب اليد العاملة ومعه يدبر شؤونه المعيشية . فبالرغم من هذا الاتصال وعن هذا الجوار والتلاصق تراهما يجهلان بعضهما وتنفرج مسافة هذا الجهل وتكون عواقبه أكثر خطراً إذا كانت العلاقة بين الاهالى وبين الموظف أو الحاكم أو القاضى أو الضابط أو غيرهم ممن هو منوط بالفصل فى خصوماتهم والقيام على شئونهم وتنفيذ قوانيننا بينهم . وما أسوأ مغبة ذلك الجهل إذا كانت العلاقة بينهم وزارة مستعمراتنا أو رجال حكومتنا المركزية التى يديرها أحدعشر وزيرا ربما لايوجد من بينهم سوى واحد أو اثنين أمعنا النظر فى خريطة الانحاء الواسعة والاصقاع القصية التى عهد بهم أمر ادارتها وتنظيمها .

مع أن الواجب متى رضينا باحتمال هذه المسئولية على عواهننا ونلنا هذه السلطة أن نطيل البحث ونمعن النظر فى طرق استخدام هذه السلطة وأن نسأل الخبيرين والعارفين ونستفيد ممن شاهدوا واختبروا ونستمد من معلوماتهم ما نستعين به على تحرير متن سياسى وجيز يتضمن أصول ومبادىء علاقاتنا مع العالم الاسلامى

ان فريقا كبيراً من العلماء النظريين والعمليين من موظفين وضباط وأساتذة ومهندسين ومزارعين ومستعمرين قد كانوا ولا يزالون في اتصال بالمسلم وجعلوا أحوال معيشته وطرق أعماله موضوع بحثهم ودراستهم . ولكن المسلمين أنفسهم قد ينبئوننا بما نجهله من يقين أخبارهم . فهم إذا سئلوا أجابوا واذا أجابوا أفاضوا وقد كثرت الابحاث فى كل موضوع حتى فى الموضوعات الصريحة الواضحة ولم يفكر أحد في الامر الذى نحن بصدده وهو من أكثرها غموضا والتباسا . فلماذا لانستعين بالوسيلة التى تفيض علينا انوار الحقيقة ونطرح من هذه الانوار شعاعا على من يريدون اتباع الصراط المستقيم حتى إذا ما تم التحقيق والبحث حررنا بما ينبعث عنهما من

الحقائق رسالة تذاع على الالسنة وتتداولها أيدى الموظفين والمستعمرين وتنشر بين الطلاب في المدارس فتمحى بها آثار الاضاليل والترهات الكثيرة ونزول العقبات القائمة وتقال الاقدام من العثرات وتكون تلك الرسالة بمثابة قانون ثابت لفرنسا الاستعمارية يجرى على نهجها العموم فيعم نفعه وتجتنى ثماره وربما كان سببا فى أن نعيش مدة نصف جيل على أساس اختبار الفرنساويين المستعمرين الذين انتشروا في عرض البلاد وطولها لارابطة بينهم ولا صلة تواصلون الصباح بالمساء فى الندمة والحسرة من عواقب هفوة هفوها أو ذلة سقطوا فيها وكانت كلمة واحدة كافية لاقالتهم من عثرتهم واصلاح هفوتهم

ولست أظن أن أحداً يرتاب فى نتائج ذلك التحقيق . وانما قبل ختام هذا الفصل أورد بعض اعتبارات اخالها ضرورية للوصول إلى الغاية المقصودة من أقوم طرقها : أشرت سابقا إلى الصلة الاكيدة بين السياسة والدين في العالم الاسلامى . والمسلمون فى الاحوال الراهنة شاعرون شعوراً قويا بايمانهم العام غير أن ادراكهم مبهم من حيث الجامعة السياسية وما كان يسميه القدماء بالرابطة المدنية أو الوطنية إذ ينحصر الوطن عندهم فى الاسلام . وهم يقولون أن السلطة مستمدة من الالوهية فلا يجوز أن يتولاها الامن كان من عقيدتهم ولم تدخل فى رؤوسهم حتى الآن فكرة سوى هذه التى تمكنت من أفئدتهم وأخذت فى قلوبهم أمتن مأخذ فكان ذلك سببا فى حدوث سوء التفاهم بين الحاكمين والمحكومين فى البلاد الاسلامية الخاضعة لحكومات المسيحية .

على أنه بالرغم عن ذلك قد حصل انقلاب عظيم فى بلد من هذه البلاد فصلت فيه السلطة الدينية عن السلطة السياسية بدون جلبة ولا ضوضاء . نريد بهذا البلد القطر التونسى الذى وضعت عليه الحماية التى مؤداها احترام

النظام السابق على الفتح بصيانة القوانين والعادات من المساس والمحافظة على مركز الباى . وقد بالغنا في ذلك بحيث تمكنا بواسطة ما أدخلناه من التعديلات الطفيفة شيئا فشيئا وأجريناه من المراقبة على الامور الادارية والسياسية من التداخل في شؤون البلاد والقبض على أزمتها بدون شعور من أهلها .

تم هذا الانقلاب بسرعة ولين فلم يتألم منه الاهلون ولم تنخدش له حساساتهم اذ لبست المساجد مغلقة فى اوجه المسيحيين والاملاك الموقوفة محبوسة على السبل التى خصصت لها وتركت أزمة الاحكام بأيدى القواد والقضاة ولم يغير شيء من القوانين الاهلية الا برضى وتصديق من الاهالى وربما كان يطلب منهم . وقام بأعمال هذا التغيير والتبديل وهذا النسخ والتحويل عدد قليل من الموظفين أكثرهم من التونسيين . وجملة القول أن انقلابا عظيما حصل بدون أن يجر وراءه ألما أو توجعا أو شكوى بحيث وطدت الآن دعائم السلطة المدنية من غير أن يلحق بالدين مساس وتشربت الافكار الاوربية بين السكان بدون أن يتألم منها الايمان المحمدى واقترنت السلطة الفرنسوية بالسلطة الوطنية اقترانا لم تغشه سحابة كدر .

اذاً يوجد الآن بلد من بلاد الاسلام قد ارتخى بل انفصم الحبل بينه وبين البلاد الاسلامية الاخرى الشديدة الاتصال ببعضها . اذا توجد أرض تنفلت شيئا فشيئا من مكة ومن الماضى الاسيوى . أرض نشأت فيها نشاة جديدة انبثت فى قضائها وادارتها وعاداتها وأخلاقها . أرض يصح أن تتخذ مثالا يقاس عليه وأنموذجا ينسج على منواله . ألا وهي البلاد التونسية

كانت هذه البلاد ميدان التنافس والجلاد اذ حكمت فيها قرطاجنة ورومية وبيزنطية والعرب وسان لويس وشارلكان فأصبحت الآن مهبط المسالمة ومعهد التصالح والوئام. ففيها الديانتان بل المدنيتان متلاصقتان

بل متداخلتان حتى تا كدت نقط التشابه بينهما وانحسرت فرجة الخلاف وارتفعت الاحقاد من الصدور رغبة من الفريقين فى التمتع بمزايا الاراضى الخصبة والسماء الصافية الاديم التى ينزل منها على القلوب برد وسلام يلطفانها. ولعل الاطلال العديدة الشاهدة على ماتعاقب فى الاقطار التونسية من المدنيات القديمة لم تندثر تماما ولم ينمح أثرها كى تهتز لاستقبالنا وتوصل ببعضها ما انقطع من حلقات سلسلة الدهر الماضى والزمن الغابر .

ان مسجد القيروان الجامع شيدت عقوده على الاعمدة القديمة، وبنيت كنيسة الكردينال (لافيجرى) الكاتدرائية تجاه أكمة (بيرسا) التى عبدت فيها (تانيت) .

وخلاصة القول أن مزيجا من التاريخ يركب في هذه الارض تحت رعاية فرنسا وانسانيتها . ومن المحتمل أن تنبعث تلك الآثار من قبور الماضى فتعيش في خلال الجيل الذى نطرق الآن أبوابه للرتوع فى واسع رحابه .

جابرييل هانوتو

المقالة الاولى

« من ردّ الامام »

قال حفظه الله مخاطبا حضرة الاستاذ الفاضل صاحب جريدة المؤيد الغراء

قرأت الساعة مقالة مسيو هانوتو المترجم فى جريدتكم نقلا عن جريدة (الجورنال) الباريسية تتميما لبحثه السابق .

بحثه السابق وشىء من تتمته انما هو دافق من غيرته على شئون دولته يريد أن يدعو قومه إلى التبصر فى وضع قاعدة لمعاملة المسلمين الذين يدخلون تحت ولايتهم أو يحاورونهم فى ممالكهم ، وذلك لايتم على مذهبه إلا بالبحث فى طبيعة الامر الذى صار به المسلمون غير مسيحيين وبه يفضل المسلمون سلطة اسلامية على سلطة فرنساوية . فان أمكن تلقيح ما عليه المسلمون بالولاء الفرنساوى وسهل الجمع بين ما وفر فى نفوسهم وبين الخضوع الاعمى لسلطان فرنسا وطاب الجوار فى قلوب الملة الاسلامية لعقيدة الاسلام والطاعة لكل أمر يصدر عن آخر فرنساوى فى طبقته — صح للدولة الفرنساوية أن تمن على المسلمين بالبقاء فى الارض وإلا وجب عليها أن تحمل عليهم فتبيدهم من البسيطة أو تجليهم الى قارة أخرى

ولهذا جره البحث الى النظر فى أصول دين المسلمين والمضاهاة بينه وبين الدين المسيحى بل بينه وبين أديان كثيرة أشار اليها فى كلامه ، ثم الحكم فى تفصيل أحد الدينين على الآخر باآثار كل منهما فى أنفس معتقديه .

أما غايته فى البحث وتناوله بيده محضاء يحرك به نيران العداوة فى قلوب الفرنساويين لتثير عزائمهم الى حرب المسلمين وليكون مسيو هانوتو

للامة الفرنساوية مثل ذلك الراهب الذى أثار تلك الحروب المعروفة . فذلك أمر نكل فائدته اليه وإلى علمه بمكان دولته من القوة ومنزلة تمدنه من المرحمة والانسانية ونستلفت اليه ذكاء بعض شباننا من المسلمين الذين يعرفون اللغة الفرنساوية ويتجملون بآداب الامة الفرنساوية ويطربون اذا ذكرت المدنية الفرنسوية

ولو لم يتعرض مسيو هانوتو الى الطعن في أصل من أصول الدين ما حركت قلمى لذكر اسمه وكان حظى من النظر في مقاله هو العظة والاعتبار حظ الناظر في أحوال الامم وأعمال رجالها . حظ المؤرخ الذى يقرأ ليفهم ويفهم ليعلم ويحكم ولا يهمه أخطأ القائل أو أصاب

أما ما جاء به من التحكك بأصول الدين فهو الذى أغمزه بما أكتب اليوم .

يرى الناظر في كلام مسيو هانوتو لاول وهلة أنه مقلد فى التاريخ كما هو مقلد في العقائد وأنه جمع خليطا من الصور وحشرها الى ذهنه ثم هو سلط عليه قلمه ينثرها كما يشاء القدر ليدهش بها من لايعرف الاسلام من الفرنساويين وهو جمهورهم :

أكثر من ذكر التمدن الآرى والتمدن السامى والتفريق بينهما وأن أحدهما قهر الآخر وأن التمدن الارى هو الذى ظفر بقرنه التمدن السامى وما يشبه ذلك .

إن مهد التمدن الارى ومنبت غراسه (الهند) لايزال الى اليوم على الوثنية التى يحبها مسيو هانوتو فى أغلب أنحائه . ولكن أهلهم الذين قضوا على الآخذين بعقائدهم أن ينقسموا الى أقسام لايمكن بالخلط بينها بل يدوم تباينها مادامت الارض أرضا ومن طبقاتهم من قضى عليهم دينا بالانحطاط فى العقل والخلق والصناعة ولا يباح له أن يرتقى الى طبقة مافوقه الى انقضاء العالم وهو الجمهور الاغلب منهم . وفيهم من حكم عليه بالنجاسة حتى لا يباح

لاهل طبقة أخرى أن تمسه والاعتقاد بفناء العالم وأنه لا يليق بالانسان أن يهتم بشؤون العيش فيه هو مبنى عقائدهم .

فهل جاء هذا للآخذين بدين البراهمة من التمدن السامى وهو لم يعرفهم الا فى آخر الزمان ، ولم يخالط الا قلوب القليل منهم كما لا يخفى على من له المام بجغرافية البلاد الهندية ؟

ثم هل يظن مسيو هانوتو أن التمدن الذى وصل اليه الاوروبيون حمل الى أوروبا مع المهاجرين الاولين الذين رحلوا من البلاد الشرقية الارية الى الاقطار الغربية ؟

الم يخطر بباله تلك العظائم التى انتفخ بها بطن التاريخ وما كانت عليه أوربا من الآرية الهمجية وأن العلم والمدينة لم ينبعها من معينها وانما جاءاها بمخالطة الامم السامية كما يعلمه المطلع على تاريخ اليونان الاقدمين وهم أساتذة الاوربيين الآخرين كما يزعم مسيو هانوتو .

ما هذا التمدن الآرى الذى كانت عليه أوربا عند ما انتقص أطرافها المسلمون ؟

هل كانت تلك المدنية هي التسافك فى الدماء واشهار الحرب بين الدين والعلم وبين عبادة الله والاعتراف بالعقل ؟ نعم هذا هو الذى كان معروفا عند الغربيين وقت ما ظهر الاسلام .

ماذا حمل الاسلام الى أوربا وما هى المدنية التى زحف عليهم بها فردوها؟ زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس وسكان آسيا من الآريين. زحف عليهم بعلوم أهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين . نظف جميع ذلك ونقاه من الادران والاوساخ التى تراكمت عليه بأيدى الرؤساء فى الامم الغربية لذلك التاريخ وذهبت به أبلج ناصعاً يبهر به أعين أولئك الغافلين المتسكعين الذين كانوا في ظلمات الجهالة لا يدرون أين يذهبون .

انى اكيل لمسيو هانوتو اجمالا باجمال والتفصيل لا يجهله قومه وكثير من منصفيهم لم يستطع الا الاعتراف به .

ان أول شرارة الهبت نفوس الغربيين فطارت بها الى المدنية الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التى كان يسطع ضوءها من بلاد الاندلس على ما جاورها وعمل رجال الدين المسيحى على اطفائها مدة قرون فما استطاعوا الى ذلك سبيلا . واليوم يرعى أهل أوربا ما نبت فى أرضهم بعد ما سقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدى أهل دينهم فى سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدنية الحاضرة .

يحار القارىء لكلام مسيو هانوتو فى معنى المدنية السامية التى جاء بها الاسلام وتصادم بها مع المدنية الآرية .

ولعل عنايته بالالفاظ التاريخية مع قصوره على النفوذ الى حقائق ما أودعته هو الذى قصر به النجاح فى أعماله فى السياسة الخارجية بين أمة مثل الامة الفرنساوية التى تنقاد بذكائها الى الاذكياء . والعارف بطباع الامم لا يعسر عليه أن يقودها الى ما يضمن لها الفوز على جيرانها . وانما العسر كل العسر أن يوجد فيها ذلك العارف اليوم .

ان الناظر فى التاريخ تحمر عيناه من مناظر الدماء المتجسدة على جليد الازمان . ذلك مما سفكه أهل ذلك الدين المتحد بالمدنية الآرية ليقاوموا دعاة تلك المدنية ويخمدوا ناوها .

ان صح الحكم على الاديان بما يشاهد فى أحوال أهلها وقت الحكم جاز لنا أن نحكم بأن لا علاقة بين الدين المسيحي والمدنية الحاضرة . فان الانجيل بين أيدينا نقرأه ونفهمه ولا يغيب عنا شيء من دقائق معناه . فامر الانجيل أهله بالانسلاخ عن الدنيا والزهادة فيها ويوجب اذا عليهم سلبهم السالب قميصا ان يعطوه الرداء أيضا ، واذا ضربهم الضارب على خدهم الايمن أن يديروا له خدهم الايسر ، وأن يفنوا بكليتهم فى الاب . ويقص

عليهم أن دخول الجمل فى سم الخياط أيسر من دخول الغنى ملكوت السموات وما شابه ذلك من الوصايا الملكوتية التى تليق برسول الهى ربانى يدعو الناس الى الانقطاع من هذا العالم الفانى ليليقوا بالانتظام فى أهل ذلك العالم الباقى .

هل خطر ببال مسيو هانوتو ان يجعل ما لله وما لقيصر لقيصر كما أوصى الانجيل وهل رأى مثالا لذلك فى المدنية الآرية التى ناخت مع الدين المسيحى .

العيان يدلنا على أن شيئا من ذلك لم يكن ، فان هذه المدنية إنما هى مدنية الملك والسلطان ، مدنية الذهب والفضة ، مدنية الفخفخة والبهرج مدنية الختل والنفاق ، وحاكمها الاعلى هو الجنيه عند قوم الليرا عند قوم آخرين ، ولا دخل للانجيل فى شىء من ذلك .

أوصى المسيح بأن يترك مالقيصر لقيصر حتى لا يشغب المسيحيون على ملوكهم من غيرهم فانقلبت الحال بهم وأصبحوا لا يحتملون أن يروا لهم رعايا من غير دينهم فضلا عن ملوك .

نعم يوجد قوم الآن يقيمون أوامر الانجيل وهم جماعة من الأمريكان تركوا بلادهم وخرجوا من ديارهم وأموالهم وجاؤا الى القدس الشريف ينتظرون نزول المسيح ليستقبلوه لأول هبوطه على المنارة المشهورة وليكونوا أول من يقبل قدميه ويديه ، وهم من طهارة القلب وسلامة النفس وتزاهتها عن الطمع بحيث انقطعوا عن كل عمل سوى النظر فى الكتب المقدسة : فان كانت هذه هى المدنية الآرية التى صارعها الدين الاسلامى فأنا أول من يسلم لحججه ويقتنع بأدلته .

من الساميين الفينيقيون وهم أساتذة القوم فى الصناعة والتجارة بل والقراءة والكتابة ، ومنهم الآراميون وقد كانت لهم مدنية لا تنكر أيام

الرومانيين وما كان الغربيون لينكروا فضلهم عن ذلك ، ومبادىء الصناعة والعمل عند جميع الأقوام المرتقية فى سلم الانسانية واحدة وانما يختلف قوم عن قوم وما تحدثه فى نفوسهم من ضرورات المعيشة وما تجلبه عليهم عاصفات الحوادث وما تطبعه فيهم طبائع الأقاليم ، وما زالت الأمم يأخذ بعضها عن بعض فى المدنية لافرق عندهم بين آرى وسامى متى مست الحاجة الى تناول عمل أو مادة أو ضرب من ضروب العرفان لدفع ضرورة من ضرورة الحياة أو استكمال شأن من شؤونها .

وقد أخذ الغرب الآرى عن الشرق السامى أكثر مما يأخذه الآن الشرق المضمحل عن الغرب المستقل ، فلم يبق من معنى للمدنية يريده حضرة الكاتب الا الدين وقد ظهر فى كلامه أن الدين السامى يراد منه التوحيد والدين الآرى يعني به ما يقابله .

وانى أقرر لهذا الوزير الشهير حقيقة بديهية يعرفها صبيان المكاتب وهى ان دين التوحيد ليس دينا ساميا بل هو دين عبرانى فقط عرف به ابراهيم عليه السلام وبنوه ومنهم عيسى من جهة أمه وأصحابه وأنصاره الاولون ، أما بقية الساميين من عرب وفينيقيين وآراميين وغيرهم من الأمم المذكورة في الكتاب المقدس وهو يعرفها فقد كانوا وثنيين مشبهين ولم يخالفوا فى ذلك بنى عمهم أو أعداءهم الآريين . وقد خاض الكاتب فى تفضيل التشبيه والتجسيم على التوحيد وذكر لذلك عللا وأسبابا أدته الى سعة اطلاعه فى الفلسفة وأحوال الاجتماع الانسانى وسنأتى على الكلام فيها وهى المقصد من مقالنا ان شاء الله تعالى .

وقبل القاء القلم أذكر الذين يتفانون فى اجلال مثل هذا الوزير كما يتفانى المسلم فى الله على رأيه انى ان صغرت شأن هانوتو في معارفه التاريخية فذلك لانه صغير فيها حقيقة وكثير من قومه يعرف ذلك منه لانه لا أمير فى العلم الا العلم والسلام .

المقالة الثانية

تحرش مسيو هانوتو بمسئلتين من أمهات مسائل الدين. القدر. والتوحيد أو التنزيه . وبعد أن خلط فى بيان وجه الاشكال فى المسئلة الاولى واختلاف الناس فيها قديما وأنهم انقسموا الى فريقين قائل بأن العبد مسير بقدرة الله لاعمل لارادته في فعله وذاهب الى أن خالقه وهبه اختيارا يتصرف به فله ما كسب وعليه ما اكتسب . قال ان الرأى الاول يحط الانسان الى حضيض الضعف والثانى يرفعه الى ذروة القوة . ثم وصل الاول بمذهب البوذيين القائلين بفناء الموجودات فى الوجود الازلى . والثانى بمذاهب اليونانيين القدماء الذين يدينون بتشبيه الاله بالانسان فى أوصافه المادية . وان الأول قعد باهله والثانى ارتفع بمعتقديه الى مراتب الكمالات الانسانية . وهو خلط وجبط لم يعهد لها مثيل

ثم انصب على الديانتين المسيحية والاسلامية وقال انهما تمثلان ذينك المذهبين أى مذهبى الناس فى القدر وان الاولى ربانية تورثت ماترك الآربون والثانية بشرية أخذت ماترك الساميون. وان الاولى ترقى بالانسان الى المقام الالهى والأخرى تنزل به الى أسفل درك حيوانى . ويظهر ميل كل من الديانتين ظهوراً بينا في الاصل الذى بنى عليه كل منهما فأصل الاولى هو ايجاد الاله الاب للاله الابن حتى كان الها بشراً واتصال الالهين بروح القدس . وأصل الثانية تنزيه الاله عن البشرية وتقديسه الى حد تنقطع فيه النسبة بينه وبين الانسان . ثم رجع بعد هذا الى الخلط بين الدينين وردهما الى أصول واحدة وعقد التشابه بينهما الى آخر ما أطال به على غير جدوى

هل عهد بين الكتاب وأهل النظر تشويش فى الفكر وخلل فى المقال يشبه ماجاء به هذا الكاتب ؟ أدع الحكم ذلك لمن له أدنى إلمام بمذاهب الأمم وآرائهم .

لم يختص الكلام فى القدر بملة من الملل مشبهين أومنزهين . ولادخل للتشبيه والتنزيه فى شيء من ذلك . بل كان منشأ الكلام فى ذلك الاعتقاد باحاطة علم الله بكل شيء وشمول قدرته لكل ممكن .

وقد عظم الخلاف فى المسئلة بين المسيحيين أنفسهم وهم مشبهة فى رأى مسيو هانوتو وبدأ النزاع بينهم قبل الاسلام واستمر الى هذه الايام ولعل هانوتو اطلع على مذهب التوميين — أتباع القديس توما — أوالدومينيكين وهم جبرية واشياع (لوايولا) وهم قدرية اختيارية . ولكل من المذهبين شيعة بين أهل الملة المسيحية . وليس هذا بمذهب سامى كما يزعم بل لم تنبت أصوله ولم تتشعب فروعه الا بين الآريين ثم انتقلت عدواه الى غيرهم.

هل سمعت بيهودى استلقى على قفاه وترك العمل اتكالا على القدر ؟ هل سمعت بأحد من الفينيقيين — وقد وصلوا بزوارقهم ذات المجاذيف الى جزائر بريطانيا — انه كان ينام ويتلذذ بالأحلام اعتماداً على مايسوقه اليه الغيب ؟ لكن سمعنا بذلك فى الأديرة وبين الرهبان وعرفنا أخبار ذلك الجيش العرمرم من المتكدين الذين كانوا يعيشون عالة على الناس حتى ضجت منهم أوربا فى زمن من الازمان وطلبت الخلاص منهم بالصارم البتار .

وقد اشتهر مذهب أهل البحث والاتفاق بين اليونانيين ولم يخف أمره على صغار المتعلمين لمبادئ الفلسفة . ذلك المذهب الذى يبتدئون كتب الفلاسفة بابطاله وهو مذهب القائلين ان الاشياء توجد بالاتفاق أوبالصدفة ولا يحتاج الممكن فى وجوده الى سبب . اليس هذا أدخل فى باب الجبرية من اسناد كل أمر الى خالق الكون ؟ وهل يرتفع هذا المذهب بمعتقده الآرى الى منازل الرفعة ومكانات الشرف ؟

جاء القرآن الشريف ـ وهو الكتاب المنزل بالاسلام ـ يعيب على أهل الجبر رأيهم وينكر عليهم قولهم « لوشاء الله ماأشركنا ولا آباؤنا ولاحرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم » الخ الآية وأثبت الكسب والاختيار

فى نحو اربع وستين آية . وما جاء به مما يتوهم الناظر فيه مايخالف ذلك فانما جاء فى تقرير السنن الالهية العامة المعروفة بنواميس الكون كما في آية « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » الخ ونحوها .

والعاقل يرى الفرق الجلى بين مسئلة اختيار العبد في افعاله وبين أثر القدرة الالهية فى أخلاق الأمم أو فى تغريز الغرائز مثلا . فاختيار العبد فى أفعاله مما يقربه الوجدان ولا ينكره الا من جهل نفسه . لكن ماعليه الأمم من الاختلاف فى الطبائع والغرائز والسجايا ليس لاحد من خلق الله فيه اختيار بل خلقه كخلق السموات والارض وما بينهما .

وجاء النبي صلى الله عليه وسلم فى عمله وقوله بما يؤيد ذلك فكان العامل الذى لايكل والدائب الذى لايمل والساهر الذى لاينام والجاد الذى لم يبلغ شاوه أحد من الانام . هل نقول عنه انه اتكأ يوماً على وسادته واكتفى بالتسليم للقدر فى اتمام دعوته قائلا الذى كفل لى النصر يكفينى التعب وضمانة الله لاعلاء كلمة دينه تغنينى عن النصب ؟ كلا بل لم تكن تزيده الوعود الصادقة الا نشاطا ولا تجد العصمة الالهية من نفسه الا حزماً واحتياطا .

جاء أصحابه على أثره وتبعهم من جاء بعدهم من السلف الاولين وكانوا أكمل الناس ايمانا باحاطة علم الله وشمول قدرته وأعرف الناس بقدر ما آتاهم الله من قوتى العقل والاختيار . وكانوا أسوة فى السعى ومثلا فى الدأب والكسب حتى كان من آثارهم فى نشر الاسلام مايتألم منه اليوم هانوتو وأمثاله

هذه هى العقيدة السامية أو الدعوة المحمدية أو المدنية الاسلامية ارتقت باربابها وهم من أهل البداوة فى قاصية من الارض . لم يتلمظوا بشىء من نعيم الحضر ولم يتذوقوا طعم العلم والصنعة حتى بلغت بهم مابلغت واستوت بهم على عروش العزة والسلطان ثم بلغوا بها من رقة الوجدان وصفاء العقل مبلغا مكنهم من التلطف بالأمم حتى وقفوا على ما كان خفيا لديها وكشفوا

ما كان مستورا عندها واستخرجوا من كنوز معارفها ماظهر فضله على الاوربيين بعد عدة قرون من البعثة النبوية

ولكن واأسفاه ، نتأت رءوس بين المسلمين كأنها رءوس الشياطين واحتملت غثاء من قمش الآريين وقذفت به فى الارض الطاهرة فتدنس به أديمها وانتشر قذره وعظم ضرره

جاء الموالى من عجم الفرس والرومان ولبسوا لباس الاسلام وحملوا اليه ما كان عندهم من شقاق ونفاق وأحدثوا فى الدين بدعة الجدل في العقائد وخالفوا الله ورسوله فى النهى عن الخوض فى القدر وخدعوا المسلمين ببهرج القول وزور الكلام حتى كان ما كان من تفرقهم شيعاً والله يقول لنبيه « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء »

وجد بين المسلمين طائفة تعرف بالجبرية ولكنها كانت ضعيفة ضئيلة يقذفها الحق ويطردها العقل وينبذها الدين حتى انقرضت بعد ظهورها بقليل ولم تبق بينهم بقاء التوميين بين النصارى . وغلب على المسلمين مذهب التوسط بين الجبر والاختيار وهو مذهب الجد والعمل وصدق الايمان وأخذه عن المسلمين فى أخريات الأيام أهل النظر من النصرانية مثل « بوسويه » ومن مال ميله وتبعهم الجمهور الأعظم منهم .

ولكن لاأنكر ان الزمان تجهم للمسلمين كما كان قد تنكر لغيرهم وابتلاهم بمن فسد من المتصوفة من عدة قرون فبثوا فيهم أوهاما لانسبة بينها وبين أصول دينهم فلصقت بأذهانهم لاعلى انها عقائد ولكنها وساوس قد تملك الجاهل وتربك العاقل اذ لم يغلبها بعوامل الدين الصحيح فنشأ الكسل بين المسلمين بفشو الجيل بأصول دينهم وعاون على ذلك ميل الاعلياء منهم الى توريطهم فيما هم فيه كما هو شأنهم فى كل أمة .

وهذا الضرب من المتصوفة أيضا من حسنات الآريين فانه جاءنا من الفرس والهنود بما بقى فيهم من عقائدهم الاولى :

ما أضل هانوتو وأمثاله من قصار النظر الا أولئك الدراويش الخبثاء أو البله الذين يغشون أطراف الجزائر وتونس ولا يخلو منهم اليوم قطر من أقطار الاسلام ممن اتخذ دينه متجراً يكسب به الحطام وجعل من ذكر الله اله لسلب الاموال من الطغام .

أما لو رجع المسلمون الى الحقيقة من دينهم لأدوا فرضهم واستنبتوا ارضهم واستغزروا من الثروة وأعدوا لفرنسا ما استطاعوا من قوة واعتمدوا في نجاح أعمالهم على معونة القدر وأيقنوا فى صولتهم علما أن ليس من الموت مفر ، ثم صال صائلهم على مكان العزة منها ونال ما ينال القوى من الضعيف والعزيز من الذليل ، ولا نقلب جنوبهم لدى هانوتو عقلا وتحول هذيانهم حكمة وعلما .

هذا ما يتعلق برأيه الضئيل فى مسئلة القدر عند المسلمين ، أما التنزيه والتشبيه فانا نوفيه حقه فى تتمة لهذا المقال ونشفق على القارىء من الاملال ، والاسلام

المقالة الثالثة

اليوم آتى على آخر القول لكسر شرة هانوتو فى توثبه على الاسلام وما نعني بالكلام فيه اليوم هو التوحيد والتنزيه وخصمه التشبيه والتجسيد (الاعتقاد بتجسد الالوهية) ونبدأ فى الكلام فى الثانى ونختم بالحديث عن الاول .

ان كان مسيو هانوتو قرأ شيئا فى أحوال الامم ونشاة العقائد وعقله يعلم أن الوثنية وتوهم السلطان الالهى ظاهراً فى بعض الموجودات المادية كانت عقيدة الواقفين على ابواب الانسانية لم يدخلوها ولم يتوسطوا منازلها وكانت ولا تزال دليلا على انحطاط عقول أهلها مع تفاوت في درجات ذلك الانحطاط تبتدأمن وثنى أفريقيا وتنتهى الى بوذى الصين وبرهمن الهند .

كذا ارتقى الانسان في العلم ولطف وجدانه بالفهم ونفذ عقله بالاسرار الكون تمزقت دون روحه حجب المادة وانجلى له الوجود الاعلى على تفاوت كذلك فى درجات الظهور والانجلاء حتى ينتهى الى الاعتقاد بوجود واحد واجب يستحيل عليه أن يلبس لباس المادة على النحو الذى يظنه مسيو هانوتو وأمثاله لان ما لاحد له محال أن تحيط وجوده الحدود .

وقد كان هذا شان اليونانيين الذين يفتخر هانوتو بمدنيتهم ، نشأوا وثنيين ولا زالت الوثنية ترق وتدق وترث بارتقائهم فى العلوم ، وبحث فلاسفتهم فى طبائع الكائنات حتى انتهوا وهم فى ذرى مدنيتهم الى التوحيد وتنزيه واجب الوجود عن مخالطة المادة .

وقف فيثاغورس على عتبة التقديس وجاء بعده سقراط وأفلاطون وارسطوا مجاهدين فى كشف الغمة عن عيون شعوبهم باذلين الوسع فى محو ماغشى نفوسهم من ظلمات الوثنية الاولى ، ومن قرأ جمهورية أفلاطون

التى نقلت الى العربية أيام المأمون تحت اسم المدنية الفاضلة علم كيف يقارع أفلاطون ما بقى من آثار الوثنية من الآراء السخية والعادات الرديئة التى كانت تحول بين الامة اليونانية وما يبتغى لها من الفضائل التى كان يطمع الفيلسوف أن تكون عليها .

وبعد أن أوصلهم العلم الى التوحيد يرتد بهم التنزيه الى الجهل بل بقيت شمس مدنيتهم تشرق فى العالم قرونا متعددة وكانت أشد صفاء وأبهر سطوعا .

كذلك قدماء المصريين لم يقف بهم العلم دون التوحيد غير أن رؤساء دينهم لم ينشروا تلك العقيدة بين عامتهم واستبقوا صور العبادات الاولى وألبسوا التنزيه ثوب التشبيه استئثاراً منهم بشرف العقيدة على من دونهم .

فترى ضعف العقل وقلة العلم ونقص الادراك تقف بصاحبها عند الوسائط وقوة العقل ونفوذ البصيرة وسعة العلم تصعد بأهلها الى مشهد الوجود الاعلى وتشرق بهم من هناك على العالم بأسره فيرونه عظيمة وحقيرة سواء فى النسبة الى تلك القدرة الشاملة والعظمة الغالبة ، الفاضل والمفضول والفروع والاصول وما ظهر للابصار وما نفذت اليه العقول كل ذلك يستمد وجوده من مشرق الوجود الى مراتب قدرتها الحكمة وتمت بها النعمة .

فأى مقام أعلى من مقام صاحب هذه العقيدة حيث قام شاهداً على الكون بجملته ما فصل منه فى فهمه وما أجمل فى كليات علمه ، يحكم عليه بانه مربوب لرب واحد وهو رب العالمين ، وان لاسلطان لشىء من هذا جميعه على نفسه لافي الايجاد ولا فى الامداد ، بل هو وحده يمكنه بما سن له الشرع الالهي أن يصل بنفسه الى تلك الحضرة وأن يستمد منها المعونة فى كل شؤونه

ينقسم أهل التشبيه الى قسمين : أحدهما من يعتقد الالوهية في بعض الموجودات المشهودة ويقف عند ما يعتقد منها ، والآخر يعتقد بان بارىء الكون يظهر فى بعضها .

أما الاولون فهم الذين ضعف الادراك فيهم عن الاحاطة بحقائق

الاكوان فاذا ظهرت عليهم آثار قوة من القوى أو سلطة حيوان من الحيوانات ظنوه المنفرد بالقدرة عليهم وانهم اليه يرجعون فى جميع أمورهم . فهؤلاء يسلطون على أنفسهم ما شاؤا وشاء لهم الجهل من جماد وحيوان وانسان ولا يزالون حيارى فى شؤن حياتهم حيرتهم بين معبوداتهم ، ثم هم يقيسون معبوداتهم بانفسهم لانها ليست بأبعد منهم في النوع أو الجنس ويقدرون لها رغائب وشهوات تفوق رغائبهم وشهواتهم ، يسارعون فى إرضائها بما يعن لهم وكما تشرعه لهم أهواؤهم .

ومن ذلك كانت ترتكب القبائح فى هياكل الآلهة وتنتهك حرمات الفضائل في محاريبها وتتقدم الذبائح الانسانية بين يدى التماثيل بالحجرية . وأى درك ينحط اليه الانسان انزل من هذا وأمر معروف فى التاريخ ولا تزال مشاهده الى اليوم معروفة .

أما الآخرون فهم أرقى درجة من أولئك فى الادراك ، ولكن ماذا أصابهم ويصيبهم من ذلك الاعتقاد ؟ كانوا اذا فاقهم انسان فى عقل او شجاعة أو صدر منه ما لا يألفون من الاعمال أو ظهر بما لا يعرفون من الاحوال ظنوه مظهراً للوجود الالهى فدانوا لسلطانه واستكانوا لقهره وأخذوا أنفسهم بالخضوع لارادته فسلبهم كل ما كانوا يملكون من عقل وإرادة وعزم وحق عليهم الصغار ماداموا على تلك العقيدة .

وقد سهل هذا الوهم على كثير من أهل الدهاء أن ينزلوا من الناس منازل الالهة طمعا فى استعبادهم ، وكم قاست الامم من الرزايا التى جلبتها عليهم هذه العقائد الضالة .

ويقرب من هؤلاء قسم ثالث ليس بخير من القسمين الآخرين وهم المعتقدون بالوسائط ما قدروا الله حق قدره فقاسوه على الكبراء وأهل السمو منهم فظنوا انه فى ملكوته كملك فى جبروته يصطفى لنفسه مدبرين من خلقه ويستصنع عمالا للتصرف فى شئون عباده فاذا امتاز أحدهم بما

يعتقدونه زلفى إلى الله أو صدر منه ما يظنونه دليلا على أنه من المقربين اليه رفعوه الى تلك المنزلة منزلة الاصطفاء للتصرف فى الكون فاتخذوه شفيعاً لديه يلجأون اليه فى مهمات أعمالهم ويستمدون منه المعونة بماله من الدالة على ربه . واذا سئلوا عما يفعلون وما به يدينون قالوا « ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى »

ما ذا أصاب هؤلاء من سر ما اعتقدوا ؟ استعبدوا للسادن والكاهن والزعماء ووارثيهم واستسلموا لهم فى جميع شئونهم فكانت علومهم من أوهامهم وأفهامهم واقفة عند خيالاتهم ينكرون الاوليات من المعلومات اذا توهموا أنها تخالف تلك الموهومات التى تلقوها عن زعمائهم ثم كانوا يتركون وسائل العلى اتكالا على ما يستمدونه منهم ولا يزال التاريخ يشهد على ما قاسته الانسانية من بلايا هذه العقائد والعيان يؤيده فى كثير من الامم فى الشرق والغرب الى اليوم

هذه مفاسد الوثنية وما جاورها لاينكرها مطلع على مبادئ العلوم الصحيحه — بل يعرفها كثيرون من العامة الذين لم ينشأوا فى جوها الفاسد

أما زعم هانوتو ان وثنية اليونانيين كانت ترتقى بالافراد في سلم الفضائل طمعا فى نيل مرتبة الالوهية فهو زعم لم يقل به من المسيحيين سواه فيما أعلم . ولم يقل أحد من اليونانيين أنفسهم انهم كانوا يسعون في كسب الفضائل من طريق التوصل الى مقام الالوهية ولا ان الالوهية البشرية تركت فيهم أثراً صالحا ، بل لم تورثهم الا تلك الرذائل التى قام سقراط وأفلاطون لمحاربتها . أما السعى الى الفضائل فكان للتقرب لاربابها كما هو معلوم.

أما حكمه على المسيحية بأنها من ناحية الديانة اليونانية فذلك أدع الكلام فيه الى المسيحيين أنفسهم ولكني أقول ان المسيحية بذلت وسعها فى بداية أمرها لتطهير الارض من الوثنية التى كان الناس عليها فى عهدها وجاهدت من تلوث من عقائدها من اليهودى والرومانيين وانبث رجالها

الوثنيين يدعونهم الى الاله الواحد وكان التنزيه قوام دعوتهم كما يعلمه المدقق في فهم كلامهم ولم تظهر آثار التشبيه فيها الا بعد قرون من نشأتها وتاريخ الامبراطور قسطنطين معروف عند أهل العلم وغيرهم لاحاجة الى تفصيل ما كان منه .

ثم لما امتد الغلو في التشبيه ظهرت المظالم وعظمت المغارم واختفى العلم وخسئ العقل وتهدمت أركان النظام واستشرى الفساد في الأمم النصرانية حتى ظهر الاصلاح وقضى على ماسبقه واستقامت أوروبا في طريقتها المعروفة وقد أشرنا الى شيء من أسباب ذلك

لم نسمع أن أحدا من المسيحيين يعبد الله لينال رتبة المسيح فيكون الها بشرا كما يؤخذ من عبارته . ولم نر أثرا لاحدهم يدل على أنه عقل عقيدة التثليث على هذا النحو الذى ذكره ولكنهم لم يصرحون بأنها عقيدة لامجال للعقل فيها فلا مكنة له فى أن يحتذيها . وقد قامت طوائف منهم في أزمان مختلفة تصرح بأن فرقا بين مالا يصل اليه العقل وما يناقض حكم العقل وذهبت الى أن المسيح لم يكن الانبيا مختاراً بعثه الله لخلاص البشر من سلطان الشيطان وحملوا الابن على المصطفى (المختار) والاب على الرب الرحيم . وأعرف بعض طوائف البروتستانت اليوم وان كانت قليلة العدد يذهب الى تأويل الكلمة بالعلم وروح القدس بالحياة وقد لاقيت بعضهم فى بعض أسفارى وأكد لى أن لهم شيعة تدين بذلك

وهل كانت المسيحية فى سالف الازمان تجاهد من حولها من الوثنيين لتخرجهم من وثنية ؟ نعوذ بالله من هذا الخبط الصادر من محب غير عالم . اذ ، ارفع أدبا من أن أطعن فى عقائد المسيحيين فى جريدة وقد امرت ان أجادل بالتى هى أحسن . ولكنى أرجع الى الكلام في الآثار التى عنى هانوتو باتخاذها دليلا .

جاء الاسلام يدعوا العالم باسره الى التوحيد وصرح بأن دين التنزيه

هو دين الله من لدن آدم ونوح وابراهيم الى موسى . ثم هو دين الانبياء بعد موسى ودين خاتم رسل اسرائيل عيسى عليه السلام . ولم ينكر ان فى اليهود وفى المسيحيين خصوصا أهل تنزيه وذكر أن منهم من مال الى التشبيه ودعاه الى الرجعة الى أصل دينه حتى يقوم بالعبادة لله وحده ويعتق من سلطة الرؤساء والزعماء الذين اغتصبوا عقله وملكوا هواه وهمه

هبت الوثنية واليهودية والنصرانية لمناواة الاسلام أكثر عدداً وأوفر عدداً وأعظم قوة وأشد باسا فلم يكن الا قليل من الزمن ثم ظهر الحق ونفذ شعاعه الى القلوب فدخل الناس فيه أفواجا من كل ملة من الملل فاعتقت الهمم وافتكت العزائم من أسرها وأخذ كل يطلب من الكمال مايعده له استعداده الممنوح له من واجب الوجود وأخذ المعتقدون بالتوحيد والتنزيه يشرفون من شرفات الايمان على أسرار الوجود ومزقوا تلك الحجب والاوهام واتصلوا بمنابع العلم من الفكر والنظر والدين ، ولم يكد أهل الملة يستريحون من الشغب الذى هبت ريحه بينهم حتى سطعت أنوار العلم فيهم ولم يبق باب من أبوابه إلا دخلوه ولا مرتقى من مراقيه إلا علوه ولم يبق متروك من مخلفات اليونان والفرس والرومان إلا استخرجوه من زوايا النسيان وجلوا صداه وأبرزوه للانظار

هذا أثر الاسلام وهو دين التنزيه ولم يكد ينتهى القرن الثانى من ظهوره حتى جال المسلمون في علوم السموات والارض وصححوا الاغاليط ونقحوا القواعد وحرروا الاصول ، وفى مفتتح القرن الثالث أقاموا المراصد ومسحوا الارض وأتوا فى ذلك بما هو معهود لاهل العلم فى ديارنا وديار مسيو هانوتو .

انى أكتفى فيما يقابل هذا بقول جماعة من أهل النظر فى الامم الغربية اليوم : « أقامت النصرانية فى الارض ستة عشر قرنا ولم تأت بفلك واحد وأخذ المسلمون يبحثون فى هذه العلوم بعد وفاة نبيهم ببضع سنين ومع هذا

لايعد ذلك طعنا فى أصول الديانة المسيحية وانما هو طعن فى تصرف القائمين عليها والمحرفين لها عما جاءت له .

يظن هانوتو أن الاسلام قطع الصلة بين العبد وربه ، ولكنه وهم فى ذلك فان الاسلام أفضى بالعبد الى ربه وجعل له الحق أن يقوم بين يديه وحده بلا واسطة تبيعه رضاءه ، قضى الاسلام بان لايكون للكون إلا قاهر واحد يدين له بالعبودية كل مخلوق وحظر على الناس مقامين لا يمكن الرقى اليهما مقام الالوهية التى تفرد بها ، ومقام النبوة التى اختص بمنحها من شاء ثم أغلق بابها ، وما عدا ذلك من مراتب الكمال فهى بين يدى الانسان وينالها باستعداده لا يحول دونها حجاب الا ما كان من تقصيره فى عمله أو قصوره فى نظره .

اذا اعتقدت بقصور فضل الله عنك وقفت نفسك حيث وضعتها ولن تستطيع إلى التقدم سبيلا ، هكذا يرفع الاسلام الصحيح نفسى صاحبه وهذا هو معنى الاسلام والاستسلام الذى أخطأ فى فهمه مسيو هانوتو فهل بقى الانسان مع هذا المعنى من الاسلام فى درك من الحيوانية وفى هجرة عن التوسل بالاسباب الى مسبباتها فى كسب الفضائل والكمالات ؟

يجب على الباحث فى الاسلام أن يطلبه فى كتابه كما يجب عليه أن يطلب آثاره والاسلام اسلام والمسلمون مسلمون ، ولو استشهم مسيو (كيمون) الذى استشهد هانوتو بكلامه ريح العلم لما استفرغ ذلك القذر من فيه ولا حاجة الى الكلام فيه فسخافة رأيه وقلة أدبه تكتفيه .

من أين أتى المسلمون وكيف دخل عليهم فى عقائدهم بالتشبيه وفى عوائدهم بالتمويه ، وممن تعلموا الافتراس وعمن أخذوا الضراء بالشهوات ؟ أنا أعلم ذلك وأهل العلم يعلمون والله من ورائهم محيط .

اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعا بذراع حتى سقطوا فى مساقطهم وطارحوا الاوهام حتي انجروا الى مطارحهم وباؤا بما كان لهم وما عليهم .

حدثت فى الدين بدع أكلت الفضائل وحصدت العقائل وترامت بالناس الى حيث يصب عليهم ما استفرغه « كيمون » .

أما لورجع المسلمون الى كتابهم واسترجعوا باتباعهما فقدوه من آدابهم لسلمت نفوسهم من العيب وطلبوا من أسباب السعادة ماهداهم الله اليه فى تنزيله وعلى لسان نبيه ومهده لهم سلفهم وخطه لهم أهل الصلاح منهم واستجمعت لهم القوة ودبت فيهم روح الفتوة وكان مايلقاه هانوتو وكيمون من دين صحيح شرا عليهما مما يخشونه من دين شوهته البدع .

يرى كيمون أن يخلى وجه الارض من الاسلام والمسلمين ويستحسن رأيه هانوتو لولا مايقف فى طريق ذلك كثرة عدد المسلمين : وبئسما اختارا لسياسة بلدهما ان يظهرا ضغنهما ويعلنا خطل رأيهما وضعف حلمهما .

أما فليعلما كل من يخدع نفسه بمثل حلمهما ان الاسلام ان طالت به غيبة فله أوبة ، وان صدعته النوائب فله نوبة : وقد يقول فيه المصنفون من الانكليز مثل (اسحق طيلر) وهو قس شهير ورئيس في كنيسة

«انه يمتد فى افريقيا ومعه تسير الفضائل حيث سار . فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره والشجاعة والاقدام من أنصاره . »

ويا سف أشد الاسف من ان السكر والفحش والقمار تنشر بين السكان بانتشار دعوة المبشرين بينهم وقال انه « يختار اسلاما لاسكر فيه على مسيحية فيها سكر » .

ثم هو لايزال ينتشر فى الصين وغيره من أطراف آسيا وسترشده الحوادث الى طريق الرجوع الى طهارته وتنثنى به الملمات الى ما كان عليه لأول نشأته وتدرك عند ذلك الأمم منه خير ماترجو ان شاء الله .

لو أسلمت الأمة الفرنساوية باسرها وفى مقدمتها مسيو هانوتو وكانت معاملتها لغير الفرنساويين على مانعهده فى الجزائر ومداغسكر — هل ترجو

من سكان مستعمراتها ان يميلوا اليها وان لايتهزوا الفرص للثورة عليها ؟ كلا. فما ظنك بالمسلمين وهم يسمعون قصف هذا الرعد ولا يرون من المتغلبين عليهم الا الجد فى اهلاكهم والدأب في افنائهم ؟

ان العدل ورعاية الحقوق واحترام المعتقدات بعد معرفة أصولها هي التى تخفف على المغلوب سلطة الغالب وتدنو به منه وتهون عليه الرضاء عنه. ولكن هانوتو واضرابه من ساسة الفرنساويين لايعرفون شيئاً من هـذه الاركان الثلاثة ولا يزالون يهرقون بما لايعرفون حتى يصلوا الى ما كانوا يحسبون : فليتنظروا انا معهم من المنتظرين .

حديث

لسعادة صاحب الاهرام مع جناب المسيو هانوتو

١

رأيت وأنا فى باريس أن أقابل المسيو هانوتو وأقف منه على حقيقة الاحوال بوجه عام وعلى الغاية التى قصدها ويقصدها من كتاباته الاخيرة عن الشرقيين والمسلمين بوجه خاص ، ولما كان هذا الموضوع من أهم المباحث لدينا مع رجل مثل هانوتو الكاتب البعيد الصيت والسياسى الواقف على أحوال أوربا والشرق وكنا نعتقد كما قالت الاهرام مراراً وتكراراً أن تقدم الشرق يكون بتقدم الامة الاسلامية ، توخيت أن أنشر أقواله وآراؤه فاستأذنته بذلك فأذن لى ، ومن هذه الاقوال يعرف القراء الكرام أن الرجل اذا كان قد صدق فى ما قاله خدمة أمته فهو قد أنذر الشرق واستلفت رجاله الى إصلاح شئونه لأن البقاء فى حالة واحدة مع تقدم أوربا المستمر هو عين التأخر ، على أن ذلك لايدوم اليوم وأوربا على ماهى عليه من الاتفاق السياسى والاندفاع الاقتصادى ، فعلى الشرق أن يتعلم من كل كلمة وأن يدرك خبره من مغزى كل لفظة ونحن قد نقلنا اليه الآراء والمقاصد الاوربية لنفى فرضا نقضى به الخدمة والذمة . قال :

أنتم تعرفون من تاريخ أوربا أن أمها ما تقدمت علما ومدنية واختراعا الى يوم تقيدت السلطة المدنية وعرف الشعب والحكام فروضهم المتبادلة وأنا لم أكتب إلا إلى أبناء وطنى الفرنسويين ولم أستشهد (نكيمون) وهو يونانى الجنس إلا لأفند أقواله التى لم ينفرد بها . فان كثيرين من الكتاب

الالمانيين والفرنسويين والانكليز وغيرهم حذوا حذوه وقالوا قوله . وخلاصة كتاباتهم أن تقدم المسلمين مستحيل ونجاحهم بعيد لأن الاسلام معتقدهم يحول دون ذلك وحجة هؤلاء واحدة وهي انه كلما تقدمت أوربا تأخر الشرق لأن الواقف يتأخر بقدر مايسير الماشي وأن كل حكومة انفصلت عن الشرق سارت على منهاج أوربا علما ومدنية فنجحت : مع أن العثمانيين وأفغانستان ومراكش والعجم لاتزال على ما كانت عليه فى السنين الغابرة ، وأنا ذكرت من هؤلاء الكتاب كيمون وحده ليعرف المسلمون ما يقال عنهم ولأفند مزاعم هذا الرجل وغيره من الكتاب الذين على رأيه لاعتقاد أن الاسلام لا يحول دون الاصلاح والمدنية واستشهد على صحة معتقدى هذا بتونس فذكرتها مثالا أؤيد به أقوالى وسياستى ، هذه روح كتابتى السابقة وانها ستكون روح اللاحقة .

والذى دعانى الى ذلك ما كان من هؤلاء الكتاب الذين لايخرج مغزى كتاباتهم عن اعادات السكرات الصليبية كما كان فى الاعصر الخالية ، وما دفعهم فى الايام الاخيرة الى ذلك إلا الحوادث الارمنية وغيرها ، ولما كنت قد وقفت نفسى لدرس حياة « ريشليه » السياسى الشهير وسرت فى اكثر اعمالى وكتاباتى على منهاجه وعرفت ان هذا الرجل مع انه كاثوليكى كردينال من أعمدة الكنيسة الرومانية رفض على عهد وزاراته تلك السياسة العوجاء سياسة الصليبيين وحال دونها بدهائه المعروف مع انه كان القابض على سياسة فرنسا وأوربا معا ، فاذا كان هذا السياسى الكاثوليكى قد امتنع عن تأييد سياسة أقرب المقربين اليه فى تلك الاعصر أى السياسة الصليبية ، فهل مثل هذه السياسة يجوز اليوم انفاذها ، لالعمرى ، فلهذا عرضت بالامس ولهذا أعارض اليوم ، ولحسن الحظ أن الرأى العام اذا قال بوجوب مساعدة الضعيف ضد الظالم فهو لا يريد حربا تشب نارها اعتداء ولاسيما الحرب الدينية فهى عدوة المدنية بل أفظع الاعمال .

على أن معارضتى لامثال هؤلاء الكتاب أى نقضى لاقوالهم لا يمنعنى عن أن أقول لكم الحقيقة لانه يستحيل على أن أقول أن شرقكم سائر على منهاج حكومات أوربا فى العدل والحرية والمدنية ، كما أنه يستحيل على أن أقول أن فى حالتكم الحاضرة ضمانا لمستقبلكم السياسى ، فاعلم أن أوربا حاربت السلطة الدينية مدة ثلاثة قرون ، لاعن عدم اعتقاد بل لتفضلها عن السلطة المدنية ، فان المتحاربين كانوا من معتقدوا حد ولكن أفراد أممها أولا ولفيف شعوبها ثانيا أن تكون الكلمة الاولى للسلطة المدنية في أحوال الحكومات وشؤون الشعب وأن يكون لمعتقد حق الادبيات الدينية بان يعطي مالقيصر لقيصر وما لله لله .

واعلم أن الذى أيد هذه السياسة أيضا فى بلادنا فرنسا هو أعظم تلامذة رومه وأحد أقطاب الكنيسة الكاثوليكية أى الكردينال (ريشليه) فهو الذى قال بفصل السلطتين ولم تنسه واجباته الكنيسية الدينية معرفة الحقيقة وهو بهذه السياسة خدم السلطتين أشرف خدمة اذ أيد السلام بينهما فتأيدت سطوة الحكومات المدنية ، وتقدمت شعوب أوربا تقدما عجيبا ، واعتزت السلطة الدينية أيضا ، وعاشت السلطتان بوفاق وسلام .

وهذا مانريد تأييده نحن الفرنسويين فى مستعمراتنا بان يكون الامر المطلق للسلطة الحاكمة على احترام عقائد الشعوب الذين تحت حكمنا وسلطتنا وهو ما سرنا عليه فى الجزائر وتونس وغيرهما من المستعمرات الفرنسوية .

وإنى لا أكلمك كمسيحى بل كمؤرخ أو ككاتب حر الضمير لا شأن لغيره فى معتقده الخاص ، ولكنني أحترم أدبيات كل دين ومعتقد وأقدر تلك الادبيات قدرها ، ولكن الماديات غير الادبيات والاولى (الماديات) من شئون عالمنا هذا الذى نعيش فيه ونحى به . وكل أمة لم تتقدم فى ماديا تهما لابد أن تموت اذ لا حياة بلا مادة ، وإلهكم انتم الشرقيين إله أوربا و إله أمريكا ، اذن اله الجميع واحد ولا يمكن أن يكون أكثر انعطافا على الأوربى

منه على الامريكى فالشرقى ، بل أن الشرقيين عموماً أكثر تمسكا بعقائدهم من الغربيين ، وقد علمنا أن أوربا فاقت شرقكم بمراحل ونرى اليوم أمريكا تزاحم أوربا وكثيراً ما فاقتها فى اختراعاتها وفنونها ، ولم يكن ذلك لان الله سبحانه وتعالى أميل الى الامريكى منه الى الاوربى او مشرقى ، ولكن لان الاخير مستميت والاول حى : هذا يشغل مجتهداً وكلما زادت أرباحه زاد نشاطاً واقداما ، وذاك يقضى حياته بين القنوط واليأس مستسلما ، ولهذا تقدم الاوربى وتأخر الشرقى ، وضيق أوربا بأهلها دفعها الى الاستعمار فى كل صوب فصادف أبناؤها أرضا واسعة وشعوبا لاحراك بها فقبضوا على الاعمال السياسية والاقتصادية فيها .

وهنا استمحت حضرة المسيو هانوتو وقلت له اذا كنت تحب مصلحة المسلمين ومعتقد انهم راضون فى تونس ، فهل تعتقد ذلك فى أهل الجزائر ؟

ولهذا لاتسأل الحكومة الفرنسوية أن ترى فى أحوال هؤلاء ؟ قال : أما التونسيون فلا خلاف فى انهم مسرورون بحالتهم ونحن دخلنا بلادهم وهى قاع صفصف مزق شملها أفراد حكموها ، واما نحن فقد تركنا للسكان حقوقهم المذهبية فاحترمنا جوامعهم وعقائدهم وأحوالهم الشخصية ولم نسالهم إلا امراً واحداً ، اى احترام سلطتنا السياسية ، فادركوا هذه الحقيقة وعملوا بها ولهذا كان النجاح عظيما فى مدة قريبة ، وأنت تعلم ان مذهبى فى الاستعمار وضع الحماية كما هو فى تونس لاضم المستعمرة الى فرنسا كما فعلنا فى مدغسكر بالرغم عن معارضتى ذلك وقد رضيت به منقاداً لاوامر اكثرية دار الندوة ولاأنكر انه يجب تعديل بعض قوانين الجزائر ، وقد شرعنا فى ذلك وساكتب كثيراً فى هذا الموضوع لانى ذهبت بنفسى الى تلك البلاد ودرست أحوالها وأملى أن لايمضى طويل زمن حتى ترى ذلك الاصلاح الذى طلبه غيرى قبلى وشرعت حكومتنا فى انفاذه .

قلت : انى اعرف ماسردته لى عن تاريخ السلطتين الدينية والسياسية

فى أوربا وعن أحوال شعوب البلادين ، ولكن ذلك مستحيل فى الشرق ولاسيما فى الحكومات الاسلامية ، والذين يقولون به من الاجانب ليسوا إلا خصوما للمسلمين لاعتقاد هؤلاء ان فى فصل السلطتين ضعفا ترومه أوربا لتنال بغيتها منهم .

قال هانوتو . أنا لاأسأل الشرق ذلك فهو حر يفعل مايشاء ولكن اعتقد أن أوروبا لم تتقدم الا بعد تعيين حقوق السلطتين وجعل الكلمة الاولى للسلطة الحاكمة كما انى أعتقد ان جمع السلطتين فى شخص واحد لم تمنع أن تخسروا في الحروب الماضية وأعتقد أيضا ان صاحب السلطتين ولاسيما فى بلاد كالشرق تستطيع أن يجرى اصلاحات لايقدر غيره عليها ويعلم المسلمون ان جمع السلطتين فى شخص واحد لم يمنع فرنسا من الاستيلاء على الجزائر وتونس وانكلترا من التهام الهند وروسيا من أخذ خيوى وغيرها الى حدود افغانستان ، كما انه لم يمنع استقلال مراكش وبلاد فارس والبلدان اسلاميان . فاذا كان يستحيل توحيد حكومة اسلامية توحيدا سياسيا يستحيل أيضا توحيد سلطتها الدينية . وابن مراكش لايعرف غير سلطانها خليفة لها واذا كان الاسلام كما قلتم ويقول كتابكم (وأود أن أعتقد أنا مثلكم أيضا) لايحول دون التقدم العصرى فما بالكم متأخرون ونحن متقدمون ؟ وبماذا تردون على أولئك الكتاب الذين لايعتقدون اعتقادى واعتقادكم ؟ فاذا قلتم كما يقول اخوانكم ان أوروبا تحول دون تلك الاصلاحات ، أجابوكم ان أكثر الدول كانت دائما معكم الى سنة السبعين وبعدها . فلم تأخرتم واليابان لم تشتغل الاربع قرن حتى وصلت الى ماأصبحت اليه اليوم فأصبحت أوروبا تقدرها قدرها فى جميع مسائل الشرق الأقصى ؟

واذا قال لكم أولئك الكتاب اننا مقتنعون بأن أوروبا وشعوب تركيا حالت دون اصلاح الولايات الواقعة فى أوروبا والقريبة من أوروبا كسوريا مثلا ، سألتكم هل مسلموا بغداد وما بين النهرين وحلب راضون عن أحوالهم ،

أيظن رجالكم وكتابكم أننا نحن وكتابنا جاهلون أحوالهم هنالك حيث الأوربى ولا غيره يحولون دون تعميم العدالة وحفظ حقوق المتقاضين ؟

أنا أعرف ان مثال هذه الحقائق يجرحكم ذكرها ، لكن قد حال لكم أن لايعميكم غرضكم عن الحقيقة ولو أنها خارجة من فم أجنبى مادام كتابكم ليس فقط لايقولونها بل يكذبونها . كانى بهم يساعدون الظالمين من حكامكم على مايأتونه من المغارم والمظالم فكان ذنبهم نحو وطنهم أعظم من ذنب الحكام الظالمين . وأنى أقول لك هذا بعد الذى قرأته فى جرائدكم ردا على ما كتبته ، فقد عدونى خصما لهم ونسواخدماتى لهم وأنا فى منصة الوزارة الخارجية فى أيام المسئلة الأرمنية فاذا كان هذا رأيهم في صديق خدمهم فماذا يكون حكمهم على خصم جهر بعداوتهم ؟ ولكن فليعلم هؤلاء أنه اذا حدثت أمثال تلك الحوادث فى المستقبل فيستحيل على وزير أوربى أن يرتأى مثل تلك السياسة. ولا أقول هذا من باب العداء ، بل لما نراه من تعديل أوروبا على وجه عام مبادئ سياستها الخارجية مع الشعوب المشرقية فان الدول ستكون واحدة في المستقبل كما نرى الآن فى مسألة الصين

فقلت للمسيو هانوتو وما شأنكم والشرق وأممه؟ فكلاهما راض عن حاله ومفضل اياها على كل سلطة أجنبية أو أوروبية والذى ينفر الشرقى هو ظلم أوروبا فى سياستها هذه وعتبنا على فرنسا أكثر من غيرها لانها عودتنا حماية الضعيف من القوى . فقال الوزير بعبارة صريحة : ان هذه الاقوال خيالية لاتنطبق على حالة أوروبا فى هذا الزمان . فهى بعد ان كانت لاتهتم بغير قارتها قد اندفعت الى الاستعمار ولا تقف عند دعوى العدالة وغيرها. واعلم ان فرنسا مضطرة مادامت لاتقدر على منع الدول الثانية عن توسيع نطاقها الاستعمارى والتجارى الى الاقتداء بالدول المذكورة . وانى أرى كتابكم وأفرادأمتكم يجهرون فى غالب الأحيان بأفكار صبيانية فيستعبدون للألمانى لنكاية الانكليزى وينتصرون للفرنساوى على الألمانى . ولكن أما

حان لهم أن يعلموا ان الاوربيين مهما اختلفت أجناسهم ومذاهبهم سهل اتفاقهم على الشرقيين ؟ لان هؤلاء لايعملون عمل العامل البصير باستخدام مصلحة هذه الدولة أو اعراض تلك الامة لاصلاح شؤونهم ، بل لمعارضة دولة ثانية : وهى سياسة قديمة العهد لاتعتديها أوروبااليوم . وانت تعلم ان المانيا — أكثر الدول فى أوروبا استقرارا وأبعدها استعمارا — هي التى اقترحت تحديد مناطق النفوذ فى الصين وهي التى سالت امتياز انشاء سكة حديد بغداد . وهذا ما يدلكم على ان اوربا لا تسعى إلا الى مصلحتها السياسية وماسوى ذلك فضلة عندها او صعب على طبعها .

٢

ثم قال لى أنت تقول لى أن الساسة المسلمين لايعتقدن باخلاص سياسة أوروبا كلها أو بعضها ولهذا تخافون من مصافاة هذه الدولة خوفهم من معاداة تلك ولا سيما وان أكثر الدول طامعاة فى أملاكهم وحضرتك أكدت ذلك فى كلامك الآن عن سياسة أوروبا

والمسلمون يعتقدون أيضا أن مصلحة أوروبا المسيحية تخالف مصلحتهم الاسلامية ولذلك لايأمنون على أنفسهم من سياسة الدول المسيحية . وقد أدى بهم فقدان هذه الثقة إلى أن لايأتمنوا مسيحيا عثمانيا ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم . وهم يؤيدون سياستهم هذه لما رأوه من تداخل أوروبا فى أعمالهم ومن أفعال الموظفين غير المسلمين في المناصب السياسية العثمانية سواء فى بلاد الدولة أو فى سفاراتها . وأنت تقول لى ان فى ذلك بعض المغالاة ولكنهم يغدرون .

فهذا الذى تقوله لى اليوم قد سمعته منك من قبل وقاله لى بعض العثمانيين فى الاستانة وباريس ، ولكن تفنيده أمر سهل وإليك البرهان : لايسعك

والساسة المسلمين ان تنكروا ان بعض دول أوروبا قد اتفقت مع الدولة العثمانية على دول ثانية مسيحية في أوروبا فان هذا حصل قولا وفعلا فى حرب القريم : فنحن وانكلترا لم نبخل بالمال والرجال لمساعدة دولتكم العثمانية ، ونحن وروسيا والمانيا منعنا بعض دول أوروبا عند نيل أغراضها في المسألة اليونانية ، وهذه الدول الثلاث خدمن سلطنتكم أجل خدمة فى المسألة الأرمنية بالرغم عن هياج الرأى العام الأوربى وتصريح بعض الدول بمعارضتكم ، وتلك أمور حديثة العهد يعرفها رجالكم كما نعرفها نحن .

واذا راجعنا حوادث التاريخ القديمة تبين لنا أيضاً ان فرنسا وبولونيا وغيرهما حالفت العثمانية ضددول ثانية مسيحية مما يدل على ان ضالة أوروبا مصلحتها الاقتصادية فالسياسية ولا دخل للاعتقاد البتة فى أعمالها . ولعمرك هل منع المانيا كونها مسيحية أن تحارب أوستريا وفرنسا المسيحيتين ؟ وألم تحارب ايطاليا أوستريا ؟ وهل منع فرنسا مذهبها الكاثوليكى من أن تحالف روسيا ومذهبها أرثوذكسى ؟ وهكذا قل عن التحالف الثلاثى بين البروتستنتى الألمانى والكاثوليكى النمسوى والايطالى . وهذه الترنسفال دينها كدين انكلترا وأهلها من أقرب العناصر الى الجنس السكسونى وقد حاربها الانكليز وعرضهم سلب استقلالها . كل هذه شواهد قديمة العهد وحديثة تفند زعم حضرتك ومزاعم ساسة الشرق . واذا وجب أن يلوم المسلمون سياسيا مسيحيا يخدمهم فكم يجب أن يلوموا ساستهم العديدين ؟

أفي مراكش مسيحى موظف ؟ وهل غير المسلمين قابضون على سياسة العجم ؟ ومتى كانت سياسة الدولة العلية الخارجية فى غير أيدى المسلمين ؟ فاذا كان ذلك السفير غير أهل لمنصبه أو ان رأيه مضر ببلاده ، فلماذا أبقى عليه وزير خارجيتكم أو الصدر الأعظم ؟ وهل قام ولاتكم وجميعهم مسلمون بما تتطلبه حقوق الامة ومصلحة الوطن ؟ نعم لا أنكر أن تداخل أوروبا أو بعضها نفركم ، ولكن بعض الحوادث التى حدثت فى جهات

عديدة من الشرق هى التى كانت سبب ذلك التداخل .

وانى أتساهل معك وأقول ان بعض دول أوروبا يريد لكم سوءاً وان هذا ولد فيكم عدم الثقة بنا نحن الأوروبيين ، ولكن اذا كان قد استحال على دول الشرق وهي فى اوج مجدها وشامخ عزها أن تتحدو توحد كلمتها ، فهل يسهل ذلك عليها اليوم ، واذا كان المسلمون يعدون سياسة اوروبا عداء المصلحة الاسلام لأن أوروبا مسيحية — وهو زعم باطل — فهل كان ماينادون به من وجوب الاتحاد الاسلامى وجمع كلمة المسلمين مما يخيف أوروبا ويمنعها عن انفاذ مايتهمها به المسلمون ، وكيف يمكن ذلك الاتحاد المزعوم ؟ أترضى به أوستريا ولها البوسنة والهرسك وهى طامعة في غيرها ؟ أم تقبل به فرنسا مع أملاكها الافريقية الواسعة ؟ أم تؤيده انكلترا وعدد رعاياها المسلمين عظيم ؟ ام تعضده روسيا ؟ أليس ذلك خرقا فى الرأى من الذين ينادون بهذه السياسة كأنى بهم هم الذين يريدون إنفاذ مايطلبه (كيمون) وغيره من كتبة أوروبا . وقد كان أولى لمثل أولئك الكتاب أن يكتبوا كتابات أدبية بلغة الكتبة الأوروبيين لتفنيد أقوالهم ولاستمالة الرأى العام الأوروبى اليهم .

أما كان يجب عمله على رجالكم سواء الذين عركتهم حوادث السنين الغابرة أو الذين درسوا فى أوروبا وتعلموا بعض علومها ووقفوا على قليل من مبادئها وسياستها فهو ان يهتموا بنشر العلوم العصرية فى بلادهم وان يعملوا فى الخارج على إزالة سوء التفاهم الواقع بين الشرق والغرب بأن يتخذوا أقدام أوربا واجتهاد أبنائها مثالا يسيرون عليه ونموذجا يعملون بموجبه . أى كما فعل اليابانيون فى السنين الاخيرة وأنت تعلم أن الذى نبه اليابان هو خوفها من أوربا وهي لم تتعز عن ضعفها بالاحتقار الاوربى وذمة المباهاة بمجد الآباء ، ولم يقل يابانى بتحقير الاجنبى لانه عنصر غريب أو لانه مسيحى ودينه بعيد بمراحل عن دين أهل اليابان . بل قاله رجال هذه المملكة بوجوب محاربة أوربا ولكن بسلاح أوربا ، أى بان تتشبه فى العلم

والمدنية والاقدام ولهذا فازت فى مطالبها وحالت دون فتوحات الاوربى الاقتصادية أولا فالسياسة ثانيا ، ولو أتى رجال الشرق القريب هذا المأتى منذ حرب القريم لما شكا مسلم من أوربا ولما شكا كاتب أوربى من حال الشرق وأهله ، بل لو فعلوا أو حدث انقلاب عظيم فى السياسة الاوربية سواء فى أوربا أو فى الشرقين الاقصى والاقرب لكان دون شك حظ دولتكم العثمانية أضعاف حظوظ أعظم دولة أوربية .

وأرانى فى هذا الشرح قد بلغت ما قصدته فى تفنيد ما يزعمه رجالكم الذين اذا رجعوا الى نفوسهم عرفوا هذه الحقائق كما نعرفها نحن ، وقد كان يجب عليهم أن يجهروا بها خدمة لامتهم ولوطنهم ، لا أن يتجاهلوها ويكذبوها.

وتقول لى ان النهضة العلمية بدأت فى مصر وأن بعض الافراد أنشاوا المدارس وأن الجناب السلطانى قد اهتم كثيرا بتوسع نطاق المعارف فى البلاد العثمانية وأن أصحاب النشأة الجديدة أدركوا قصور الحكام وتأخر البلاد فقاموا يجهرون بوجوب الاصلاح وتعميم العدالة والامل وطيد بالنجاح ولكن الطفرة محال . وهذا أمر يسرنى ويشرح صدرى لأنى أرغب رغبة خالصة في نجاح شرقكم ، ولكن يجب أن تعلم أن العبرة ليست فقط فى اقامة المدرسة بل وضع البروجرامات المدرسية ، كما أن العلم وحده لا يكفى وقد يضر اذا لم يمزج بالتهذيب ، ولكننا فانى أجهل ان كثيرين من ابناء الشرق درسوا فى اوربا وقد يربو عددهم على عدد اليابانيين الذين درسوا في اوربا ايضا ولكننا رأينا فى اليابان نتيجة لم نرها حتى الآن عندكم ولعلنا نراها يوما لأنى اعتقد أن رجال النشاة الجديدة ينجحون نجاحا كاملا اذا كان غرضهم خدمة الوطن منزهة عن كل غاية شخصية أو مذهبية لان الوطن الواحد قد يجمع أكثر من عنصر معتقد ، ولكن الاعتقاد وحده لا يجمع إلا عنصراً واحدا وأنت تعلم ان الفرنسوى يشمل الكاثوليكى والبروتستنتى والمسلم واليهودى والوثنى وغيرهم عن سائر رعايا فرنسا ، ولكن الكاثوليكى

الفرنسوى والفرنسوى الكاثوليكى او الكاثوليكى المسيحى لايشمل كل فرنسوى .

لهذا كانت الرابطة الوطنية اعلم واشد من الرابطة الدينية وهى التى كانت قاعدة اوربا الاولى فى سياستها وبها تقدمت وتمدنت ونجحت والى هنا قد اجبتك على جميع ما أردت ان تعرفه منى عن رأيى فى الشرق

اما الصين فأظن أن مسألتها ستنتهى باحتلال بيكين عاصمة الصين لان حكام هذه المملكة لابد أن يكونوا مع اوربا ضد البوكسرس والدول لا تانف من استخدام هذه السلطة الشرعية للانتقام من الثائرين واعادة الامن الى ان تتخذ فى تلك الارجاء وسائط فعالة يتلافى بها حدوث فتنة فى المستقبل ، واذا حدثت كان لاوربا اكثر من ١٠٠ عسكرى فى مناطق نفوذها الحالية مستمدين في ساعة لدرء كل ملمة ولقمع كل ثورة ،

وهنا استأذنت محدثى بالانصراف شاكرا مالقيته من لطف حضرته وهو ما عودنيه على الدوام سواء عند ما كان وزيرا قابضا على زمام خارجية فرنسا او كاتبا يستخدم قلمه فى خدمة بلاده وينشروا اقواله في الجرائد السيارة بالامس كان وزيرا خطيرا يعرف اسرار دولته واليوم هو كاتب سياسى ورفيقه قلمه وقرطاسه ، شأن اكثر ساسة اوربا ، وبذلك لا يحرم وطن هؤلاء الجماعة من فوائدهم سواء كانوا عاملين او مستقيلين . فكيف لا تتقدم اوربا ولا يفلح رجالها ولا تتسع املاكها وهذا شأن رجالها ونوابغها .

٣

هذه هى رسالتى الثالثة والاخيرة عن اقوال المسيو هانوتو السياسى الشهير والكاتب المجيد وقد ضمنتها بعض مافاتنى ايراده من حديثه فى الرسالتين السالفتين وما أبديته لحضرته من الآراء والافكار ، وفى نشرها اتمام للفائدة التى توخيتها من محادثة هذا الرجل العاقل المجرب

قال المسيو هانوتو في خلال أقواله : ان غير دولة أوربية تروم محالفة الدولة العلية لا مصافاتها فقط ولا تتفق معها على بعض الامور والشئون ولكن على شرط أن تكون قاعدة هذا التحالف سياسية محضة لا تشوبها أغراض ثانية وما آرب أخرى ، لان الدولة الاوربية مهما تخالفت مصالحها السياسية تجمعها جامعة واحدة فيما يتعلق بدولتكم فلا يتم ذلك التحالف المطلوب وبعبارة أصرح أن كل دولة لها غرض ما في بلاد مشرقية قد استخدمت على زعمها تعصب رجال الشرق فى تأييد سياستها وتقوية نفوذها ، فهل من مصلحة الشرق بعد ذلك أن يسعى إلى تعميم هذه القاعدة الوخيمة العواقب أن يخدم بها خصومه وأعداؤه ويبعد عنه أحباؤه ؟ وقال المسيو هانوتو فى موضع آخر من حديثه أن الوزير فى أوربا كيفما كان دينه لا ينظر فى سياسته الا إلى مصلحة بلاده المالية وفائدتها السياسية ، وكم من وزير فرنسوى تولى وزارة الخارجية ومذهبه بروتستنتى أو أنه لا يعتقد بدين من الاديان ، ولكنك تراه يساعد جماعة المبشرين فى بلاد الصين وأفريقيا وغيرهم ، وانا نفسى عند ما كنت وزيراً في بلاد هى مسيحية بل هى عامية الدين الكاثوليكى فى الدنيا رأيت من باب السياسة أن أحافظ على مصلحة الدولة العثمانية وأسمى الى ضمان سلامتها فى أيام الحوادث الارمنية مع أن أهل أوربا كلهم كانوا يطلبون مجافاة دولتكم والحاق الضرر بها ، وعلم الله أن هذه السياسة التى اتبعتها قد جلبت على ضرراً شخصيا وحملتنى متاعب كثيرة ، ولكننى نظرت فيها الى مصلحة الامة العامة .

وقال عن تحالف روسيا وفرنسا انه يزداد تأيدا ووثوقا كل يوم وأن الحكومة الفرنسوية متفقة اتفاقا تاما مع روسيا فى جميع المسائل الخارجية وأن المسيو دلكاسه وزير الخارجية الحالى قائم خير قيام باعباء منصبه وجاعل نصب عينيه خير فرنسا وحفظ السلام التام .

هذا جل ما فاتنى اثباته من حديث المسيو هانوتو فى المقالتين السابقتين :

وهنا أذكر ما قلته له وملخصه أن الشرق اليوم في بداية نشاته ونهضته وقد أدرك انه مفتقر الى المدارس فسعى الى انشائها والاكثار منها فى كل ناحية وقام من المصريين أفراد عرفوا فروضهم الوطنية فبدلوا من أموالهم لانشاء المدارس وحق للأمة المصرية أن تفاخر بهؤلاء الافراد الاسخياء الغيورين (وقد سردت له اسماؤهم) ولكن لسوء البخت أن تهجم دول أوربا كلها أو بعضها فى هذه السنوات الاخيرة على الشرق وطموحها الى الاستئثار بمنافعه قد أضر به وربما حال دون نجاحه وارتقائه . ونحن معاشر الشرقيين نعتقد أن خصومنا لما رأو تلك النهضة السياسية والبعثة العلمية بعد طول الخمول جنحوا الى عصرنا والضغط في رقابنا ، وإلا فلماذا لايهتم رجال الانكليز فى مصر بمدارسها ومعارفها ؟ ولماذا ترى الدول تعاكس جلالة السلطان وتناهض حكومته كلما قال بمشروع مفيد وعمل جليل يفيد امته وبلاده وتبذل جهدها فى غل يديه عن انفاذ نياته الجميلة ومقاصده النبيلة ؟ ولنا فى المسألة المصرية دليل قاطع على صدق هذا القول ، فان جلالته كان كلما أراد أن يتداخل فى شئون مصر إما منفردا وإما متفقا مع بعض دول اوربا اشارت عليه المانيا بالسكوت فسكت ، على اننى اوافق حضرتكم على استحسان ما نشرته جريدة الديبا منذ ايام ؛ وهو ان استخدام السلطة الدينية فى مصر يؤيد انكلترا ويوطد قدم احتلالها لانه يستحيل على اية دولة كانت حتى فرنسا ان تعضد هذه السياسة الجديدة ، لان كل دولة عندها رعايا مسلمون عديدون ولأن حكومات اوربا مسيرة فى الامر غير مخيرة اذ الامر والنهى فيها للرأى العام مهما استبد حكامها وجاروا فى حكومتهم .

وقد راينا جريدة التيمس تندد فى عددها الاخير بسياسة جلالة السلطان لانه عين انيس باشا واليا لحلب وقالت ان جلالته لم يعين هذا الرجل لتلك الولاية الا لانه حسب اوربا مشغولة بثورة الصين فانتهز الفرصة وعين انيس باشا واليا لحلب ، مع ان دول اوربا طلبت عزله من ولاية ديار بكر

فى زمن الحوادث الارمنية مما يدل على اننا غير احرار فى بلادنا وشئونها واننا اذا اتينا امرا وجب ان توافق عليه الدول كلها وإلا فلاينفذ، ويستحيل ان يكون ذلك ملائما لمصلحتنا لان اجماع الدول على الرضى والموافقة لا يتم الا باساءتنا الى بلادنا وانفسنا لانه يستحيل علينا إرضاء البعض واسخاط البعض الآخر، ولو حالفنا التحالف الثلاثى او الثنائى او لو رضينابالاتفاق مع انكلترا لكنا على يقين باننا خاسرون لاننا نصبح مضطرين على ارضاء التحالف التى تختاره بكل ما عزوهان، وقد يضحينا هذا التحالف فدى لاغراضه وحفظا لمصالحه مع التحالف الثانى، وهذا هو الامر الذى ولد فينا عدم الثقة وحدا بنا على البقاء منفردين دون ولى ولا نصير .

فقاطعني المسيو هانوتو وقال : انه مامن دولة تمنعكم عن اصلاح داخليتكم وان مصلحة أكثر دول أوروبا ولا سيما فرنسا ان تكون دولتكم قوية فى البر والبحر لأن مصالحها تقتضى وجود هذه القوة عندكم ولو لم تكن دولتكم موجودة لتمنت الدول وجودها . ولو لم يكن هذا الامر أى حفظ كيان الدولة العثمانية وتمنى بقائها قوية مدار سياسة بعض الدول الأوروبية لما استحال اتفاق أوروبا عليكم كما اتفقت على أفريقيا وكما انها ستتفق على الصين وانى لعلى يقين بأنه لو عرف رجالكم كيف يستخدمون سياسة بعض الاول فى سبيل مصلحة بلادهم لفازوا برغائبهم وتمكنوا من تعميم الاصلاح وتعزيز المملكة أيضا حتى اذا خالفت دولة أو دولا شاطرتها فوائد التحالف كما هي الحال في المحالفتين الثلاثية والثنائية

والذى سرنى من أقوال المسيو هانوتو ان فى أوروبا ساسة كثيرين يرون رأيه ويقولون اننا اذا انتهجنا خطة الثبات والحزم ونبذنا اليأس مهما عارضنا خصومنا وعملنا لانشاء المدارس وسعينا الى نشر العلوم وأدرك رجالنا فروضهم على حسب ماتقتضيه المصالح السياسية والمالية ـ قدرنا على تحقيق أمانينا الوطنية وانهضنا شرقنا من كبوته وحفظنا أملاكنا وكان لنا فى السياسة شأن ومكانة وتقاتلنا مع الدول كلها أو بعضها فوائد السياسة السلمية

رد على هذا الحديث الاخير [1]

١

حضرة الفاضل صاحب جريدة المؤيد الغراء

ألقت إلى الصدفة نسختين من إحدى الجرائد المشهورة فى القطر المصرى جاء فيهما حديث بين صاحب الجريدة ومسيو هانوتو صاحب الفصول المعروفة فى الاسلام .

ولم أشك فى أن كثيراً مما جاء فى هذا الحديث صادر عن رأى مسيو هانوتو لانه لايصدر الا عن عارف مثله بأحوال أوروبا وكثير من أحوال المشرق . ولهذا رأيت أن حرمانه من حظ النظر فيه وتركه يمر بلا مناقشة معه فى بعض ماتضمنه يعد ظلما له وجوراً عليه خصوصا ونسبة القول اليه مما يدع في أذهان الناس أثراً لايحسن السكوت عنه

وقد جاء فى كلامه مايدل على انه قد أصيب بشىء من سوء الفهم فى أحوال المسلمين وما انبعثت اليه نفوسهم اليوم . وسوء الفهم منشأ الشقاق والخصام بين أهل المقصد الواحد كما ذكره حضرته فى مقال له سابق . فلا يليق بذى غيرة على الحق ان لايوفيه عن الاعتبار مايستحق . وأرجو أن يترجم ما اكتبه فى جريدة المؤيد الفرنساوية وان يرسل إلى مسيو هانوتو ليقف على ماغاب عنه من مقاصدنا وأفكارنا .

ان كان المسلمون اليوم بشىء ويعتبرون بمقال لم يكن أنفع لهم من الاعتبار بما جاء فى كلام مسيوهانوتو . فقد أرشدهم الى عيوب فيهم لايسعهم انكارها . وهداهم إلى مقاصد لطلاب الاستعمار في ديارهم قد شهدوا بالعيان

---

(١) المؤيد ٢٨ ربيع الاول سنة ١٣١٨ (٢٥ يوليو سنة ١٩٠٠) عدد ٣٢١٠

آثارها . وصرح لهم بأن الاعتماد على العدالة فى معاملة الدول ضرب من الخيال . وعقد الآمال بانصاف الأمم تلمس للمحال . وما على المهتم بحماية ذماره وطالب الطهر من عاره إلا ان يدرك مدركهم ويعمل عملهم ليبلغ من الحول حولهم فيفوقهم فى القوة او يكون مثلهم فيتعارض فى المنافع معهم معارضة المالك لا أن يتسلى بالأعاليل ويلهو بالأضاليل ويقنع بالأمانى ويكتفى من العمل بالصوت الجهورى واللفظ الطلى وهو من روح قائلة خلى ، حتى اذا دهموه وهو فى غفلته واخذوه في نومه او يقظته بسط يده يلتمس الرحمة منهم ويرقب ان يفيض عليه سبب العدل عنهم : فهذا عمل الجاهل الأحمق وهو بالذلة والاستعباد أحق .

وهي نصيحة يجب على المسلم قبولها من اجنبى منه وكان يجب عليه من قبل ان يقبلها من ابى بكر الصديق رضى الله عنه فقد قال لخالد بن الوليد حين ارسله لحرب اليمامة : « حاربهم بمثل مايحاربونك به السيف بالسيف والرمح بالرمح » .

ولا يخفى ان كل نزاع فهو حرب وكل منافسة فيما هو عماد الحياة فهى جلاد وكل عمل يأتيه احد المتنافسين للظفر بمنافسه فهو جهاد وكل وسيلة تظفره بطلبته فهى سلاح وكل تجاذب او تدافع بينهما فهو كفاح وكل منفعة حفظها او استخلصها منه فهى غنيمة وكل انخذال عن حق او تفويت لمصلحة فهو هزيمة .

فالظافر فى ميدان المنافسة من كان رأيه اسد وقوته اشد وسلاحه احد . فاذا قربت القوتان من التكافؤ امكن لمصالح المتنافسين ان تتفق . وسهل على كل منهما ان يرتفق وإلا استحال الاتفاق واستبد القوى بالارتفاق بل صعب على الضعيف ان ينال حق البقاء . سنة الله فى عالم الاحياء :

وقد فصل مسيو هانوتو ما اجمله بعض اساتذنا فى قوله . « العدل تكافؤ القوى »

صرح مسيو هانوتو بأن أوربا بعد أن كانت لاتشتغل الا بما يجرى فيها اندفعت الى الاستعمار ولا يردها عنه إلا قوة الامم التى تريد الاستعمار فيها وضرب المثل باليابان فانها بما ارتقت في المدنية وما أصلحت من شئونها الداخلية وما أعدت لوقاية ممالكها وحماية مسالكها قد آذنت أوربا بقوتها وحملتها على الاقرار بمكانتها فحمت بلادها ومصالحها من صولتها وأمكنها برهان القوة أن تؤلف بين منافعها ومنافع الاوربيين ، وهو قول حق وكان على المسلم أن يعرفه من قرون وله فى كتابه المنزل خير هاد وأرشد مرشد وكان يكفيه منه آية « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » فقد دعته الآية الكريمة الى الاعداد وطالبته أن يبلغ منه حد المستطاع ، ولا حد لما تستطيعه أمة اذا صرفت قواها العقلية والجسدية فيما هيئت له وأطلقت له القوة وهى كل مايقوى به خصم على خصم ويقتدر به على حماية نفسه وحوزته من اعتداء معتد أو يستطيع به استخلاص حق من يد مغتصب ، وخير القوى ماحفظ به الحق وعظمت به المنفعة ووقف لهيبته كل من المتنافسين عند حده حتى يستقر السلام بينهم وتشمل الطمأنينة شئونهم .

ولقد تألفت قوى الامم الاوربية من عناصر هى العلم والادب والتجارة والصناعة والعدل والدين والسلاح ، وذكرت الدين فى جملة عناصر القوة لان مسيو هانوتو لا ينكر أن أوربا تعتمد على الدين فى سياسة الاستعمار وان المرسلين والجمعيات الدينية من أهم الوسائل لديها فى اعداد الشعوب الى قبول سلطانها عند سنوح الفرص لسوقه اليها وتهيئة نفوس الامم لاحتمال ما يقضى به ذلك السلطان متى أظلهم وفى فتح المغالق التى لايستطيع السلاح وحده أن يفتحها وتمهيد السبل التى لا يمكن لساعد الجندى وحده أن يمهدها . وهو من الامور المسلمة التى لا يجادل فيها عارف مثل هانوتو فلا حاجة

للاطالة فى بيانه ، غير أنى أذكر قصة كنت شاهدتها لا باس بذكرها فى هذا المقام :

تعلم أحد أبناء جبل لبنان من بلاد سوريا فى بعض مدارس الجمعيات الدينية الفرنساوية فى تلك البلاد وأخذ عن أساتذته كثيرا من آدابهم وطالع عددا من مؤلفات كتابهم وامتلأ قلبه بحب فرنسا واستقر في ذهنه انها منبع نور العلم والحرية وانها محررة العالم اجمع من رق الاستبداد ، ثم اشتغل بكتب الفلاسفة الفرنساويين ومؤلفات بعض السياسيين فعظم عنده الاعتقاد بان هذه الامة الجليلة انما يهمها من سياستها أن تنشر المعارف فى العالم لتهذيب العقول وتكميل النفوس لتربيتها على أصول العقل وحرية الفكر ، ورأى أن من الزلفى عند الحكومة الفرنساوية أن يذهب الى باريس ويسألها المعونة على انشاء مدارس فى جبل لبنان يبنى التعليم فيها على تلك الاصول السابقة فذهب الى باريس سنة ١٨٨٤ واتصل بأحد أذكياء السوريين الذين طاب لهم المقام فى البلاد الفرنساوية وطلب منه أن يكون وسيلته فى نيل مايرغبه من معونة الحكومة فسعى الذكى سعيه ثم عاد الى صاحبه . وقال له ان ما تخيلته ضرب من الوسواس وان الحكومة الفرنساوية وان كانت تطرد الجزويت من بلادها وتنازع الكنيسة في سلطتها لكن سياستها فى الخارج دينية محضة ، ويمكن أن تعرف ذلك من حمايتها للجزويت واعانتها لهم بالمال والقوة فى بلادك . فان كنت تريد انشاء مدارس دينية في بلاد لبنان كان املك فى المساعدة قريبا ، وإلا فارجع واشتغل بمايصلح لشانك الخاص بك فرجع الشاب بالخيبة بعد ما اقام مدة صرف فيها ما كان عنده من النقود ولم يجد من يساعده على الرجوع الى بلده إلا من رحمه من اصدقائنا إذ ذاك وكان لى حظ في مساعدته كما كنت شاهدا الحديث الذى رويته .

فان لم يسع المسلم بعزم ثابت فى تحصيل هذه العناصر التى سبق ذكرها او تقوية ماضعف عنده منها وهو مسلم كان مخالفا لكتابه ولقول الصديق

رضى الله عنه ومستحقا للوم مسيو هانوتو ولم تتفق له مصلحة مع مصالح الأوربيين إلى يوم القيامة . بقى على الكلام مع هذا الوزير فى امرين. الاول فيما فهمه من شأن المسلمين فى هذه الأيام وما يسمونه دعوة إلى توحيد كلمة المسلمين قاطبة وجمع السلطة الدينية والسياسية فى شخص واحد والامر الثانى سوء ظن المسلمين بالسياسة الأوروبية بل بالمسيحيين أجمع حتى وصل فقد الثقة بهم الى أن لايأتمنوا مسيحيا عثمانيا فى عمل من أعماله وإن أخلص لهم الخدمة كما سمعه من صاحب هذه الجريدة الناشرة الحديث وغيره :

٢

شأن المسلمين اليوم وظهور دعوة فيهم إلى توحيد كلمة المسلمين وجمع السلطة الدينية والسياسية فى شخص واحد فى جميع البلاد الاسلامية (١)

أؤكد لمسيو هانوتو ان هذه الدعوة لم يوجد لها أثر إلى اليوم فى بلد من بلاد المسلمين . ولو خطا خطوة إلى معرفة أحوالهم على ماهى عليه لما خطر بباله أن يشير إلى هذه الدعوة فضلا عن أن يبنى عليها حكما . وان ماعلق بالأوهام منها فانما منشؤه سوء فهم بعض مسيحى الشرق ثم انعكاس ذلك فى أذهان سياسى المغرب . وقد يكون لسوء نية بعضهم مدخل فى تعظيم ماتوهم فيها .

وإنى أعرض الحقيقة كما هى لايغشاها ستار من تمويه ولاغطا من تلبيس وأرجو أن يكون فى هذا البيان مايقنع مسيو هانوتو بحسن مقاصد المسلمين اليوم فى كلامهم مع الدين وما يرد مثال صاحب الجريدة التى نشرت حديثه الى رشدهم حتى يتقوا الله فى أنفسهم وأهل بلادهم ولا يتخذ بعضهم من السلم حربا ولا من السكون شغبا .

لاأنكر ان طائفا من الدين طاف فى هذه السنين الأخيرة بعقول بعض

---

(١) المؤيد ٢٩ ربيع الاول سنة ١٣١٨ (٢٦ يوليو سنة ١٩٠٠) عدد ٣١٢١

المسلمين فى أقطار مختلفة من الأرض وان نسمة من نفس الرحمن مرت بأنفس قليل من أهل الفضل فيهم فحركت ساكنهم وأثارت هممهم إلى النظر فيما كان عليه أهل هذا الدين وفيما صاروا اليه . وان منهم من يتكلم بما يرى اذا وجد سبيلا إلى الكلام . ومنهم من ينشر رأيه فى كتاب أو جريدة اذا تهيأت له الوسائل لذلك : ثم يوجد مقلدون لهؤلاء يقولون مالا يعلمون ويهرفون بمالا يعرفون . ولا كلام لنا في هذر المقلدين وانما كلامنا فيما يرمى اليه غرض أولئك الناظرين .

ظهر الاسلام لا روحيا مجردا ولا جسدانيا جامدا بل إنسانيا وسطا بين ذلك . أخذ من كل القبيلين بنصيب فتوفر له من ملاءمة الفطرة البشرية مالم يتوفر لغيره . ولذلك سمى نفسه دين الفطرة وعرف له ذلك خصومه اليوم وعدوه المدرسة الاولى التي يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية . ثم لم يكن من أصوله « أن يدع مال قيصر لقيصر » بل كان من شانه أن يحاسب قيصر على ماله ويأخذ على يده فى عمله .

جاء هذا الدين على الوجه الذى ذكرنا فهدى ضالا ، وألان قاسيا ، وهذب خشنا ، وعلم جاهلا ، ونبه خاملا ، وأثار إلى العمل كسلا وأقدر عليه وكلا وأصلح من الخُلق فاسداً ، وروج من الفضيلة كاسداً : ثم جمع متفرقا ، ورأب متصدعا وأصلح مختلا ، ومحا ظلما ، وأقام عدلا ، وجدد شرعا ، ومكن للأمم التى دخلت فيه نظاما امتازت به عن سواها ممن لم يدخل فيه . فكان الدين بذلك عند أهله كمالاً للشخص وألفة فى البيت ونظاما للملك وظهرت به آثار النعمة عليهم فى جميع شؤونهم ولم يفت العلم حظه من عنايته بل كان قائده فى جميع وجوه سيره .

فان شاء قائل أن يقول ان الدين لم يعلمهم التجارة ولا الصناعة ولا تفصيل سياسة الملك ولا طرق المعيشة في البيت لم يسعه أن ينكر انه أوجب عليهم

السعى الى ما يقيمون به حياتهم الشخصية والاجتماعية وأوجب عليهم أن يحسنوا فيه وأباح لهم الملك وفرض عليهم أن يحسنوا المملكة

رما ظنك بدين يقول خليفته الثانى وهو فى مدينة يثرب من بلاد العرب ولو أن سخلة بوادى الفرات أخذها الذئب لسئل عنها عمر — ويقول خليفته الرابع « أأقنع من نفسى بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم فى مكاره الدهو أو أكون لهم أسوة من جشوبة العيش ؟ أى خشونته — » يريد بذلك أن يساوى المساكين فى العيش ليكون قدوة الاغنياء في الاحسان وأسوة الفقراء في حسن الصبر .

هكذا كان الاسلام مهمازاً للمسلمين يحثهم الى جلائل الاعمال ومصباحا لبصائرهم يسترشدون به فى استعراف الاحوال وتقويم الافكار وعاطفا يعطف قلوبهم على الامم بالعفو والرحمة وحسن المعاملة حتى رضيتهم الارض سادة لها وقادة لسكانها وكان من أمرهم وأمره ما هو معلوم .

أفبعد هذا يعجب عاقل اذا رأى المسلم يرضى ما رضيه هذا المرشد الحكيم ويمقت ما مقته ؟ أيدهشه أن يرى المسلم يهزأ بكل ما لم يعتقده سائغا فى دينه وان كان فيه ملك الارض أو ملكوت السموات بعد أن شهد من أثر نعمة الله عليه فى هذا الدين ما شهد ؟ لا عجب فى ذلك فانه نتيجة ضرورية ينسلق اليها الامر بنفسه بحكم سنة الله فى خلقه .

وا أسفا لم يبق للمسلم من الدين إلا هذه الثقة فيه ، أما الدين نفسه فقد انقلب في عقل المسلم وضعه وتغير فى مداركه طبعه وتبدلت فى فهمه حقيقة وانطمست فى نظره طريقته وحق فيه قول على كرم الله وجهه «ان هؤلاء القوم قد لبسوا الدين كما يلبس الفرو مقلوبا » .

لا أبحث الآن فى الاسباب التى وصلت بالدين فى نفس المسلم الى ما ذكرت ، ولكنى أقول ولا أخشى منكراً لما أقول ، قد دخل على المسلم فى دينه ماليس منه وتسرب فى عقائده من حيث لا يشعر مالا يتصل بأصلها

بل ما يهدم قواعدها ويأتى على أساسها .

عرضت البدع فى العقائد والاعمال وحلت محل الاعتقاد الصحيح وأخذت مكان الشرع القويم وظهرت آثارها فى أعماله وعم شؤمها جميع أحواله .

ان صح لفظ الحديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ولم تصح فالقرآن يؤيد معناه وعمل الاولين من المسلمين يحقق صحة ماحواه فالرجل والمرأة سواء فى الخطاب التكليفى ، وكانا سواء فى علم ما يجب عليهما من فرائض الاسلام وخصال الايمان وفى طلب العلم بما يلزم لصلاح معادهما ومعاشهما وبما تحسن به المعاملة مع من يتصل بها قرب أو بعد على تفصيل معروف في كتاب الله وسنة رسوله وعمل الصالحين من بعده حتى لم يبق باب من ابواب العلم الا دخل منه بقدر الاستطاعة وما يسمح به الزمان .

ضل المسلم بعد ذلك فى طلب العلم فظن الرجل ان غاية ما يفرضه الدين منه معرفة الفرائض والوضوء والصلاة والصوم فى صورة ادائها . اما ما يتعلق بسر الاخلاق فيها ووسيلة قبولها عند الله فذلك مما يخطر له ببال إلا القليل النادر . وأما آداب الدين وتهذيب الروح واستكمال الخصال الجليلة مما جعله الاسلام غاية العبادات وثمرة الاعمال الصالحات فهو مع انه اهم علوم الدين مما لاتتوجه اليه عزيمة ولا تنصرف نحوه إرادة . اللهم إلا من اشخاص قلائل منثورين فى اطراف الارض لاترقى بهم امة ولا تسمو بهم كلمة .

اما من ينقطعون لطلب العلوم ليحصلوا جعله منها فقد انقسموا الى فريقين : الاول من يظن انه وارث علوم الدين والقائم بحفظها وقد قل افراده فى معظم البلاد الاسلامية ولم يبق منه الا رسوم لايكاد يدركها نظر الناظر والمشتغلون منهم فى بعض البلاد كمصر والاستانة فانما حظ الذكى منهم ان ينظر فى كتب مخصوصة عينها له الزمان وضعف العرفان ويفهمها بمعنى ان يثق بان هذا اللفظ دال على ذلك المعنى ، ومتى تم له ذلك فقد استكمل العلم سواء سلم عقله ودينه وادبه بعد ذلك ام لم يسلم .

فكان مثله مثل من ورث سلاحا فكان همه ان ينظر إليه ويملأ عينيه منه ولا يمد يده إليه ليستعمله أو يزيل الصدأ عنه فلا يلبث ان يأكله الصدأ ويفسده الخبث . ويزعمون ان الدين يصد عما وراء ماعرفوا من العلوم النافعة . ومن رأى هؤلاء ان لاشأن لهم مع العامة ولا يجب عليهم ان يأمروا بمعروف ولا أن ينهو عن منكر . وقد ارتبكوا بذلك خطا فى فهم دينهم لايساويه فى سوء عاقبته خطا . وللكثير منهم بل للأغلب من سوء الفهم فى الدين مالا حاجة إلى عدة .

ولا يخفى ان مايحصله هذا الفريق من العلم لايظهر له أدنى أثر فى صلاح الأمة كما هو مشهود .

والفريق الثانى من يهيئه أولياؤه لنيل منصب من مناصب الحكومة عال أو سافل . وأفراد هذا الفريق ان كثروا أو قلوا يحصلون مبادئ العلوم المعروفة بالعلوم العصرية ثم يحصل كل واحد منهم مابه ينال المنصب الذى أعده له والده : على ان مايحصل اما لفظ يحفظ أو خيال يخزن والمدار على الوصول الى ورقة الشهادة !

ومن هؤلاء من يذهبون إلى أوروبا لاستكمال التربية فيها ولا غاية لهم سوى هـذه الغاية : فمن أصاب منهم بعد ذلك وظيفة قنع بها وقصر همه على العمل فيها : ومن لم يجد وقف على الابواب ينتظرها فاذا مل الانتظار أو انقضى زمن العمل وجدته فى قهوة او ملهى يسرف في أوقاته ويفسد فى أدواته : والصالحون منهم — وقليل ماهم — لايهمهم شأن العامة شقيت او سعدت هلكت أو قامت . فاى أثر لما تعلمه هؤلاء يظهر في الأمة استثنى منهم شواذا فى كل بلد على ضعفهم يرجى ان ينموا عددهم وتجنى الأمم ثمار أعمالهم . هذا شأن الرجال مع العلم .

أما النساء فقد ضرب بينهن وبين العلم بما يجب عليهن في دينهن أو

دنياهن بستار لايدرى متى يرفع : ولا يخطر بالبال أن يعلمن عقيدة أو يؤدين فريضة سوى الصوم . وما يحافظن عليه من العفة فانما هو بحكم العادة وحارس الحياء أو قليل جدا من موروث الاعتقاد بالحلال والحرام . وحشو أذهانهم الخرافات وملاك أحاديثهن الترهات . اللهم الا قليلا منهن لايستغرق الدقيقة عدهن .

وكل من الرجال والنساء يعد نفسه مسلما يعدها بالجنة ويمنيها بالسعادة.

أخطأ المسلم فى فهم معنى التوكل والقدر فمال إلى الكسل وقعد عن العمل ووكل الأمر إلى الحوادث تصرفه حيثما تهب ريحها ويظن انه بذلك يرضى ربه ويوافى رغائب دينه .

اخطأ المسلم فى فهم ماورد فى دينه من ان المسلمين خير الأمم وان العزة والقوة مقرونتان بدينهم ابد الدهر . فظن ان الخير ملازم لعنوان المسلم وان رفعة الشأن تابعة للفظه وان لم يتحقق شيء من معناه ، وان الله كفيل بنصره بدون عمل للعبد فى الدفاع عنه . فان أصابته مصيبة او حلت به رزية تسلى بالقضاء وانتظر مايأتى به الغيب بدون ان يتخذ وسيلة لدفع الطارئ أو ينهض إلى عمل لتلافى ماعرض من خلل او مدافعة الحادث الجلل مخالفا فى ذلك كتاب الله وسنة نبيه .

اخطأ المسلم في فهم معنى الطاعة لأولى الامر والانقياد لاوامرهم فالقى مقاليده إلى الحاكم ووكل إليه التصرف في شؤونه ثم ادبر عنه حتى ظن ان الحكومة يمكنها القيام بشؤونه جميعها من ادارة وسياسة بدون ان يكون لها منه عون سوى الضريبة التى تفرضها عليه . ومن راى حزن الآباء اذا طلب ابناؤهم لاداء الخدمة العسكرية . وما يبذلونه من السعى فى تخليصهم منها حكم بان مايعقله اكثر المسلمين من معنى الحكومة لايكن انطباقه على شيء من أوليات العقل وعرف أن ثقتهم بالحاكم قد بلغت حد التاله من حيث ظنوه قادراً على كل شيء بدون عون من أحد ، وانقلبت

تلك الثقة إلى الأدبار والتخلي عنهم من حيث انهم تركوه وشأنه لا يساعدونه في حادث ولا يعينونه في أمر مهم ، اللهم إلا إذا رغموا على ذلك . ومن ذا الذي يحسن عملا اذا الجيء اليه بالرغم عنه ؟ ومن هنا انصرف المسلم عن النظر في الأمور العامة جملة وضعف شعوره بحسنها وقبيحها : اللهم الا ما يمس شخصه منها :

أما الحكام — وقد كانوا أقدر الناس على انتشال الأمة مما سقطت فيه — فأصابهم من الجهل بما فرض عليهم في أداء وظائفهم ما أصاب الجمهور الأعظم من العامة . ولم يفهموا من معنى الحكم الا تسخير الابدان لأهوائهم واذلال النفوس لخشونة سلطانهم وابتزاز الأموال لإنفاقها في إرضاء شهواتهم ، لا يرعون في ذلك عدلا ولا يستشيرون كتابا ولا يتبعون سنة حتى أفسدوا أخلاق الكافة بما حملوها على النفاق والكذب والغش والاقتداء بهم في الظلم وما يتبع ذلك من الخصال التي ما فشت في أمة إلا حل بها العذاب .

هذا كله إلى ما حدث من بدع أخرى في مذاهب شتى في العقائد وطرق متخالفة في السلوك وآراء متناقضة في الشرائع وتقليد أعمى في جميع ذلك ، فتفرقت المشارب وتوزعت المنازع وعظم سلطان الهوى على أرباب النزعات المختلفة . كل يجذب إلى نفسه لا ينظر إلى حق ولا يفزع من باطل ، وانما همه ان يظفر بخصمه وذلك الخصم هو ما يدعوه أخا له في الاسلام في معرض التشدق بالكلام .

وزد على ذلك وهذا أكبر بدعة عرضت على نفوس المسلمين في اعتقادهم وهي بدعة اليأس من أنفسهم ودينهم وظنهم ان فساد العامة لا دواء له وان ما نزل بهم من الضر لا كاشف له وانه لا يمر عليهم يوم إلا والثاني شر منه مرض سري في نفوسهم وعلة تمكنت من قلوبهم لتركهم المقطوع به من كتاب ربهم وسنة نبيهم وتعلقهم بما لم يصح من الأخبار أو خطئهم في فهم

ماصح منها وتلك علة من أشد العلل فتكا بالأرواح والعقول وكفى فى شناعتها قوله جل شأنه . « إنه لايأس من روح الله إلا القوم الكافرون . »

تبع هذه البدع جميعها وأخرى يطول ذكرها هزال فى الهمم وضعضعة فى العزائم وتناقض فى الآراء واضطراب فى العقول وفساد فى الأعمال يبتدئ من البيت وينتهى إلى الأمة يمر فى كل طبقة ويجول فى كل دائرة خصوصاً من دوائر الحكومات . وما يرمى به المسلمون من التعصب الدينى الاعمى فانما عرض على أقوام فى بعض البلاد الاسلامية تبعا لهذه البدع الضالة على اننى لا أسلم انهم بلغوا فيه أدنى درجاته فى الأمم المسيحية شرقية كانت أو غربية والتاريخ شاهد لايكذب .

هذا ما أصاب المسلمين فى عقولهم وعزائمهم وأعمالهم بسبب ابتداعهم فى دينهم وخطئهم فى أصوله وجهله بأدنى أبوابه وفصوله . لهذا سلط الله عليهم من يسلبهم نعمة لم يقوموا بشكرها وينزل بهم من عقوبة الكفران ما قبل لهم بدفعه إلا إذا تداركهم بلطفه . وقد ابتلاهم بمن يلصق بدينهم كل عيب ويقرنه إذا ذكره بما يتبرأ منه ويُبعِدهُ حجابا بين الأمم والمدنية بل يُبعده منبع شقائهم وسبب فنائهم .

تنبه لذلك افراد من عقلاء المسلمين فى اواسط القرن الماضى من سنى الهجرة فى اقطار مختلفة من بلاد فارس والهند وبلاد العرب ثم فى مصر ، وكل منهم بحث في الداء وقدّر له الدواء بحسب فهمه على تقارب بينهم ولعلهم يلتقون يوما من الايام عند الغاية ان شاء الله .

مقصد الجميع ينحصر فى استعمال ثقة المسلم بدينه في تقويم شؤونه . ويمكن ان يقال ان الغرض الذى يرمى إليه جميعهم انما هو تصحيح الاعتقاد وإزالة ماطرأ عليه من الخطأ فى فهم نصوص الدين ، حتى إذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الاعمال من الخلل والاضطراب واستقامت احوال

الافراد واستنارت بصائرهم بالعلوم الحقيقية دينية ودنيوية وتهذيب اخلاقهم بالملكات السليمة وسرى الصلاح منهم الى الامة

فاذا سمعت داعيا يدعوا الى العلم بالدين فهذا مقصده أو مناديا بحث على التربية الدينية فهذاغرضه ، أو صائحا ينكر ماعليه المسلمون من المفاسد فتلك غايته .

وهذه سبيل لمريد الاصلاح فى المسلمين لامندوحة عنها ، فان إثباتهم من طرق الادب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه الى إنشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شيء ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا .

واذا كان الدين كافلا بتهذيب الاخلاق وصلاح الاعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ولاهله من الثقة به ما بيناه وهو حاضر لديهم والعناء فى ارجاعهم اليه أخف من احداث مالا الملم لهم به ، فلم العدول عنه الى غيره ؟

لم يخطر ببال أحد ممن يدعو الى الرجعة الى الدين سواء فى مصر أوغيرها أن يثير فتنة على الاوربيين أو غيرهم من الامم المجاورة للمسلمين ، غير أن بعض المسيحيين اذ سمع قولا فى الدين أعرض عن فهمه وأنشأ لنفسه غولا من خياله وأخذ يخاف منه ولا يخشى غائلته ثم يسميه باسم الدين ، وبعضهم يظن انه لو انتبه المسلمون الى شئونهم ورجعوا الى الاخذ بالصحيح من دينهم لاعتصموا بجامعتهم واستعانوا على تقويم أمورهم بأنفسهم واستغنوا عمن أدخلوه فى أعمالهم من غيرهم فيحرم الكثير من المسيحيين تلك المنافع التى نالوها بغفلتهم وهو سوء ظن من الزاعم بنفسه فانه يظنه هذا يعتقد انه غاش مغرر وسالب متلصص ، وسوء ظن بالمسلمين أيضافان أهل الوطن الواحد لا يستغنى بعضهم عن بعض مهما ارتقت معارفهم وعظم اقتدارهم على الاعمال ، وغاية الامر ان ما كان ينال اليوم بدون حق يصبح وهو لاينال الا بحق ، والاجنبى الذى كان ينفق الواحد ويربح المائة يرجع الى الاعتدال

فى الكسب ويحتاج الى شيء من التعب فى استدرار الربح .

وقد كان المسيحيون عاملين فى الدول الاسلامية وهى فى عنفوان قوتها والاجانب يطلبون الكسب فى أرجائها وهى فى أرفع مقام من عزتها .

نعم يعرض فى طريق الدعوة الى الدين هذا الوجه أن يلتمس مسلم بمصر معونة من مسلم بسوريا أو بالهند أو بالعجم او بأفغانستان او بغير هذه الاقطار لأن مرض الجميع واحد وهو البدعة فى الدين . فاذا نجح الدواء فى موضع كان السليم اسوة للمريض فى موضع آخر ، اما السعى في توحيد كلمة المسلمين وهم كما هم فلم يمر بعقل احد منهم ، ولو دعا اليه داع لكان اجدر به ان يرسل الى مستشفى المجانين .

يكثر بعض ارباب الاقلام من المسلمين في حكمة الحج ويقول انه صلة بين المسلمين فى جميع اقطار الارض ومن افضل الوسائل للتعارف بينهم فعليهم ان يستفيدوا منه ، وهو كلام حق ، لكن لا ينبغى ان يفهم على غير وجهه فان الغرض منه ان يذكر المسلمون ما بينهم من جامعة الدين حتى يستعين بعضهم ببعض على اصلاح ما فسد من عقائدهم او اختل من اعمالهم وفي مدافعة ماينزل بهم من قحط اوظلم اوبلاء : وهذا امر معهود عند جميع الامم التى تدين بدين واحد خصوصا عند الاوربيين .

يكثر المسلمون اليوم من ذكر الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد ويعلقون آمالهم بهمته وكثير منهم يدعو الى عقد الولاء له ، وهذا امر لا ينبغى ان يدهش احدا فان هذه الدولة هى اكبر دول الاسلام اليوم وسلطانها اعظم سلاطينهم ومنه يرتجى انقاذ ما بين يديه من المسلمين مما حل بهم ، وهو اقدر الناس على اصلاح شئونهم وعلى مساعدة الداعين الى تمحيص العقائد وتهذيب الاخلاق بالرجوع الى اصول الدين الطاهرة النقية :

فاى شيء في هذا يزعج اوربا حتى تتحد على هضم حقوق المسلمين اذا حدثت مثل الحوادث الماضية كما يقوله مسيو هانوتو ؟

بقى الكلام فى جمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد ، يقول فيه مسيو هانوتو ان أوروبا لم تتقدم إلا بعد أن فصلت السلطة الدينية عن السلطة المدنية . وهو كلام صحيح ، ولكن لم يدر مامعنى جمع السلطتين فى شخص عند المسلمين .

لم يعرف المسلمون فى عصر من الأعصر تلك السلطة الدينية التى كانت للبابا على الأمم المسيحية عند ما كان يعزل الملوك ويحرم الامراء ويقرر الضرائب على الممالك ويضع لها القوانين الالهية .

وقد قررت الشريعة الاسلامية حقوقا للحاكم الاعلى وهو الخليفة أو السلطان ليست للقاضى صاحب السلطة الدينية . وإنما السلطان مدير البلاد بالسياسة الداخلية والمدافع عنها بالحرب أو السياسة الخارجية : وأهل الدين قائمون بوظائفهم وليس له عليهم إلا التولية والعزل ولا لهم عليه إلا تنفيذ الاحكام بعد الحكم ورفع المظالم ان أمكن .

وهذه الدولة العثمانية قد وضعت فى بلادها قوانين مدنية وشرعت نظاما لطريقة الحكم وعدد الحاكمين وملهم وسمحت بأن يكون فى محاكمها أعضاء من المسيحيين وغيرهم من الملل التى تحت رعايتها .

وكذلك حكومة مصر أنشئت فيها محاكم مختلطة ومحاكم أهلية بأمر الحاكم السياسى وشأن هذه المحاكم وقوانينها معلوم ولا دخل لشىء من ذلك فى الدين : فالسلطة المدنية . هي صاحبة الكلمة الاولى كما يطلب مسيو هانوتو ، ولكن مع ذلك لم يظهر نفعها فى صلاح حال المسلمين بل كان الامر معكوسا . أمراءنا السابقين لو اعتبروا أنفسهم أمراء الدين لما استطاعوا المجاهرة بمخالفته فى ارتكاب المظالم والمغالاة فى وضع المغارم والمبالغة فى التبذير الذى جر الويل على بلاد المسلمين وأعدمها أعز شىء كان لديها وهو الاستقلال .

ان فرنسا تسمى نفسها حامية الكاثوليك فى المشرق ، وملكة انكلترا تلقب نفسها بملكة البروتستانت ، وقيصر الروسيا ملك ورئيس كنيسة

معاً : فلم لا يسمح للسلطان عبد الحميد أن يلقب بخليفة المسلمين أو أمير المؤمنين!

لا أظن ان مسيو هانوتو يسيء الظن بدعوة دينية على الوجه الذى بيناه ، وأظنه يكون عونا للمسلمين على تعضيدها فى البلاد الاسلامية الفرنساوية اذا وجد فيها من يقوم بها . وانا اضمن له بعد ذلك أن تتفق مصالح المسلمين مع مصالح الفرنساويين . فان المسلمين اذا تهذبت أخلاقهم بالدين سابقوا الاوروبيين فى اكتساب العلوم وتحصيل المعارف ولحقوا بهم فى التمدن وعند ذلك يسهل الاتفاق معهم ان شاء الله .

٣

سوء ظن المسلمين بسياسة أوروبا كلها . وعدم ثقة سياسيهم بدولة من الدول واعتقاد المسلمين بأن مصلحة أوروبا المسيحية تخالف مصلحتهم الاسلامية وعدم اطمئنانهم إلى سياسة الدول المسيحية حتى ادى بهم فقدان الثقة بالمسيحيين إلى أن لا يتمنوا مسيحيا عثمانيا ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم [1]

سمع بذلك كله إلى مسيو هانوتو من صاحب الجريدة المعروفة ومن بعض العثمانيين فى الاستانة وباريس ثم اخذ يبرهن على ان سياسة اوروبا اقتصادية ملكية لادينية لاهوتية .

لا ادرى من هم المسلمون الذين وصفهم مسيو هانوتو ومن بلغه اخبارهم. اهم الهنود — وهم في حكم دولة اجنبية ولا تزال نرى في خطبهم وجرائدهم مايدل على طاعتهم لحكامهم وتعليقهم الآمال بعدلهم والتماسهم الحق من طرقه

هل هم مسلمو الروسيا — وثقتهم بحكومتهم وثقة حكومتهم بهم لا تخفى على احد حتى ان دولة الروسيا تفضلهم على المسيحيين من غير المذهب الارثذكسى .

---

(١) المؤيد في يوم السبت غرة ربيع الثانى سنة ١٣١٨ (٢٨ يوليو سنة ١٩٠٠) عدد ٣١٢٢

هل هم الافغانيون — واخلاص أميرهم فى مصافاة الانكليز اشهر من أن تذكر ولا ينفى اخلاصه حرصه على بلاده ومحافظته على مصلحتها .

هل هم الفرس — واستنامتهم إلى السياسة الروسية لايجهلها أحد .

هل هم المراكشيون — وهم بمعزل عن كل ما يسمى سياسة بل هم في غفلة عن الدين والدنيا جميعا ، شغل بعضهم ببعض فلا ينفكون يتقاتلون ويتسالبون حتى يقضى الله فيهم بقضائه .

هل هم التونسيون — وقد أثنى عليهم مسيو هانوتو بما هم أهله وثبت له ارتياحهم الى السلطة الفرنساوية بمجرد ما اطلقت لهم الحرية الدينية .

لعله لم يقصد الا العثمانيين كما يدل عليه بقية كلامه وكما يفيده قوله « ان لايأتمنو مسيحيا عثمانيا » والعثمانيون منهم المصريون ومنهم غيرهم .

فاما المصريون فلا شيء عندهم يدل على عدم الثقة بالاوربيين وبالمسيحيين العثمانيين فانهم يشاركون فى العمل مواطنيهم من الاقباط فى جميع مصالح الحكومة ماعدا المحاكم الشرعية الخاصة بالمسلمين وهم معهم على غاية الوفاق خصوصا أهل الاخلاص وسلامة النية منهم . ولكل من الفريقين اصدقاء واحبة فى الفريق الآخر ، ثم شأنهم هو ذلك الشأن مع سائر الطوائف المسيحية إلا من ظهر منهم بالتعصب الدينى البارد وآذاهم فى دينهم أو فى منافعهم الخاصة بهم لا لشيء سوى التعصب الاعمى .

ولا نطلب على ذلك شاهداً أقرب من صاحب الجريدة الذى يحادثه مسيو هانوتو ، فانه بعد ان كان على المسلمين أثناء الحرب الروسية العثمانية وبعد أن أتى ما أتى عقب الحوادث العرابية شهد المسلمون بانه صديقهم والساعى في غيرهم كما افتخر بذلك مرارا فى جريدته وان كانت له اليهم هنات لاتزال تبدو من فيه الى وقت ذلك الحديث فأين فقد هذه الثقة بالعثمانيين المسيحيين فى مصر ؟ هل طرد أحد من خدمة الحكومة لانه مسيحى ؟ عثمانى ؟ هل حرم أحد حق المحاماة وأنشأ الجرائد أو المطابع أو اقامة المصانع

او تاسيس البيوت التجارية لانه مسيحى عثمانى ؟ فليأت صاحبنا بشاهد واحد .

أما حالهم مع الاوربيين فانا نراهم اذا حسوا بعدل من انجليزى ذكروه أو وصل اليهم معروف من أى عامل أوربى شكروه ، بل أزيدك على هذا أن المستغيث منهم بالحكومة يطلب منها أن يتولى تحقيق مظلمته انكليزى كما شوهد ذلك كثيراً فى شكاياتهم ، وليس بقليل من يعرف شكواه على جناب اللورد كرومر وهو ليس بحاكم رسمى ، فأى دليل على الثقة اكثر من هذا

ليس بقليل فى مصر من يثق بالفرنساويين ومن له بينهم أصدقاء يركن اليهم ويعتد بولائهم ، ومسيو هانوتو وصاحب الجريدة الذى يحادثه يعرفان ذلك

كثيراً ما أغرى الاوربيون من الفرنساويين وأمريكيين من أرباب المدارس في مصر شبانا من المسلمين بالمروق من دينهم والدخول فى الديانة المسيحية وفروا ببغضهم من القطر المصرى الى البلاد الاجنبية وأحرقوا بذلك كبد والديه ، ومع ذلك لاتزال نرى المسلمين يرسلون أولادهم الى مدارسهم وناظر المعارف عندنا وزير مسلم وأولاده يتربون في مدارس الجوزيت ، وكثير من أبناء الاعيان المسلمين فى مدارس الفرير ، فاى ائتمان يفوق هذا الائتمان .

زادت ثقة المصريين من المسلمين بالاوربيين خصوصا فى المعاملات حتى أساء أولئك الاوربيون استعمالها وانتهزوا فرصتها وسلقوا كثيراً من أهل الثروة ما كان بايديهم ومع ذلك فهم لا يزالون يامنون ويغالون فى الاستانة اليهم ويقلدونهم حتى فيما يخالف دينهم وعوائدهم ، فماذا يطلب من الثقة فوق هذا

هل يشكو عقلاء المسلمين في مصر من شىء مثل ما يشكون من الثقة العمياء بالاجنبى من غير تمييز فيما هو عليه من اخلاص أو غش ، من صدق او كذب ، من أمانة أو خيانة ، من قناعة أو طمع حتى آل الامر بالناس الى ما آلوا اليه من خسارة المال وسوء الحال

فهل هذا هو فقد الثقة بالاوربيين والعثمانيين المسيحيين الذى يعينه

حضرة صاحب الجريدة وجناب مسيو هانوتو

وأما العثمانيين من غير المصريين فاذا ارتقينا الى الدولة وسلطاننا أيده الله وجدنا أن نظام الدولة قاض باستعمال المسيحيين فى اداراتها ومحاكمها فى كل بلد فيه مسيحيون . والمأمورون من المسيحيين ينالون من النياشين والرتب ماينالهالمسلمين على نسبة عددهم أو فوق ذلك : وكثير من المسيحيين نالوا من الامتيازات والمنافع في الدولة ما لم ينله مسلم ، وسفارات الدولة ومناصبها العالية لا تخلو من المسيحيين .

اقبال السلطان على رؤساء الطوائف المسيحية والعامة عليهم بوسامات الشرف واختصاصه لبعضهم بشرف المثول فى حضرته والاحسان اليه برقيق المخاطبة لا تنقطع ذكره من الجرائد .

صاحب الجريدة التى نقلت الحديث أمثل شاهد على مثل ذلك ، فقد جاهر زمناليس بالقصير بما لاترضى الدولة بمثله ولابأقل منه من مسلم ثم سهل عليه وهو مسيحى أن يكون موضع ثقة للجناب السلطانى حتى أدناه منه وقبله فى مجلسه وسمع منه أمير المؤمنين تلك النصيحة المفيدة التى نشرها فى جريدته من نحو شهرين اثر هبوبه لنصرة مسيو هانوتو ثم والى عليه احسانه بالرتب والنياشين وغيرها ، فما هى الثقة ان كان هذا فقدانها .

أما سياسة الدولة الخارجية فالفرنساويون يشكون من مصافاة السلطان وثقته بدولة المانيا وهي دولة مسيحية ، ولا أظنهم يشكون من ثقة أخرى بدولة اسلامية ، وكانت للدولة ثقة لا تنزعزع بالسياسة الانجليزية ثم حدثت حوادث أهمها نشأ من ضعف سياسة مستر غلادستون فاعقبها اضطراب في تلك الثقة مدة من الزمان بحكم الضرورة ثم انا نراها اليوم تتراجع ، وفى رجال الدولة من لهم ثقة بصداقة روسيا ويودون لو مالت اليها سياسة الدولة وهم مسلمون .

والذى أحب أن يعرفه مسيو هانوتو أن سياسة الدولة العثمانية مع الدول الاوربية ليست بسياسة دينية ولم تكن فقط دينية من يوم نشاتها الى اليوم ، وانما كانت فى سابق الايام دولة فتح وغلبة وفى أخريا تها دولة سياسية ومدافعة ولا دخل للدين في شيء فى معاملاتها مع الامم الاوروبية :

امبراطور المانيا جاء الى سوريا للاحتفال بفتح كنيسة فبالغ السلطان فى الاحتفال به الى الحد الذى اشتهر وبهر .

يجيء الامراء المسيحيون من الاوربيون الى الاستانة فيلاقون من الاحتفال مالا يلاقونه فى بلاد مسيحية وينفق في تعظيم شأنهم من المال ما المسلمون فى حاجة اليه ، أليس ذلك لمجاملتهم واكتساب مودتهم ؟ وهل بعد المودة إلا الثقة بصاحب المودة ؟

كان يمكن للسلطان أن يكتفى بالرسميات ولا يزيد عليها ، ولكن عهد فى معاملته ما يفوق الرسمى بدرجات ، فان سلمنا أن سياسة أوربا ليست بدينية من جميع وجوهها فسياسة الدولة العثمانية مع أوربا هي كذلك ومسلموها تبع لها .

فان قال قائل أن حوادث الارمن لم تزل فى ذاكرة أهل الوقت وينسبون وقائعها الى التعصب الدينى بل يقولون أن أسبابها مظالم جر إليها ذلك التعصب الدينى ، أمكن أن يجاب بان العداوة مع طائفة مخصوصة لا تدل على فقد الثقة بكل مسيحى منها ومن غيرها ، ومع ذلك فان كثيراً من الارمن في خدمة الى اليوم وهم بذلك موضع ثقتها ، وهذا وذاك يدل على الريب فيما يزعمون من أن منشا تلك الوقائع التعصب الدينى فان المسيحيين سواهم فى الممالك العثمانية أنعم حالا من المسلمين كما شاهدناه بأنفسنا .

ولو انصف الاوربيون لامكنهم فهم أسباب هذا الاضطراب الذى يظهر زمنا بعد زمن فى تلك الاقطار ولسهل عليهم أن يعرفوا أن منبعه فى أوربا لا فى آسيا .

لا يغث على أن أقول أن المسيحيين في الممالك العثمانية متمتعون بنوع

من الحرية فى التعليم والتربية وسائر وجوه الخير يتمنى المسلمون أن يساووهم فيه : فهل هذا عنوان سوء الظن بالمسيحيين أو عدم الثقة بهم ؟

لا يليق بكاتب مثل صاحب تلك الجريدة أن يروى عن المسلمين كافة مثل ما رواه : فان ذلك مما يحزن المسلمين والمسيحيين جميعا ، وانى أعتقد أنه عند الكلام على المسلمين لم يكن فى ذهنه الا بعض أشخاص لم تعجبه آراؤهم فيه فاستحضر فى صورهم جميع المسلمين وسياسييهم

ليعلم مسيو هانوتو أن جميع مايقال له أو يكتبه بعض العثمانيين لاحقيقة له الا فى ذهن القائل . أو الكاتب فلا ينبغى أن يعول على مثله فى أحكامه وعليه أن يحقق الامر بنفسه ان كان يهمه أن يتكلم فيه

وأما ان المسلمين أخذوا عليه فيما كتب عن الاسلام مع أنه خدمهم وقوله « فكيف بحالهم مع من لم يخدمهم » فتبين له الوجه فيه ليزول عنه ما سبق الى فهمه .

لواقتصر على الكلام فى السياسة وبحث فى علاقة المسلمين مع حكومته ولم يسط على الدين نفسه فى أصلين من أهم أصوله لما أخذ عليه أحد الا من ينتقد رأيه من جهة ماهو صحيح أو غير صحيح . ولكنه لم يكتف بذلك وطعن فى عقيدة التوحيد وبين رداءة أثرها فى المسلمين واستل سلاحه على عقيدة القدر وبين سوء ما جرت اليهم فيهم ، وهو بذلك يثبت أن المسلمين لا يزالون منحطين ما داموا مسلمين وهو ما لا يرضاه أحد منهم .

لو مال على المسلمين فيما هم عليه اليوم وفى انحرافهم عن أصول دينهم واكتفى بتعنيفهم على اهمالهم لشؤونهم وغفلتهم عن مصلحتهم كما جاء فى حديثه الذى نحن بصدده لما وجد من المسلمين الا معتبرا بقوله متعظا بنصيحته والسلام . اهـ

دين الاسلام

اذا نظرنا فيما بين أيدينا من الاديان وجدنا دين الاسلام قد أقيم على أساس من الحكمة متين ورفع بناؤه على ركن لسعادة البشر ركين . ذلك أن عروج الامم على معارج الحق الأعلى وتدرج الشعوب فى مدارج العلم الاجلى وصعود الاجيال على مراقى الفضائل واشراف طوائف الانسان على دقائق الحقائق ونيلهم للسعادة الحقيقية في الدارين — كل ذلك مشروط بأمور لا يتم الا بها .

الامور التى تتم بها سعادة الامم

الاول — صفاء القلوب من كدر الخرافات وصدإ الاوهام . فان عقيدة وهمية لو تدنس بها العقل لقامت حجابا كثيفا يحول بينه وبين حقيقة الواقع ويمنعه من كشف نفس الامر ، بل ان خرافة قد تقف بالعقل عن الحركة الفكرية وتدعوه بعد ذلك أن يحمل المثل على مثله فيسهل عليه قبول كل وهم وتصديق كل ظن وهذا مما يوجب بعده عن الكمال ويضرب له دون الحقائق ستاراً لا يخرق وفوق ذلك ما تجلبه الاوهام على النفوس من الوحشة وقرب الدهشة والخوف مما لا يخيف والفزع مما لا يفزع ترى الواهم المسكين يقضى حياته بين رجفة واضطراب يتطير من طيران الطيور وحركات البهائم ويضطرب من هبوب الرياح وينزعج لقصف الرعد والتماع البرق ويسلك به الوهم طرق الخيفة مما لا أثر له فى الاخافة وبهذا يسجل عليه الحرمان من أغلب أسباب السعادة ثم يكون العوبة فى أيدى المحتالين وصيداً فى حبائل الماكرين والدجالين :

وأول ركن بنى عليه الدين الاسلامى صقل العقول بصقال التوحيد وتطهيرها من لوث الأوهام : فمن أهم أصوله الاعتقاد بأن الله منفرد بتصريف الاكوان ، متوحد فى خلق الفواعل والافعال وان من الواجب

طرح كل ظن في انسان أو جماد علويا كان أو سفليا بان له فى الكون أثراً بنفع أو ضر أو اعطاء أو منع أو اعزاز أو اذلال . ومن المفروض خلع كل عقيدة بأن الله جل شانه ظهر أويظهر بلباس البشر أوحيوان آخر لصلاح أو فساد ، أو أن تلك الذات المقدسة نالت فى بعض أطوارها شديد الآلام وأليم الاسقام لمصلحة أحد من الخلق فضلا عما يحف بذلك من خرافات كل واحدة منها كافية في أعماء شعقول وطمس نورها .

وأغلب الأديان الموجودة لا يخلو من هذه الاوهام : ان شئت فاضرب بنظرك إلى ديانة « برهما » فى الهندودين « بوذه » فى الصين ودين « زرادشت » فى بقايا الفارسيين وكثير من أديان أخر

الامر الثانى — أن تكون نفوس الامم مستقلة وجهة الشرف طامحة إلى بلوغ الغاية منه بأن يجد كل واحد من نفسه أنه لائق بأية مرتبة من مراتب الكمال الانسانى ماعدا رتبة النبوة فانها بمعزل عن المطمع وانما يختص الله بها من شاء من عباده ، ولا يذهب وهم أحد من الامة إلى أنه ناقص الفطرة منحط المنزلة فاقد الاستعداد لشيء من الكمالات . فاذا أخذت نفوس الناس حظها من هذه الصفة اعنى الاقبال على وجوه الشرف تسابق كل مع الآخر فى مجالات الفضائل وتمادت بهم المجاراة إلى محاسن الاعمال فبلغ كل واحد ما أتى عليه سعيه من عاليات الامور وشرائف المراتب ولو أن قوما أساءوا الظن بأنفسهم واعتقدوا أن نصيبهم من الفطرة نقص الاستعداد وخيبة المنزلة وأن لاسبيل لهم إلى الوقوف فى مصاف غيرهم من طبقات الناس فلا ريب يسقط من همهم على مقدار ماظنوا فى أنفسهم وبذلك يتولى النقص أعمالهم ويملك الخمود عقولهم فيحرمون معظم الكمالات البشرية وينقطعون دون كثير من مقامات الشرف الدنيوية وتكون جولتهم فى دائرة ضنكة محيطها دون ما ظنوا بأنفسهم

إن دين الاسلام فتح أبواب الشرف فى وجوه الأنفس وكشف لها

عن غايته وأثبت لكل نفس صريح الحق في أى فضيلة وانبأ كل ذى نطق بوفرة استعداده لأى منزل من منازل الكرامة ومحق امتياز الاجناس وتفاضل الاصناف وقرر المزايا البشرية على قاعدة الكمال العقلى والنفسى لاغير : فالناس انما يتفاضلون بالعقل والفضيلة . وقد لانجد من الأديان ما بجميع أطراف هذه القاعدة . فلديك دين « برهما » قسم الناس إلى أربعة أقسام : أحدها « برهمن » وثانيها « جهترى » وثالثها « ويش » ورابعها « شودر » وقرر لكل منزلة من كمال الفطرة لا يجاوزها فاعلى منازيل الكمال للبرهمن ، ويليها منزلة الجهترى والصنف الرابع اخسها وادناها فى جميع المزايا الانسانية . وكان هذا التقسيم سببا فى انحطاط المتدينين بهذا الدين وقصور خطاهم عن الرقى فى مدارج المدنية وانحسار أفكارهم دون الوصول إلى مايطلبه استعدادهم من المعارف الصحيحة والعلوم الحقة مع انهم اقدم الامم واسبقها نظرا في الكون وشؤنه . ومن الأديان ما يغلب اليوم على أمم من البشر وفى اصوله تفضيل شعب خاص على بقية الشعوب كشعب اسرائيل مثلا وكتابه المعروف يخاطب ابناء ذلك الشعب بالكرامة والاجلال ويذكر غيرهم بالتحقير والاهانة . نعم جاء رؤساء ذلك الدين وانسلوا من هذا الحكم واغفل فيما بينهم حتى كأنه لم يكن من دينهم إلا ان ماسلبوه من الكرامة عن غيرهم انتحلوه لأنفسهم فارتفع امتياز الجنسية من بين اهل الدين وخلفه امتياز الصنفية فسمت منزلة الرؤساء الروحانيين فى قلوب الآخذين بدينهم حتى صار من عقائدهم ان صنفا من الناس على منزلة القرب إلى الله بحيث لايرد الله له طلبه ثم هو الحجاب بين الله وبين سائر الاصناف لايقبل الله من احد صرفا ولا عدلا ولا يعدله بايمان ولا يغفر له ذنبا بتوبة حتى يتوسط له اهل طبقة الرئاسة . فعندهم ان كل نفس وان بلغت من الكمال ما بلغت ليس فيها ما يؤهلها لعرض ذنوبها على أبواب العفو الالهى ولا أن ترفع اليه طلب المغفرة لخطيئاتها ، بل لابد فى قبول ذلك

منها ان يكون بواسطة الرئيس الدينى ، ومن آمن بالله وصدق به وأخذ باحكامه لاينظر الله لايمانه حتى ينظر اليه الرئيس الدينى ويعتده إيمانا . واستندوا فى هذه العقائد على نصوص من كتابهم تفيدان ما يحلونه فى لارض يكون محلولا فى السماء وما يعقدونه فى الارض يعقد فى السماء . وقد جلبت هذه العقيدة على أهل هذا الدين شقاء طويلا والقت بهم في جهالة عمياء وذلة خرساء زمنا مديداً حتى ظهر فيهم مجددون نقضوا ذلك العقد وخالفوا فيه ما اشتهر من نصوص الكتاب وقلدوا فى ذلك الدين الاسلامى وسموا مذهبهم مذهب الاصلاح ونشروه فى ممالك متعددة فلم يلبث قومهم بعد ذلك أن تكشف عنهم جهالات وحلت من أعناقهم ربق ونهضوا من حضيض ذاته إلى ذروة رفعة فنطقوا بعد ما صمتوا وعلموا بعد ما جهلوا وحكموا بعد ما حكموا وسادوا بعد ما سيدوا

الامر الثالث — أن تكون عقائد الامة — وهى أول رقم ينقش فى ألواح نفوسها — مبنية على البراهين القويمة والادلة الصحيحة ، وأن تتحامى عقولهم مطالعة الظنون فى عقائدها وترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء فيها فان معتقداً لاحت العقيدة فى مخيلته بلا دليل ولا حجة قد لايكون موقنا فلا يكون مؤمنا . هذه والآخذ فى عقائده بالظن ينصب عقله على متابعة الظنون والقانع بان آباءه كانوا على مثل عقيدته فاولى به أن يكون عليها يلتقى مع سابقه في مضارب الوهم ومجاج الظن . وأولئك المتبعون للظن القانعون بالتقليد تقف بهم عقولهم عند ما تعودت ادراكه فلايذهبون مذاهب الفكر ولا يسلكون طرائق النظر . واذا استمر بهم ذلك تغشتهم الغباوة بالتدريج ثم تكاثفت عليهم البلادة حتى تعطل عقولهم من أداء وظائفها العقلية بالمرة فيدركها العجز عن تمييز الغير من الشر فيحيط بهم الشقاء ويتعثر بهم البخت وبئس المآل ما آلهم .

فان كان لابد من الاستئناس لما نقول بقول أوربى فهذا (كيزو)

الفرنسوى صاحب تاريخ (سيفليز اسيون) أى التمدن الأوربى قال : إن من أشد الاسباب أثراً فى سوق أوروبا إلى تمدنها ظهور طائفة فى تلك البلاد قالت إن لنا حقا فى البحث عن أصول عقائدنا وطلب البرهان عليها — ولو كان ديننا هو الدين المسيحى — وعارضها كثير من رؤساء الدين ومنعوها ما ادعت من الحق محتجين عليها بان بناء الدين على التقليد . فلما أخذت تلك الطائفة قوتها وانتشرت أفكارها نصلت عقول الاوروبيين من علة الغباوة والبلاد ثم تحركت فى مداراتها الفكرية وترددت فى المجاملات العلمية وكدحت لاستحصال أسباب اصحاب المدنية

إن الدين الاسلامى يكاد يكون منفردا من بين الاديان بتفريع المعتقدين بلا دليل ولا توبيخ المتبعين للظنون وتبكيت الخابطين فى عشواء العماية والقدح فى سيرتهم . هذا الدين يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان فى أصول دينهم وكلما خاطب خاطب العقل وكلما حاكم حاكم إلى العقل . تنطق نصوصه بان السعادة من نتائج العقل والبصيرة وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة واهمال العقل وانطفاء نور البصيرة ويرفع أركان الحجة لاصول من العقائد كل منها ينفع العامة ويفيد الخاصة وكلما جاء بحكم شرعى أتبعه ببيان الغاية منه فى الاغلب « راجع القرآن الشريف »

وقلما يوجد من الاديان ما يساريه أو يقاربه فى هذه المزية ، واظن غير المسلمين يعترفون لهذا الدين بهذه الخاصة الجليلة . ومن الاديان الظاهرة ما بنى أعظم اركانه على أصل الكثرة فى الواحد أو الواحدة فى الكثير وان الواحد يكون اكثر والكثير يكون واحد مما تنبذه بداهة العقل . فلما انكر العقل أصل هذا اجمع اهل الدين على انه فوق نظر العقل فلا ينال الفكر دركه لا بالكنه ولا بالوجه ولا يهتدى لدليل عليه ولا مرشد اليه . يريدون انه لابد من تنكب طريق العقل ونبذ احكامه حتى يمكن الايمان بهذا الاصل مع ان العقل مشرق الايمان فمن تحول عنه فقد دابر الايمان

وإن فرقا بين مالا يصل العقل إلى كنهه لكنه يعرفه باثره وبين ما يحكم العقل باستحالته . فالاول معروف عند العقل يقر بوجوده ويقف دون سرادقات عزته ، أما الثانى فمطروح من نظره ساقط من اعتباره لايتعلق به عقد من عقوده ، فكيف يصدق به وهو قاطع بعدمه أما أصول دين (برهما) فمن البين لكل ناظر فيها أن أغلبها مخالف لصريح العقل وذلك من جليات المسائل سواء اعترف أهل هذا الدين بثبوته أو كابروا بانكاره

الامر الرابع — أن يكون فى كل أمة طائفة يختص عملها بتعليم سائر الأمة لاينون فى تنوير عقولهم بالمعارف الحقة وتحليتها بالعلوم الصافية ولا يألون جهداً فى تبيين طرق السعادة لهم والسلوك بهم فى جوادها . ثم طائفة أخرى تقوم على النفوس تتولى تهذيبها وتثقيف أودها وتكشف عن الاوصاف الفاضلة وحدودها وتمثل للمدارك فوائدها ومحاسن غاياتها وتفضح مستور الرذائل وتشق الحجاب عن مضارها وسوء منقلب المتدنسين بها وتشتد فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لا تلهيها عنهما غفلة ولا ترددها عنهما صعوبة .

وذلك أن بداهة العقل حاكمة بأن جل المعارف البشرية والعقائد الدينية مكتسبة . فان لم يكن في الناس معلم قصرت العقول عن درك ما ينبغى لها دركه وانقطعت دون الكفاية مما يلزم لسد ضرورات الحياة الاولى والاستعداد لما يكون فى الاخرى وساوى الانسان فى معيشته سائر الحيوانات وحرم سعادة الدارين وفارق هذه الدنيا على أتعس الاحوال . فاذن من الواجب الدينى اقامة معلم : والشهوات النفيسة ليس لها من ذاتها حد تقف عنده ولا لرغائب الانفس غاية تنقطع عندها ، فان فقد من بين الناس مقوم ومعدل الاخلاق طغى سلطان الشهوة واندفع الى الحيف والاجحاف . ومن طغت بهم شهوتهم سلبوا راحة غيرهم وهتكوا ستر امنهم ثم هم لاينفلتون من غائلة أعمالهم بل يحترقون بنيران شهواتهم فيرافقون للدنيا على عناء

ويفارقونها إلى شقاء ، فاذن لابد من الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر القائم بتقويم الاخلاق وإن من أهم الاركان الدينية فى الديانة الاسلامية هاتين الفريضتين . نصب المعلم ليؤدى عمل التعليم ، وإقامة المؤدب الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر (راجع القرآن الشريف) — « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وغير هذه الآية آيات كثيرة . « فلولا نفر من كل فرقة منكم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » وسواها آيات . وقد برز دين الاسلام على غالب الاديان فى العناية بهذين الامرين .

وحيث كانت أركان الدين الاسلامى بالغة حد الكثرة فلو أخذت فى بيان ما يفيده كل ركن منها فى تقويم المدنية وتشييد بناء النظام الانسانى وإقامة الدليل على أن كل أصل من أصول هذا الدين عنصر لحياة السعادة الانسانية لخرجت عن القصد من هذه الرسالة

ولهذا أخذت أن أضع رسالة تختص بذلك الغرض أبين فيها أن المدنية الفاضلة التى بات الحكماء على حسرة من فقدها لا تحتط فى العالم الانسانى إلا بالدين الاسلامى .

فان قال قائل إن كانت الديانة الاسلامية على ما بينت فما بال المسلمين على ما نرى من الحال السيئة والشأن المحزن ، فجوابه أن المسلمين كانوا كما كانوا ويلغوا بدينهم ما بلغوا والعالم يشهد بفضلهم . واكتفى الآن من القول بهذا النص الشريف : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » :

الدين الاسلامى أو الاسلام[1]

هو الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وعقله من وعاه عنه من صحابته ومن عاصرهم وجرى العمل عليه حينا من الزمن بينهم بلا خلاف ولا اعتساف في التأويل ولا ميل مع الشيع وانى مجمله فى هذا الباب مقتديا بالكتاب المجيد فى التفويض لذوى البصائر أن يفصلوه ، وما سندى فيما أقول إلا الكتاب والسنة القويمة وهدى الراشدين :

جاء الدين الاسلامى بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين ، فأقام الادلة على أن لا كون خالقا واحداً متصفا بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية كالعلم والقدرة والارادة وغيرها ، وعلى انه لا يشبهه شيء من خلقه وأن لا نسبة بينه وبينهم إلا أنه موجدهم وانهم له وإليه راجعون « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » وما ورد من ألفاظ الوجه واليدين والاستواء ونحوها له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب ولم يشتبهوا فى شيء منها ، وأن ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز فى جسد أو روح أحد من العالمين وانما يختص سبحانه من شاء من عباده بما شاء من علم وسلطان على ما يريد أن يسلطه عليه من الاعمال على سنة له فى ذلك سنها فى علمه الازلى الذى لا يعتريه التبديل ولا يدنو منه التغيير وحظر على كل ذى عقل أن يعترف لاحد بشيء من ذلك إلا ببرهان ينتهى في مقدماته الى حكم الحس وما جاوره من البديهيات التى لا تنقص عنه فى الوضوح بل قد تعلوه كاستحالة الجمع بين النقيضين أو ارتفاعهما معا أو وجوب أن الكل أعظم من الجزء مثلا ، وقضى على هؤلاء كغيرهم

---

(١) راجع رسالة التوحيد للاستاذ العالم العامل العلامة الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية رحمه الله .

بانهم لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضراً ، وغاية أمرهم أنهم عباد مكرمون وأن ما يجريه على يديهم فانما هو بأذن خاص وبتيسير خاص فى موضع خاص لحكمة خاصة ، ولا يعرف شأن الله فى شيء من هذا إلا ببرهان كما تقدم .

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة لعلكم تشكرون » والشكر عند العرب معروف انه تصريف النعمة فيما كان الانعام بها لأجله دل بمثل هذا على أن الله وهبنا من الحواس وغرز فينا من القوى ما نصرفه فى وجوهه بمحض تلك الوهبة ، فكل شخص كاسب لعمله بنفسه لها أو عليها . وأما ما تتحير فيه مداركنا وتقصر دونه قوانا وتشعر فيه انفسنا بسلطان يقهرها أو ناصر يمد فيما أدركها العجز عنه ، على أنه فوق مانعرف من القوى لمسخرة لها وكان لابد من الخضوع له والرجوع اليه والاستعانة به فلذلك انما يرد الى الله وحده فلا يجوز أن تخشع إلا له ولا أن تطمئن إلا اليه ، وكذلك جعل شأنها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه فى الحياة الآخرة لايسوغ لها أن تلجأ الى أحد غير الله في قبول أعمالها من الطيبات ولا فى غفران أفاعيلها من السيئات فهو وحده مالك يوم الدين

اجتثت بذلك جذور الوثنية وما وليها مما لو اختلف عنها فى الصورة والشكل أو العبارة واللفظ لم يختلف عنها في المعنى والحقيقة . تبع هذا الطهارة العقول من الاوهام الفاسدة التى لا تنفك عن تلك العقيدة الباطلة ، ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التى كانت تلازم تلك الاوهام وتخلصت بتلك الطهارة من الاختلاف فى المعبودين وعليهم ، وارتفع شأن الانسان وسمت قيمته بما صار اليه من الكرامة بحيث أصبح لا يخضع لاحد الا لخالق السموات والارض وقاهر الناس أجمعين ، وأبيح لكل أحد بل فرض عليه أن يقول كما قال ابراهيم « انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين » وكما أمر رسول الله صلى الله

عليه وسلم أن يقول : ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . »

تجلت بذلك للانسان نفسه حرة كريمة وأطلقت ارادته من القيود التى كانت تعقدها بارادة غيره سواء كانت ارادة بشرية ظن أنها شعبة من الارادة الالهية أو أنها هي كارادة الرؤساء والمسيطرين أو ارادة موهومة . اخترعها الخيال كما يظن فى القبور والاحجار والاشجار والكواكب ونحوها وافتكت عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء والمتكهنة والعرفاء وزعماء السيطرة على الاسرار ومنتحلى حق الولاية على أعمال العبد فيما بينه وبين الله الزاعمين أنهم واسطة النجاة وبأيديهم الاشقاء والاسعاد ، وبالجملة فقد اعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين . صار الانسان بالتوحيد عبد الله خاصة حرا من العبودية لكل ماسواه ، فكان له من الحق مالاحر على الحر لا على فى الحق ولا وضيع ، ولا سافل ولا رفيع ، ولا تفاوت بين الناس الا بتفاوت أعمالهم ، ولا تفاضل الا بتفاضلهم فى عقولهم ومعارفهم ، ولا يقربهم من الله الا طهارة العقل من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء . ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة ، وكفت عنها أيدى العالة وأهل البطالة ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته لا بعمله وخدمته .

طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه وقرأن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت . « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » « وان ليس للانسان الا ما سعى » وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ما شاء أكلا وشربا ولباسا وزينة ولم يحظر عليه الا ما كان ضارا بنفسه أو بمن يدخل في ولايته أو ما تعدى ضرره الى غيره ، وحدد له فى ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة فكفل الاستقلال لكل شخص فى عمله واتسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم يعد لها

عقبة تتعثر بها ، الا اللهم حقا محترما تصطدم به .

أنحى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الامم . صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها . كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق خلصت اليه هينمة من سدنة هيا كل الوهم : « نم فان الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والازواد قليلة . » علا صوت الاسلام على وساوس الطغام وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمان ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والاعلام اعلام الكون ودلائل الحوادث وانما المعلمون منبهون ومرشدون وإلى طرق البحث هادون .

الاهتداء بالعلم

صرح فى وصف أهل الحق بأنهم « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » فوصفهم بالتميز بين مايقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا بما عرفوا حسنه ويطرحوا مالم يتبينوا صحته ونفعه ، ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوكانوا فيه يأمرون وينهون ووضعهم تحت أنظار مرءوسيهم يخبرونهم كما يشاءون ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون .

الابتعاد عن التقليد

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الابناء وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسميا لعقول على عقول ولا لأذهان على أذهان ، وإنما السابق واللاحق فى التميز والفطرة سيان ! بل للاحق من علم الاحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها فى الكون مالم يكن لمن تقدمه من اسلافه وآبائه . وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لاعمال من سبقهم وطغيان الشر الذى وصل اليهم بما اقترفه سلفهم :

« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » وان أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ورحمته التى وسعت كل شىء لن تضيق عن دائب

عاب أرباب الأديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عند ما اختطته لهم سير أسلافهم وقولهم (بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) « إنا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون » فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده وخلصه من كل تقليد كان استعبده ورده إلى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع مع ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته ولا حد للعمل فى منطقة حدودها ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها

بهذا وما سبقه ثم للانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما استقلال الارادة واستقلال الرأى والفكر وبهما كملت له انسانيته واستعد لأن يبلغ من السعادة ماهيأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها ، وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم ان نشأة المدنية فى اوروبا انما قامت على هذين الاصلين . فلم تنهض النفوس للعمل ولم تتحرك العقول للبحث والنظر إلا بعد أن عرف العدد الكثير انفسهم وان لهم حقا فى تصريف اختيارهم وفى طلب الحقائق بعقولهم ولم يصل اليهم هذا النوع من العرفان إلا فى الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح . وقرر ذلك الحكيم أنه شعاع سطع عليهم من آداب الاسلام ومعارف المحققين من أهله فى تلك الازمان :

رفع الاسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين فى فهم الكتب السماوية استئثاراً من أولئك الرؤساء بحق الفهم لانفسهم وضنا به على كل من يلبس لباسهم ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتب المقدسة ففرضوا على العامة وأباحوا لهم أن يقرؤا قطعا من تلك الكتب ، لكن على شريطة أن لا يفهموها وأن لا يطيلوا أنظارهم إلى ما ترمى إليه . ثم غالوا فى ذلك فحرموا أنفسهم أيضا مزية الفهم إلا قليلا ورموا عقولهم بالقصور عن ادراك ماجاء فى الشرائع والنبوات ووقفوا كما

وقفوا بالناس عند تلاوة الالفاظ تعبدا بالاصوات والحروف فذهبوا بحكمة الارسال فجاء القرآن يلبسهم عار مافعلوا فقال . « ومنهم أميون لايعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم الا يظنون » . « مثلوا الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لايهدى القوم الظالمين » أما الامانى ففسرت بالقرآن والتلاوات أى لا يعلمون منه إلا أن يتلوه وإذا ظنوا أنهم على شىء مما دعا إليه فهو عن غير علم بما أودعه وبلا برهان على ماتخيلوه عقيدة وظنوه دينا ، وإذا عن لأحدهم أن يبين شيئا من أحكامه ومقاصده لشهوة دفعته إلى ذلك جاء فيها يقول بما ليس منه على بينة واعتسف في التاويل وقال هذا من عند الله « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا » أما الذين قال انهم لم يحملوا التوراة وهي بين أيديهم بعد ما حملوها فهم الذين لم يعرفوا منها إلا الالفاظ ولم تسم عقولهم الى درك ما أودعته من الشرائع والاحكام فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التى نصبت بانزالها فحق عليهم ذلك المثل الذى أظهر شانهم فيما لا يليق بنفس بشرية أن تظهر به مثل الحمار الذى يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها إلا العناء والتعب وقصم الظهر وانبهار النفس : وما أشنع شان قوم انقلبت بهم الحال فما كان سببا فى اسعادهم وهو التنزيل والشريعة أصبح سببا فى شقائهم بالجهل والغباوة وبهذا التقريع ونحوه وبالدعوة العامة إلى الفهم وتمحيص الالباب للتفقه واليقين مما هو منتشرا في القرآن العزيز .

فرض الاسلام على كل ذى دين أن ياخذ بحظه من علم ما أودع الله فى كتبه وما قرر من شرعه وجعل الناس فى ذلك سواء بعد استيفاء الشرط باعداد مالابد منه للفهم وهو سهل المنال على الجمهور الاعظم من المتدينين لا تختص به طبقة من الطبقات ولا يحتكر مزيته وقت من الاوقات .

جاء الاسلام والناس شيع فى الدين وان كانوا إلا قليلا فى جانب عن اليقين يتنابذون ويتلاعنون ويزعمون فى ذلك انهم بحبل الله مستمسكون فرقة وتخالف وشغب يظنونها فى سبيل الله أقوى سبب ، أنكر الاسلام ذلك كله وصرح تصريحا لايحتمل الريبة في أن دين الله في جميع الازمان وعلى ألسن جميع الانبياء واحد ، قال الله : « ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتو الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم اليه » « قل يا أهل الكتاب تعالو الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولو فقولوا اشهدوا بانا مسلمون » وكثير من ذلك يطول ايراده فى هذه الوريقات ، والآيات الكريمة التى تعيب على أهل الدين ما نزعوا اليه من الاختلاف والمشاقة مع ظهور الحجة واستقامة المحجة لهم فى علم ما اختلفوا فيه معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته ، نص الكتاب على أن دين الله في جميع الازمان هو إفراده بالربوبية والاستسلام له وحده بالعبودية وطاعته فيما أمر به ونهى عنه مما هو مصلحة للبشر وعماد لسعادتهم فى الدنيا والآخرة وقد ضمنه كتبه التى أنزلها على المصطفين من رسله ودعا العقول الى فهمه منه والعزائم الى العمل به ، وان هذا المعنى من الدين هو الاصل الذى يرجع اليه عند هبوب ريح التخالف وهو الميزان الذى توزن به الاقوال عند التناصف وان اللجاج والمراء فى الجدال فراق مع الدين وبعد عن سنته ، ومتى روعيت حكمته ولوحظ جانب العناية الالهية فى الانعام على البشرية

ذهب الخلاف وتراجعت القلوب الى هداها وسار الكافة فى مراشدهم اخوانا بالحق مستمسكين وعلى نصرته متعاونين .

أما صور العبادات وضروب الاحتفالات مما اختلفت فيه الاديان الصحيحة سابقها مع لاحقها واختلاف الاحكام متقدمها مع متأخرها فمصدره رحمة الله ورأفته فى إيتاء كل أمة وكل زمان ماعلم فيه الخير للامة والملاءمة للزمان ، وكما جرت سنته وهو رب العالمين بالتدريج فى تربية الاشخاص من خارج من بطن امه لايعلم شيئا إلا راشد فى عقله كامل فى نشأته يمزق الحجب بفكره ويواصل أسرار الكون بنظره ، كذلك لم تختلف سنته ولم يضطرب هديه فى تربية الامم ، فلم يكن من شأن الانسان فى جملته ونوعه أن يكون في مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله الى يوم يبلغ به من الكمال منتهاه ؟ بل سبق القضاء بأن يكون شأن جملته في النمو قائما على ما قررته الفطرية الالهية فى شأن افراده ، وهذا من البديهيات التى لايصح الاختلاف فيها وان اختلف أهل النظر فى بيان ما تفرع منه فى علوم وضعت للبحث فى الاجتماع البشرى خاصة فلا نطيل الكلام فيه هنا .

جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم العامة بل والخاصة في طور أشبه بطور الطفولية للناشىء الحديث العهد بالوجود لا يألف منه إلا ماوقع تحت حسه ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمسه وأن يتناول بذهنه من المعانى ما لا يقرب من لمسه ولم ينفث في روعه من الوجدان الباطن ما يعطفه على غيره من عشيره أو ابن جنسه فهو من الحرص على مايقيم بناء شخصه فى هم شاغل عما يلقى اليه فيما يصله بغيره اللهم إلا يداً تصل إلى فمه بطعام أو تسنده فى قعود أو قيام ، فلم يكن من حكمة تلك الاديان ان تخاطب الناس بمايلطف من الوجدان أو يرقى اليه بسلم البرهان بل كان من عظيم الرحمة ان تسير بالاقوام وهم عيال الله سير الوالد مع ولده فى سذاجة السن لايأتيه إلا من قبل مايحسه بسمعه أو ببصره ، فاخذتهم بالاوامر الصادعة والزواجر

الرادعة وطالبتهم بالطاعة وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة ، كلفتهم بمعقول المعنى جلى الغاية وان لم يفهموا معناه ولم تصل مداركهم الى مرماه وجاءتهم من الآيات ما تطرف له عيونهم وتنفعل به مشاعرهم ، وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه .

ثم مضت على ذلك أزمان علت فيها الاقوام وسقطت وارتفعت وانحطت ، وجربت وكسبت ، وتخالفت واتفقت ، وذاقت من الايام آلاما ، وتقلبت فى السعادة والشقاء أياما وأياما ، ووجدت الانفس بنفث الحوادث ولقن الكوارث شعورا أدق من الحس وأدخل فى الوجدان لا يرتفع في الجملة عما تشعر به قلوب النساء أو تذهب معه نزعات الغلمان ، فجاء دين يخاطب العواطف ويناجى المراحم ويستعطف الاهواء ويحادث خطرات القلوب ، فشرع للناس من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن الدنيا بجملتها ويوجه وجوههم نحو الملكوت الاعلى ، ويقتضى من صاحب الحق أن لا يطالب به ولو بحق ، ويغلق أبواب السماء فى وجوه الاغنياء وما ينحو نحو ذلك مما هو معروف . وسن للناس سننا فى عبادة الله تتفق مع ما كانوا عليه وما دعاهم اليه ، فلاقى من تعلق النفوس بدعوته ما أصلح من فاسدها وداوى من أمراضها . ثم لم يمض عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتماله ، وضاقت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والاخذ بأقواله ، ووقر فى الظنون أن اتباع وصاياه ضرب من المحال فهب القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك فى السلطان ومزاحمة أهل الترف فى جمع الاموال وانحرف الجمهور الاعظم منهم عن جادته بالتاويل ، وأضافوا عليه ما شاء الهوى من الاباطيل . هذا كان شأنهم فى السجايا والاعمال ، نسوا طهارته وباعوا نزاهته أما فى العقائد فتفرقوا شيعا وأحدثوا بدعا ولم يستمسكوا من اصوله الا بما ظنوه من أشد أركانها وتوهموه من أقوى دعائمها وهو حرمان العقول من النظر فيه بل وفى غيره من دقائق الأكوان والخطر على

الأكوان أن تنفذ الى شيء من سرائر الخلقة فصرحوا بان لا وفاق بين الدين والعقل وان الدين من اشد أعداء العلم . ولم يكف الذاهب الى ذلك أن ياخذ به نفسه بل جد فى حمل الناس على مذهبه بكل ما يملك من حول وقوة وأفضى الغلو في ذلك بالانفس إلى نزعة كانت أشأم النزعات على العالم الانسانى وهى نزعة الحرب بين اهل الدين للالزام ببعض قضايا الدين فتقوض الاصل وتخرمت العلائق بين الاهل وحلت القطيعة محل التراحم والتخاصم مكان التعاون والحرب محل السلام ، وكان الناس على ذلك الى ان جاء الاسلام .

كان سن الاجتماع البشرى قد بلغ بالانسان أشده وأعدته الحوادث الماضية الى رشده فجاء الاسلام يخاطب العقل ويستصرخ الفهم واللب ويشركه مع العواطف والاحساس في ارشاد الانسان الى سعادته الدنيوية والاخروية وبين الناس ما اختلفوا فيه وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه وبرهن على أن دين الله فى جميع الاجيال واحد ومشيئته فى اصلاح شؤونهم وتطهير قلوبهم واحدة ، وان رسم العبادة على الاشباح انما هو لتجديد الذكرى فى الارواح ، وان الله لا ينظر إلى الصور ولكن ينظر الى القلوب وطالب المكلف برعاية جسده كما طالبه باصلاح سره . ففرض نظافة الظاهر كما أوجب طهارة الباطن وعد كلا الامرين طهرا مطلوبا . وجعل روح العبادة الاخلاص وان ما فرض من الاعمال انما هو لما أوجب من التطبع بصالح الملكات . « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » « ان الانسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا الا المصلين » ورفع الغنى الشاكر الى مرتبة الفقير الصابر بل ربما فضله عليه وعامل الانسان في مواعظه معاملة الناصح الهادى للرجل الرشيد فدعاه إلى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة . وصرح بما لايقبل التأويل ان فى ذلك

رضا الله وشكر نعمته وان الدنيا مزرعة الآخرة ولا وصول الى خير العقبى الا بالسعى في صلاح الدنيا .

التفت إلى اهل العناد فقال لهم : « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » وعنف النازعين إلى الخلاف والشقاق على ما زعزعوا من أصول اليقين ، ونص على أن التفرق بغى وخروج عن سبيل الحق المبين . ولم يقف فى ذلك عند حد الموعظة بالكلام والنصيحة بالبيان ، بل شرع شريعة الوفاق وقررها فى العمل فأباح للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب وسوغ مؤاكلتهم وأوصى أن تكون مجادلتهم بالتى هي أحسن . ومن المعلوم أن المحاسنة هي رسول المحبة وعقد الالفة والمصاهرة انما تكون بعد التحاب بين أهل الزوجين والارتباط بينهما بروابط الائتلاف . ثم أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عمن يدخل في ذمتهم من غيرهم كما يدافعون عن أنفسهم . ونص على أن لهم مالنا وعليهم ما علينا ولم يفرض عليهم جزاء ذلك إلا زهيداً يقدمونه من مالهم ، ونهى بعد ذلك عن كل اكراه فى الدين ، وطيب قلوب المؤمنين في قوله : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذ اهتديتم » فعليهم الدعوة الى الخير بالتى هى احسن وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أى ضرب من ضروب القوة فى الحمل على الاسلام فان نوره جدير أن يخترق القلوب . وليست الآية فى الامر بالمعروف بين المسلمين فانه لا اهتداء الا بعد القيام به ولو أريد ذلك لكان التعبير « على كل واحد منكم بنفسه » لا « عليكم أنفسكم » كما هو ظاهر لكل عربى : كل ذلك ليرشد الناس إلى أن الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه ولكن ليهديهم الى الخير فى جميع نواحيه .

رفع الاسلام كل امتياز بين الاجناس البشرية وقرر لكل فطرة شرف النسبة الى الله فى الخلقة وشرف اندراجها فى النوع الانسانى بالجنس والفصل والخاصة وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال

الذى أعده الله لنوعها على خلاف ما زعمه المتحلون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم — فاماتوا بذلك الارواح فى معظم الامم وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباحا .

هذه عبادات الاسلام على ما فى الكتاب وصحيح السنة تتفق على ما يليق بجلال الله وسمو وجوده عن الاشباه وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة . فالصلاة ركوع وسجود وحركة وسكون ودعاء وتضرع وتسبيح وتعظيم وكلها تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الالهى الذى يغمر القوة البشرية ويستغرق الحول فتخشع له القلوب وتستخذى له النفوس وليس بها شىء يعلو على متناول العقل إلا نحو تحديد عدد الركعات أو رمى الجمرات . على أنه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير وليس فيه من ظاهر العبث واستحالة المعنى ما يخل بالاصول التى وضعها الله للعقل فى الفهم والتفكير . أما الصوم فحرمان يعظم به أمر الله فى النفس وتعرف به مقادير النعم عند فقدها ومكانة الاحسان الالهى فى التفضل بها : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » . أما اعمال الحج فتذكير للانسان باوليات حاجاته وتعهد له بتمثيل المساواة بين افراده ولو فى العمر مرة يرتفع فيها الامتياز بين الغنى والفقير والصعلوك والامير ويظهر الجميع فى معرض واحد عراة الابدان متجردين من آثار الصنعة ، وحدت بينهم العبودية لله رب العالمين ، كل ذلك مع استبقائهم فى الطواف والسعى والمواقف . ولمس الحجر ذكرى ابراهيم عليه السلام وهو أبو الدين وهو الذى سماهم المسلمين واستقرار يقينهم على أن لا شىء من تلك البقايا الشريفة يضر أو ينفع ، وشعار هذا الاذعان الكريم فى كل عمل « الله أكبر » أين هذا كله مما تجد فى عبادات أقوام آخرين يضل فيها العقل ويتعذر معها خلوص السر للتنزيه والتوحيد .

كشف الاسلام عن العقل عمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير (العالم) والكون الصغير (الانسان) فقرر أن آيات الله الكبرى فى صنع العالم انما يجرى أمرها في السنن الآلهية التى قدرها الله فى علمه الازلى لا يغيرها شيء من الطوارىء الجزئية . غير أنه لا يجوز أن يغفل شان الله فيها بل ينبغى أن يحيى ذكره عند رؤيتها فقد جاء على لسان النبى صلى الله عليه وسلم . « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فاذا رأيتم ذلك فاذكروا الله » وفيه التصريح بان جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد لا يقضى فيه إلا العناية الازلية على السنن التى أقامته عليها : ثم أماط اللثام عن حال الانسان فى النعم التى يتمتع بها الأشخاص أو الامم والمصائب التى يرزأون بها ففصل بين الامرين فصلا لا مجال معه للخلط بينهما . فاما التى يمتع الله بها بعض الاشخاص فى هذه الحياة والرزايا التى يرزأ بها في نفسه فكثير منها كالثروة والجاه والقوة والبنين أو الفقر والضعة والضعف . والفقد قد لا يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص في سيرته من استقامة وعوج أو طاعة وعصيان . وكثيرا ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة أو الفجرة الفسقة وترك لهم متاع الحياة الدنيا انظاراً لهم حتى يتلقاهم ما أعد لهم من العذاب المقيم فى الحياة الاخرى . وكثيراً ما امتحن الله الصالحين من عباده واثنى عليهم فى الاستسلام لحكمه وهم الذين اذا أصابتهم مصيبة عبروا عن اخلاصهم في التسليم بقولهم « انا لله وانا اليه راجعون » فلا غضب زيد ولا رضا عمرو ولا اخلاص سريرة ولا فساد عمل مما يكون له دخل فى هذه الرزايا ولا فى تلك النعم الخاصة لهم الا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جارى العادة كارتباط الفقر بالاسراف والذل بالجبن وضياع السلطان بالظلم وكارتباط الثروة بحسن التدبير فى الاغلب والمكانة عند الناس بالسعى فى مصالحهم على الأكثر وما يشبه ذلك مما هو مبين فى علم آخر .

أما شأن الامم فليس على ذلك . فان الروح الذى أودعه الله جميع شرائعه الالهية من تصحيح الفكر وتسديد النظر وتأديب الاهواء وتحديد مطامح الشهوات والدخول الى كل أمر من بابه وطلب كل رغيبة من أسبابها وحفظ الامانة واستشعار الاخوة والتعاون على البر والتناصح فى الخير والشر وغير ذلك من أصول الفضائل — ذلك الروح هو مصدر حياة الامم ومشرق سعادتها فى هذه الدنيا قبل الآخرة : « من يرد ثواب الدنيا نؤته منها » ولن يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها يزيد الله النعم بقوته وينقصها بضعفه ، حتى اذا فارقها ذهبت السعادة على اثره ، وتبعته الراحة الى مقره واستبدل الله عزة القوم بالذل وكثرهم بالقل ونعيمهم بالشقاء وراحتهم بالعناء ، وسلط عليهم الظالمين أو العادلين فاخذهم بهم وهم فى غفلة ساهون : « واذا اردنا أن نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » امرناهم بالحق ففسقوا عنه الى الباطل ثم لاينفعهم الانين ولا يجديهم البكاء ولا يفيدهم ما بقى من صور الاعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ولا كاشف لما نزل بهم الا أن يلجاوا الى ذلك الروح الاكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر والصبر والشكر : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » « سنة الله في الذين خلو من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » وما أجل ما قاله العباس بن عبد المطلب فى استسقائه : « اللهم انه لم ينزل بلاء إلا بذنب ولم يرفع إلا بتوبة » على هذه السنن جرى سلف الامة ، فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ويأخذ نفسه بما يتبعها من الاعمال الجليلة كان غيره يظن انه يزلزل الارض بدعائه ويشق الفلك ببكائه وهو ولع باهوائه ماض فى غلوائه وما كان يغنى عنه ظنه من الحق شيئا .

حث القرآن على التعليم وارشاد العامة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا

قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » ثم فرض ذلك فى قوله « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فاما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون : تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين ، ولله مافى السموات وما فى الارض والى الله ترجع الامور » ثم بعد هذا الوعيد الذى يزعج المفرطين وتحق به كلمة العذاب على المختلفين والمقصرين ابرز حال الامارين بالمعروف النهائين عن المنكر فى أجل مظهر يمكن أن تظهر فيه حال أمة فقال « كنتم خير أمة اخرجت للناس ، تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » فقدم ذكر الامر بالمعروف والنهى عن المنكر على الايمان فى هذه الآية مع ان الايمان هو الاصل الذى تقوم عليه اعمال البر والدوحة التى تتفرع عنها افنان الخير تشريفا لتلك الفريضة واعلاء لمنزلتها بين الفرائض بل تنبيها على انها حفاظ الايمان وملاك امره ، ثم شد بالانكار على قوم اغفلوها واهل دين اهملوها فقال : « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصو وكانوا يعتدون : كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » فقدف عليهم اللعنة وهى أشد ماعنون الله به على مقته وغضبه .

فرض الاسلام للفقراء فى أموال الاغنياء حقا معلوما يفيض به الآخرون على الاولين سداً لحاجة المعدم وتفريجا لكربة الغارم وتحريراً لرقاب المستعبدين وتيسيراً لابناء السبيل ولم يحث على شىء حثه على الانفاق من الاموال فى سبيل الخير وكثيرا ما جعله عنوان الايمان ودليل الاهتداء الى الصراط المستقيم فاستل بذلك ضغائن أهل الفاقة ومحص صدورهم من الاحقاد وعلى

من فضلهم الله عليهم فى الرزق ، وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء وساق الرحمة فى نفوس هؤلاء على أولئك البائسين فاستقرت بذلك الطمانينة فى نفوس الناس اجمعين : وأى دواء لامراض الاجتماع انجع من هذا . « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ».

أغلق الاسلام بابى الشر وسد ينبوعى فساد العقل والمال بتحريمه الخمر والمقامرة والربا تحريما باتا لا هوادة فيه لم يدع الاسلام بعد ما قررنا أصلا من أصول الفضائل إلا أتى عليه ولا أما من أمهات الصالحات إلا أحياها ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها فاستجمع للانسان عند بلوغ رشده كما ذكرنا حرية الفكر والاستقلال العقل فى النظر وما به صلاح السجايا واستقامة الطبع وما فيه انهاض العزائم الى العمل وسوقها فى سبل السعى . ومن يتل القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنز لاينفد وذخيرة لاتفنى هل بعد الرشد وصاية وبعد اكتمال العقل ولاية كلا ، قد تبين الرشد من الغى ولم يبق الا اتباع الهدى والانتفاع بما ساقته أيدى الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين ، لهذا ختمت النبوات بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وانتهت الرسالات برسالته كما صرح بذلك الكتاب وأيدته السنة الصحيحة وبرهنت عليه خيبة مدعيها من بعده واطمئنان العالم مما وصل اليه من العلم الى أن لاسبيل بعد لقبول دعوة يزعم القائم بها انه يحدث عن الله بشرع أو يصدع عن وحيه بامر ، هكذا يصدق نبأ الغيب . « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما ».

انتشار الاسلام

بسرعة لم يعهد لها نظير فى التاريخ

كانت حاجة الامم الى الاصلاح عامة فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك لكن يندهش عقل الناظر في أحوال البشر عند ما يرى ان هذا الدين يجمع اليه الامة العربية من أدناها إلى أقصاها في أقل من ثلاثين سنة ثم يتناول من بقية الامم ما بين المحيط الغربى وجدار الصين فى أقل من قرن واحد : وهو أمر لم يعهد في تاريخ الاديان ولذلك ضل الكثير فى بيان السبب واهتدى اليه المنصفون فبطل العجب .

ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان ولقى من أعداء أنفسهم أشد ما يلقى حق من باطل . اوذى الداعى صلى الله عليه وسلم يضروب الايذاء واقيم فى وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب لولا عناية الله ، وعذب المستجيبون له وحرموا الرزق وطردوا من الدار وسفكت منهم دماء غزيرة ، غير أن تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور الصبر يثبت الله بمشهدها المستيقنين ويقذف بها الرعب فى انفس المرتابين فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب وهى ذوب مافسد من طباعهم فتجرى من مناحرهم جرى الدم الفاسد من المقصود على ايدى الاطباء الحاذقين « ليميز الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم اولئك هم الخاسرون » .

تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام ليحصدوا نبتته ويخنقوا دعوته فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للأقوياء والفقير للأغنياء ولا ناصر له إلا أنه الحق بين الأباطيل والرشد في ظلمات الأضاليل حتى ظفر بالعزة وتعزز بالمنعة . وقد وطئ

أرض الجزيرة أقوام من اديان أخر كانت تدعو اليها وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره ومع ذلك لم يبلغ بهم السعى نجاحا ولا أنالهم القهر فلاحا

ضم الاسلام فكان القفار العربية إلى وحدة لم يعرفها تاريخهم ولم يعهد لها نظير فى ماضيهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أبلغ رسالته بأمر ربه إلى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان فهزأوا وامتقعوا وناصبوه وقومه الشر وأخافوا السابلة وضيقوا على المتاجر فبعث اليهم البعوث فى حياته وجرى على سنته الائمة من صحابته طلبا للامن وابلاغا للدعوة فاندفعوا فى ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على أيديهم وانهالوا به على تلك الأمم في قوتها ومنعتها وكثرة عددها واستكمال أهبها وعددها فظفروا منها بما هو معلوم . وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها واستقر السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين وأباحوا لهم البقاء على أديانهم وإقامة شعائرها آمنين مطمئنين ، ونشروا حمايتهم عليهم يمنعونهم مما يمنعون منه أهلهم وأموالهم ، وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزاء قليلا من مكاسبهم على شرائط معينة .

كان الملوك من غير المسلمين إذا فتحوا مملكة انبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة إلى دينها يلجون على الناس بيوتهم ويغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر وبرهانهم الغلبة وحجتهم القسوة ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين ولم يعهد فى تاريخ فتوح الاسلام ان كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة ياخذن على أنفسهم العمل ونشره ويقفون مسعاهم على بث عقائد بين غير المسلمين ، بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم في المعاملة . وشهد العالم بأسره ان الاسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلا واحسانا عند ما كان يعدها الاوروبيون ضعة وضعفا

رفع الاسلام ماثقل من الانوات ورد الاموال المسلوبة إلى أربابها وانتزع الحقوق من مغتصبيها ووضع المساواة فى الحق عند التقاضى بين المسلم وغير المسلم . بلغ أمر المسلمين فيما بعد أن لايقبل اسلام من داخل فيه إلا بين يدى قاضى شرعى باقرار من المسلم الجديد أنه أسلم بلا إكراه ولا رغبة فى دنيا . وصل الأمر فى عهد بعض الخلفاء الأمويين انه كره عمالهم دخول الناس فى دين الاسلام لما رأوا أنه ينقص من مبالغ الجزية وكان فى حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لامحالة عرف عن خلفاء المسلمين وملوكهم فى كل زمان ما لبعض أهل الكتاب ، بل وغيرهم من المهارة فى كثير من الاعمال فاستخدموهم وصعدوا بهم إلى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش فى اسبانيا . اشتهرت حرية الاديان فى بلاد الاسلام حتى هجر اليهود أوروبا فرارا منها بدينهم إلى بلاد الاندلس وغيرها

هذا ما كان من أمر المسلمين فى معاملتهم لما أظلوهم بسيوفهم لم يفعلوا شيئاً سوى انهم حملوا إلى أولئك الاقوام كتاب الله وشريعته وألقوا بذلك بين ايديهم وتركوا الخيار لهم فى القبول وعدمه ، ولم يقوموا بينهم بدعوة ولم يستعملوا لاكراههم عليه شيئاً من القوة . وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه . فما الذى أقبل باهل الاديان المختلفة على الاسلام وأقنعهم الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه أفواجاً وبذلوا فى خدمته مالم تبذله العرب أنفسهم !

ظهور الاسلام على ما كان فى جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية وتغلبه على ما كان من رذائل الأخلاق وقبائح الأعمال وسيره بسكانها على الجادة القويمة حقق لقراء الكتب الالهيه السابقة ان ذلك هو وعد الله نبيه ابراهيم واسماعيل وأن هذا الدين هو ما كانت تبشر به الانبياء أقوامها من بعدهما فلم يجد أهل النصفة منهم سبيلا إلى البقاء على العناد فى

مجاحدته فنبلوه شاكرين وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين

أوقع ذلك من الريب فى قلوب مقلديهم ما حركهم إلى النظر فيه فوجدوا لطفا ورحمة وخيرا ونعمة : لاعقيدة ينفر منها العقل وهو رائد الايمان الصادق ، ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية وهى القاضية فى قبول المصالح والمرافق . رأوا أن الاسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت يكاد يعلو بها عن العالم السفلى ويلحقها بالملكوت الاعلى ويدعوها إلى احياء ذلك الشعور بخمس صلوات فى اليوم ، وهو مع ذلك لايمنع من التمتع بالطيبات ولا يفرض من الرياضيات وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه ويعد برضا الله ونيل ثوابه حتى فى توفية البدن حقه متى حسنت النية وخلصت السريرة فاذا نزت شهوة أوغلب هوى كان الغفران الالهى ينتظره متى حسنت التوبة وكملت الأوبة

تبدت لهم سذاجة الدين عند ما قرأوا القرآن ونظروا فى سيرة الطاهرين من حامليه اليهم وظهر لهم الفرق بين مالا سبيل إلى فهمه وما تكفى جولة نظر فى الوصول إلى علمه فتراموا إليه خفافا من ثقل ما كانوا عليه

كانت الأمم تطلب عقلا فى دين فوافاها ، وتتطلع إلى عدل فى ايمان فأتاها ، فما الذى يحجم بها عن المسارعة الى طلبتها والمبادرة إلى رغبتها ؟

كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التى رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق وكان من حكمها أن لايقاوم وزن لشئون الادنين متى عرضت دونها شهوات الاعلين فجاء دين يحدد الحقوق ويسوى بين جميع الطبقات فى احترام النفس والدين والعرض والمال ويسوغ لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لأمير عظيم مطلق السلطان فى قطر كبير — وما كان يريده لنفسه ولكن ليوسع به مسجدا — فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع أضعاف قيمته رفعت الشكوى إلى الخليفة

فورد أمره برد بيتها اليها مع لوم الأمير على ما كان منه . عدل يسمح ليهودى أن يخاصم مثل على بن أبى طالب — وهو من نعلم من هو — أمام القاضى ويستوقفه معه للتقاضى إلى أن قضى الحق بينهما : هذا وما سبق بيانه مما جاء به الإسلام هو الذى حببه إلى من كانوا أعداءه ورد اليه أهواءهم حتى صاروا انصاره وأولياءه .

غلب على المسلمين فى كل زمن روح الاسلام فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم الا بعد أن يحرجهم الجار ، فهم كانوا يتعلمونها ممن سواهم ثم لايكون الا طائفا يحل ثم يرتحل . فاذا انقطعت أسباب الشعب تراجعت القلوب الى سابق ما التقته من اللين والمياسرة ومع ذلك بل وغفلة المسلمين عن الاسلام وخذلانهم له وسعى الكثير منهم فى هدمه بعلم وبغير علم لم يقف الاسلام فى انتشاره عند حد خصوصاً فى الصين وفى أفريقيا ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع الى الأخذ بعقائده على بصيرة فيما تنزع اليه ، لاسيف وراءها ولا داعى أمامها وانما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه مع قليل من حركة الفكر فى العلم بما شرعه . ومن هذا تعلم أن سرعة انتشار الدين الاسلامى واقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة انما كان بسهولة تنقله ويسر أحكامه وعدالة شريعته . وبالجملة لأن فطر البشر تطلب دينا وتزداد منه ماهو أمس بمصالحها وأقرب الى قلوبها ومشاعرها وأدعى إلى الطمأنينة في الدنيا والآخرة . ودين هذا شأنه يجد الى القلوب منفذا والى العقول مخلصا بدون حاجة الى دعاة ينفقون الأموال الكثيرة والأوقات الطويلة ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لاسقاط النفوس فيه . هذا كان حال الاسلام فى سذاجته الاولى وطهارته التى أنشاه الله عليها ولا يزال على جانب عظيم منها فى بعض اطراف الارض إلى اليوم .

قال من لم يفهم ما قدمناه أو لم يرد أن يفهمه أن الاسلام لم يطف على قلوب العالم بهذه السرعة الا بالسيف ، فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن باحدى اليدين والسيف بالاخرى ، يعرضون القرآن على المغلوب فان لم يقبله فصل السيف بينه وبين حياته . سبحانك هذا بهتان عظيم .

ماقدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ماتواترت به الاخبار تواتراً صحيحاً لا يقبل الريبة فى جملته وان وقع اختلاف فى تفصيله وانما شهر المسلمون سيوفهم دفاعا عن أنفسهم وكفا للعدوان عنهم ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك ولم يكن من المسلمين مع غيرهم الا أنهم جاوروهم وأجاروهم ، فكان الجوار طريق العلم بالاسلام وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال اليه .

لو كان السيف ينشر دينا فقد عمل فى الرقاب للاكراه على الدين والالزام به مهدداً كل أمة لم تقبله بالابادة والمحو من سطح البسيطة مع كثرة الجيوش ووفرة العدد وبلوغ القوة أسمى درجة كانت تمكن لها . وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الاسلام بثلاثة قرون كاملة واستمر فى شدته بعد مجىء الاسلام سبعة أجيال أو يزيد . فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الاسلام فى أقل من قرن : هذا ولم يكن السيف وحده بل كان الحسام لا يتقدم خطوة الا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاؤن تحت حمايته مع غيره تفيض من الافئدة وفصاحة تتدفق عن الالسنة وأموال تخلب الباب المستضعفين : ان فى ذلك لآيات للمستيقنين.

جلت حكمة الله فى امر هذا الدين سلسبيل حياة نبع فى القفار العربية ابعد بلاد الله عن المدنية فاض حتى شملها فجمع شملها فاحياها حياة شعبية ملية. علا مده حتى استغرق ممالك كانت تفاخر أهل السماء فى رفعتها وتعلو أهل الارض بمدنيتها . زلزل هديره على لينه ما كان استحجر من الارواح فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها . قالوا كان لا يخلو من غلب (بالتحريك)

قلنا تلك سنة الله فى الخلق لاتزال بين الحق والباطل والرشد والغى قائمة فى هذا العالم الى أن يقضى الله قضاءه فيه . اذا ساق الله ربيعا الى أرض جدبة ليحيي ميتها وينقع غلتها وينمى الخصب فيها ، أفينقض من قدره أن أتى فى طريقه على عقبة فعلاها أو بيت رفيع العماد فهوى به ؟

سطع الاسلام على الديار التى بلغها أهله فلم يكن بين أهل تلك الديار وبينه الأن يسمعوا كلام الله ويفقهوه . اشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمنا وانحرفوا عن طريق الدين ازمانا ، فوقف وقفة القائد خذله الانصار وكان يتزحزح الى ماوراء . لكن الله بالغ امره ، فانحدرت الى ديار المسلمين امم من التتار يقودها جنكيز خان وفعلوا بالمسلمين الافاعيل وكانوا وثنيين جاؤا لمحض الغلبه والسلب والنهب ولم يلبث اعقابهم ان اتخذوا الاسلام دينا وحملوه الى اقوامهم فعمهم منه ماعم غيرهم : جاؤا لشقوتهم فعاجوا بسعادتهم .

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه الا اشترك فيها والمجلدات بين الغربيين والشرقيين أكثر من مائتى سنة جمع فيها الغربيون من الغيرة والحمية للدين مالم يسبق لهم من قبل ، وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة مابلغته طاقتهم وزحفوا على ديار المسلمين وكانت فيهم بقية من روح الدين فغلب الغربيون على كثير من البلاد الاسلامية وانتهت تلك الحروب الجارفة باجلائهم عنها . لم جاؤا وبماذا رجعوا ؟ ظفر رؤساء الدين فى الغرب باثارة شعوبهم ليبيدا مايشاؤن من سكان الشرق أو يستولى سلطان تلك الشعوب على مايعتدون لانفسهم الحق فى الاستيلاء عليه من البلاد الاسلامية . جاء من الملوك والامراء وذوى الثروة والاعلياء جم غفير وجاء ممن دونهم من الطبقات ماقدروه بالملايين . استقر المقام بكثير من هؤلاء فى ارض المسلمين وكانت فترات تنطفىء فيها نار الغضب وتثوب العقول الى سكينتها تنظر فى احوال المجاورين وتلتقط من افكار المخالطين وتنفعل بما ترى وما تسمع . فتبينت أن المبالغات

التى اطاشت الاحلام وجسمت الآلام لم تصب مستقر الحقيقة . ثم وجدت حرية فى دين وعلما وشرعا وصنعة مع كمال فى يقين وتعلمت ان حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الايمان لامن العوادى عليه ثم جمعت من الآداب ماشاء الله وانطلقت الى بلادها قريرة العين بماغنمته من جلادها.

الاتصال بالعرب

هذا الى ما كسبه السفار من اطراف الممالك الى بلاد الاندلس بمخالطة حكمائها وادبائها ثم عادوا به الى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا واخذت الافكار من ذلك العهد تتراسل والرغبة فى العلم تتزايد بين الغربيين ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد ونزعت العزائم الى تقييد سلطان زعماء الدين والاخذ على ايديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه وحرفوا فى معناه ، ولم يكن بعد ذلك الاقليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو الى الاصلاح والرجوع بالدين الى سذاجته وجاءت فى اصلاحها فيما لايبعد عن الاسلام الا قليلا ، بل ذهب بعض طوائف الاصلاح فى العقائد الى مايتفق مع عقيدة الاسلام الافى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وان ماهم عليه انما هو دينه لايختلف عنه اسما ولايختلف معنى الا فى صورة العبادة لاغير

الاصلاح

ثم اخذت أمم أوروبا تفتك من أسرها وتصلح من شؤونها حتى استقامت أمور دنياها على مثل مادعا اليه الاسلام غافلة عن عقائدها لاهية عن مرشدها وتقررت أصول المدنية الحاضرة التى تفاخر بها الاجيال المتاخرة ماسبقها من أهل الازمان الغابرة . هذا طل من وابله أصاب أرضا قابلة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج جاء القوم ليبيدوا فاستفادوا وعادوا ليفيدوا ظن الرؤساء ان فى اهاجة شعوبهم شفاء ضغنهم وتقوية ركنهم فباؤا بوضوح شانهم وضعضعة سلطانهم : وما بيناه فى شان الاسلام ويعرفه كل من تفقه فيه قد ظفر به كثير من أهل النظر فى بلاد الغرب فعرفوا له حقه واعترفوا انه كان اكبر اساتذتهم فيما هم فيه اليوم والى الله عاقبة الامور .

ايراد سهل الايراد

يقول قائلون. إذا كان الاسلام انما جاء لدعوة المختلفين إلى الاتفاق وقال كتابه « إن الذين فوقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء » فما بال الملة الاسلامية قد مزقتها المشارب وفرقت بين طوائفها المذاهب ؟

إذا كان الاسلام موحداً ، فما المسلمين عددوا ؟

إذا كان موليا وجه العبد وجهة الذى خلق السموات والارض ، فما بال جمهورهم يولون وجوههم من لايملك لنفسه نفعا ولا ضراً ولا يستطيع من دون الله خيراً ولا شراً ، وكادوا يعدون ذلك فصلا من فصول التوحيد

إذا كان أول دين خاطب العقل ودعاه إلى النظر فى الاكوان وأطلق له العنان يجول فى ضمائرها بما يسعه الامكان ولم يشرط عليه فى ذلك سوى محافظة على عقد الايمان ، فما بالهم قنعوا باليسير وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم ظنا منه أنه قد يرضى الله بالجهل واغفال النظر فيما أبدع من محكم الصنع ؟ ما بالهم وقد كانوا رسل المحبة أصبحوا اليوم وهم يتنسمونها ولا يجدونها ؟ ما بالهم بعد أن كانوا قدوة فى الجد والعمل أصبحوا مثلا فى القعود والكسل ؟ ما هذا الذى ألحق المسلمون بدينهم وكتاب الله بينهم يقيم ميزان القسط بين ما ابتدعوه وبين ما دعاهم اليه فتركوه ؟

إذا كان الاسلام فى قربه من العقول والقلوب على ما بينت ، فما باله اليوم على رأى القوم تقصر دون الوصول اليه يد المتناول ؟

إذا كان الاسلام يدعو إلى البصيرة فيه فما بال قراء القرآن لايقرأونه إلا تغنيا ورجال العلم بالدين لايعرفه أغلبه إلا تظنيا ؟

إذا كان الاسلام منح العقل والارادة شرف الاستقلال ، فما بالهم شدوها إلى أغلال اى أغلال ؟

إذا كان قد أقام قواعد العدل ، فما بال أغلب حكامهم يضرب بهم المثل فى الظلم ؟

إذا كان الدين فى تشوف إلى حرية الارقاء ، فما بالهم قضوا قرونا في استعباد الاحرار ؟

إذا كان الاسلام يعد من أركانه حفظ العهود والصدق والوفاء ، فما بالهم قد فاض بينهم الغدر والكذب والزور والافتراء ؟

إذا كان الاسلام يخطر الغيلة ويحرم الخديعة ويوعد الغش بأن الغاش ليس من أهله ، فما بالهم يحتالون حتى على الله وشرعه وأوليائه

إذا كان قد حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فما هـذا الذى نراه بينهم فى السر والعلن والنفس والبدن

اذا كان قد صرح بان الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين خاصتهم وعامتهم ، وإن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، وإنهم إن لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر سلط عليهم شرارهم فيدعوا خيارهم فلا يستجاب لهم وشدد فى ذلك بما لم يشدد فى غيره ، فما بالهم لايتناصحون ولا يتواصون بحق ولا يعتصمون بصبر ولا يتناصحون فى خير ولا شر ، بل ترك كل صاحبه وألقى حبله على غاربه فعاشوا أفذاذا وصاروا فى أعمالهم أفراداً لايحس أحدهم بما يكون من عمل أخيه كأنه ليس منه وكأن لم تجمعه صلة ولم تضمه اليه وشيجة ما بال الابناء يقتلون الاباء وما بال البنات يعققن الامهات أين وشائج الرحمة أين عاطفة الرحم على القريب أين الحق الذى فرض في أموال الاغنياء للفقراء وقد أصبح الاغنياء يسلبون ما بقى فى أيدى أهل البأساء

قبس من الاسلام أضاء الغرب كما تقول وضوؤه الاعظم وشمسه الكبرى فى الشرق وأهله في ظلمات لايبصرون . أصح هذا فى عقل أو

عهد فى نقل الم تر إلى الذين تذوقوا من العلم شيئا وهم من أهل هذا الدين أول ما يعلق باوهامأ كثرهم أن عقائده خرافات وقواعده وأحكامه ترهات ويجدون لذتهم فى التشبه بالمستهزئين ممن سموا أنفسهم أحرار الافكار وبعداء الانظار ، و إلى الذين قصروا هممهم على تصفح أوراق من كتبه ووسموا أنفسهم بانهم حفاظ أحكامه وقوام على شرائعه كيف يجافون علوم النظر ويهزأون بها ويرون العمل فيها عبثا فى الدين والدنيا ويفتخر الكثير منهم بجهلها كأنه فى ذلك قد هجر منكراً وترفع عن دنيئة فمن وقف على باب العلم من المسلمين يجد دينه كالثوب الخلق يستحى أن يظهر به بين الناس . ومن غرته نفسه بأنه على شىء من الدين وأنه متمسك بعقائده يرى العقل جنة والعلم ظنة : أليس فى هذا ما يشهد الله وملائكته والناس أجمعين على أن لاوفاق بين العلم والعقل وهذا الدين ؟

الجواب

ربما لم يبالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم بل من عدة أجيال وربما كان ما جاء فى الايراد قليلا من كثير . وقد وصف الشيخ الغزالى رحمه الله وابن الحاج وغيرهما من أهل البصر فى الدين ما كان عليه مسلمو زمانهم عامتهم وخاصتهم بما حوته مجلدات . ولكن قد اتيت في خاصة الدين الاسلامى بما يكفى للاعتراف به مجرد تلاوة القرآن مع التدقيق في فهم معانيه وحملها على ما فهمه اولئك الذين انزل فيهم وعمل به بينهم . ويكفى فى الاعتراف بما ذكرته من جميل اثره قراءة ورقات فى التاريخ على ما كتبه محققوا الاسلام ومنصفو سائر الاسلام . فذلك هو الاسلام .

وقد أسلفنا أن الدين هدى وعقل . من أحسن فى استعماله والأخذ بما أرشد إليه نال من السعادة ما وعد الله فى اتباعه : وقد جرب علاج الاجتماع الانسانى بهذا الدواء فظهر نجاحه ظهوراً لايستطيع معه الاعمى انكار ولا الاصم اعراضا . وغاية ما قيل فى الايراد أن أعطى الطبيب إلى المريض دواء فصح المريض وانقلب الطبيب بالمرض الذى كان يعمل لمعالجته وهو يتجرع الغصص من آلامه والدواء فى بيته وهو لايتناوله . وكثير ممن يعودونه أو يتشفون منه ويشمتون لمصيبته يتناولون من ذلك الدواء فيعافون من مثل مرضه وهو فى يأس من حياته ينتظر الموت أو تبدل سنة الله فى شفاء أمثاله

كلامنا اليوم فى الدين الاسلامى وحاله على ما بينا . أما المسلمون وقد أصبحوا بسيرهم حجة على دينهم فلا كلام لنا فيهم الا ن وسيكون الكلام عنهم فى كتاب آخر إن شاء الله .

نظرة[1]

على الاسلام والمسلمين

قد بسطنا فى فصولنا المتقدمة كل أصول المدنية التى انبنى عليها كل ماتراه من الترقى في العالم المتمدن وأقمنا الادلة الحسية على انها بعض قواعد الاسلام حتى يتخيل للرائى انها مستمدة منه وماخوذة عنه . وبرهنا ضمن ذلك على ان هذه الاسس الاسلامية لايحتمل ان يعتريها التبديل أو يعدو عليها التحويل لانها ملائمة لسنن الوجود ومطابقة لنواميس الحياة البشرية الثبتة بالحس مطابقة لايمكن نكرانها بوجه من الوجوه وقلنا ان كل ترق يحصل فى العالم وكل خطوة تخطوها العقول فى سبيل الكمال ليس هو الا تقربا الى الاسلام وانه سينتهى الامر يوما ما باجماع كافة عقلاء البشر على اعتبار الاسلام ناموسا عاما للسعادتين وضامنا لراحة الحياتين .

نعم الاسلام هو الدين العام الباقى بقاء الانام والقانون الذى تلمسه الفلاسفة الاعلام منذ الوف من الاعوام . اهتم عقلاء الامم من القدم بالبحث عن دين حق عام يقوم بحاجة الجثمان المادى والنفس المعنوية ويوفق بين مطالبهما على مقتضى ناموس عادل وقسطاس حكيم ويوجد النسبة الحقة بين اميالها بطريقة تمنع تسلط احدهما على الاخر . اهتموا بهذا الامر وتجسسوه من كل مظانة لعلمهم بأن الانسان المركب من نفس وجسم اذا يراع تمام الاعتدال في مطالب هذين الجوهرين وقع فى الافراط فى مطالب احدهما ومتى حصل له ذلك اخل بوظيفة الحياة ودفع نفسه فى تيار شديد القوى لايسرع به الا ليصدمه صدمة تذهله عن نفسه فيصبح جائحة على بنى نوعه أو عضوا مشلولا فيهم . رأى هؤلاء العقلاء وليس بعد الحس دليل اسطع ولا بعد

---

(١) من كتاب « المدنية والاسلام » لحضرة الباحث المحقق محمد بك فريد وجدى

حوادث التاريخ برهان اقطع على أن كل المذاهب التي لم تزن فطالب الجسم والنفس بقسطاس مستقيم ولم تحدد لكلا هذين الجوهرين ناموسهما القويم تقسم الامم التى تسود عليها الى قسمين عظيمين تدوم بينهما الفتن المرهقة والقلاقل المزعجة آمادا مستطيلة حتى يسود اخذ أولئك القسمين على الآخر ومتى امتلك حريته المطلقة ولم يجد امامه مقاوما يخفف من سيره تطرف واستدف لكل مايستلزمه الافراط في احد نوعى مطالب الانسان ولم يلبث ان تصيح به الطبيعة البشرية صيحة تردد مدبرا على عقبة فيصبح كأن لم يغن بالامس ومن يتصفح تاريخ الامم يرا بعينيه هذه الحقائق ساطعة واضحة لاتعوزه الى بحث طويل .

أما نحن فاول من يوافق هؤلاء الحكماء على افكارهم من ضرورة تلمس مذهب عام يوفق بين مطالب الجسم والنفس توفيقا عادلا ويربط صلاح احدهما بصلاح الآخر كما هو شانهما طبيعة . وقد اثبتنا فى فصولنا المتقدمة ان النفس عرضة للامراض المختلفة وللشفاء منها كما هى حالة الجسم سواء بسواء . ولما كان الرجل لايستطيع ان يحمى جسمه من عوارض الطبيعة المهلكة الا بتعلمه لقانون الصحة الجسمية فكذلك يجب أن يكون هو ذاته على علم بقانون يسمى بقانون الصحة النفسية ليستطيع أن يمنع نفسه من غوائل الأمراض المعنوية القتالة . ولما كان هذان الجوهران المركبان للانسان موضوعين بطريقة بها بتأثر أحدهما بمرض الآخر وجب أن يكونان ذانك القانونان اللذان يبحثان عن صحتهما متناسبين متلائمين لكيلا يكون فى السير على أحدهما اضرار بالآخر . هذه الحقيقة أصبحت فى هذا القرن خصوصا من البداهة التى لايمترى فيها لان حالة الوجود كله شاهدة بصحتها . وهذه الحقيقة نفسها هي التى بعثت خاصة علماء أوربا إلى تأليف ديانة سموها الديانه الطبيعية أسسوا بنيانها على دعائم البداهة العلمية والحقائق الفلسفية ونحن نستحسن أن نأتى فى هذ العجالة على أهم قواعدها مترجمة

من كتاب (الابحاث الاخلاقية على الزمان الحاضر) تأليف العلامة كارو قال : قواعد الديانة الطبيعية هى الاعتقاد بوجود اله مختار خلق الكائنات واعتنى بها وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الانسانى . والاعتقاد بوجود روح فى جسم الانسان متصفة بالذكاء والحرية ومحبوسة فى هذا الجسم المادى أمدا لتبتلى فيه . وهذه الروح يمكنها بارادتها أن تطهر هذا الجسم وتنقيه اذا عرجت به نحو السماء كما يمكنها أن تسفله باستئناسها بالمادة الصماء . والاعتقاد المطلق برفعة التعقل على الاحساس . ووضع الحرية الاخلاقية التى هى ينبوع واصل كل الحريات الأخرى تحت سيطرة الاعتدال الكلى . واعطاء الاخلاق الفاضلة اسمها الحقيقى وهو الامتحان والابتلاء وتحديد غرضها الحقيقى وهو التخليص التدريجى للنفس من علائق الجسم . والتهيء لساعة الموت بالزهادة . وأخيراً الاعتراف بقانون الترقى ولكن بدون فصل رقى النوع الانسانى فى مدارج السعادة المادية من العواطف الفاضلة التى هى وحدها تبرر تلك السعادة » .

لاشك أن كل من يمعن نظره فيما قدمنا من نصوص الديانة الاسلامية وفى قواعد هذه الديانة الطبيعية ير بعينيه أن الاسلام هو تلك الامنية التى تحسسها الفلاسفة وتلمسوها فى سائر أبحاثهم العلمية من قديم الزمان الى الآن ثم يندهش ويتعجب من الخطوات التى يخطوها النوع البشرى بين كل هذه القلائل الاجتماعية فى سبيل الرقى والتدرج متقربا كل يوم من قواعد الدين الاسلامى على غير علم من أفراده ويتأكد أن الاسلام هو الغاية القصوى التى وضعها الخالق جل شأنه أمام هذا النوع ووضع فيهم من القابلية والاستعداد لبلوغها ما تشاهد آثاره وأفاعيله في تاريخ الانسان مما هو مصداق لقول الله تعالى . « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . »

من هنا أيضا يدرك الممعن النظر سر ذلك التطور المدهش الذى حصل

فى الامة العربية فجعلها خير أمة أخرجت للناس بعد أن كانت من الوحشية بمكان ليس دونه مكان :

فلنبحث فى حالة المسلمين الآن وفيما هم واقعون فيه من العلل الاجتماعية التى انتهكت قواهم من منذ قرون عديدة لنعلم أين الداء وما هو الدواء . نعم بحث هذه المسألة قبلنا كتاب فطاحل ولكن فى غاية الاسف رأينا أكثرهم أغضى كل الاغضاء عن ذات العلة وأخذ يجهد نفسه فى مداواة الاعراض المرضية وهذا جهد لا يبلغ صاحبه أمنيته ما دام سبب المرض لم يزل ينتج أفاعيله على حسب قانونه الخاص به ويسير سيره الطبيعى فى جسم الهيئة الاجتماعية الاسلامية . أما نحن فلا نريد أن نسلك هذا المسلك الذى لم ينتج فائدة ما . بل نريد أن نثقب أغلفة أدواء الشرق المتراكبة على بعضها حتى نصل بعون الله الى معرفة ذات العلة . ومتى عرفناها سهل علينا ولا شك معرفة دوائها وكيفية تطبيقه فنقول :

يخفى على كل انسان أن مدنية المسلمين التى تكونت جرثومتها فى جزيرة العرب فتفرعت أفنانها فى مدة قصيرة الأمد على أكثر بلاد المشرق لم يكن لها من سبب أولى غير الديانة الاسلامية . ويتمكن كل انسان باستقرار التواريخ وعلوم العمران أن يستدل على أن هذه المدنية كانت أسرع المدنيات سيرا وأكثرها بهجة وأوسعها بقاعا وأعجبها منبتا وأقواها امتلاكا لازمة ذويها وتأثيرا على أذهان متبعيها . وانها كانت جامعة لناموسى كل السعادات الاجتماعية وهما العلم والعمل .

هذه أمور يهديها النظر المجرد فى تاريخ المسلمين فى مبتدإ امرهم ولكنا الآن لو اجلنا نظرنا جولة صغيرة على جميع الامم الاسلامية فلا نرى إلا عكس ما كان عليه آباؤنا الاول . نرى نواميس الانحطاط سائرة بنا القهقرى وآخذة فى محو أهميتنا شيئا فشيئا مع أن كل العناصر المكونة لمجموعنا لم تزل تدعى الاسلام وتحافظ عليه محافظة الانسان على فؤاده ، فهل ذلك مصداق

لقول متطرفى فلاسفة هذا العصر من أن شأن الديانات عموما تقييد الانسان عن الرقى ومنع النفوس عن التدرج فى معارج الكمال ؟ كلا . فان أقل نظرة فى حالة العرب فى جهالتهم ووحشيتهم قبل الاسلام ثم فى مدنيتهم وسرعة رقيهم بعده مما لم يعد له مثيل عند سواهم تدلنا دلالة واضحة على كذب هذه المقولة . اذاً هل هذا الاثر مصداق لقول معتدليهم من أن كل قاعدة مهما كانت ممدنة للامم ومرقية لشأنها فى عصر من العصور لم تخل من أن تكون محتوية على جرثومة تمنع الرقى فى المستقبل لمضادتها السنة الازمنة والمناسبات كلا. فانا درسنا أهم نواميس الاسلام فى كتابنا هذا درسا مدققا فلم نره إلا مطابقا لقوانين الحياة البشرية ملائما لقواعدها ورأينا رأى العين أنه لم يصنع للرقى حداً تقف النفوس عنده بل سن قواعد عامة وكسر كل قيد وضعه المتشرعون الاول جهلا منهم بسنن الحياة المستقبلة وأطلق كل خصائص النفس من أغلالها الأولى وترك اليها اعنتها ولكن بعد أن نقلها الى جادة الاعتدال والحكمة ونحن لانتظر أن يأتى زمان يقال فيه ان الاعتدال مذموم وأن المحمود هو الافراط أو التفريط . اذن ما هو السبب فى تأخر المسلمين حتى عن مساواة آبائهم فى عشر فضائلهم ؟ أما نحن فلا نجد السبب إلا فى هذا الامر المهم إلا وهو سوء فهمنا لمعنى الدين وحمله على غير المراد منه واليك التفصيل:

انا قد برهنا فى فصولنا السابقة بالاستناد على الآيات القرآنية والاحاديث النبوية وأحوال الجمعية الاسلامية الاولى على أن غرض الاسلام الاول هو ترقية شأن الانسان ماديا وأدبيا على حسب ناموس الرقى العام الذى استدل عليه باستقراء أحوال الانسان وتطوراته ؟ وانه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة مما يطهر النفوس من شوائبها ويجعلها صالحة لاداء وظيفتها إلا أشار اليها ونبه بالتعويل عليها وقد تكلمنا على كل هذا بتفصيل لم يجعل للشكوك محلا فى الاذهان ولا للريب مجالا فى الوجدان . ولكن بالقاء نظرة على مجموعنا الآن نرى سوادنا الاعظم لايفهم من الاسلام إلا أنه محض قواعد

للعبادة ومجرد دعوات يقصد بها قضاء الحاجات فى الدنيا أو نوال الدرجات العلى فى الآخرة ولا يعلمون منه إلا الشهادة والصلاة والصيام والزكاة والحج . وأما ما فيه من آيات الحكمة ومعجزات الفضائل التى بعثت الامة العربية من جدث خمالتها الاولى إلى ذروة جلالتها التالية فقد ضربوا عنها صفحا مع أنها هى لباب الدين وزبدة الاسلام والغرض الوحيد من انزاله وتشريعه .

جاء الاسلام موفقا بين مطالب النفوس من المقاوم المعنوية والمنازل الاخلاقية وبين مطالب الجثمان من الاشياء المادية ليكون متبعه انسانا كاملا عادلا بين مطالب طبيعية موفقا بين أميال جوهرية فيقول الله : « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين » . ويقول رسوله صلى الله عليه وسلم : « ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه بل خيركم من أخذ من هذه وهذه » . ولكن لوى سوادنا الاعظم الكشح عن تدبر هذه الحكمة البالغة وتابعوا أهواء الامم السابقة فى فهم الدين وزعموا أنه محض عبادة ومتابعة عادة ولهم في ذلك أفكار ما أنزل الله بها من سلطان . يقول الله تعالى : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » . ويقول رسوله صلى الله عليه وسلم « ان من فقه الرجل استصلاح معيشته وليس من حب الدنيا طلب ما يصلحك » . فأسدل الناس على هذه القواعد العليا أستار النسيان وزعموا من تلقاء أنفسهم أن الدين هو عبارة عن التفرغ الكلى من علائق الدنيا والانفراط المطلق من كل الاميال البدنية . فعلوا كل هذه ولم يعلموا أنه السرطان الذى أباد الامم السابقة والطاعون الذى استأصل النحل المتقدمة . ولكن كيف يتأتى لهم أن يعلموا ذلك وهم منزوون فى محالهم جاعلين سداً منيعاً بينهم وبين هذه الآية : « أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

هذا الفهم السيء فى معنى الدين أدانا الى تغيير معنى التقوى عما كانت عليه فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزر من أصحابه الكرام، فالتقى على حسب فهم دهمائنا الآن هو الرجل الذى خيم عليه الخمول والكسل وترك الجد والعمل ولم يترك له فى الدنيا أقل أمل، وكان على تمام الجهل باحوال الاواخر والاول، والذى ان مشى كان على مهل، وان جلس كان فى عنقه ميل، وإن دعى إلى مهمة أورثها الخلل والزلل، هذه هى صفة التقى عند أكثرنا الآن وهو كما يراه كل متأمل في أحوال سلفنا الصالح مغاير تمام المغايرة لما كانوا عليه مناقض له على خط مستقيم، كيف لا وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم أئمة التقوى وأمثلة الكمال الدينى كانوا كما يعلمه الخاص والعام ويرويه التاريخ للانام رجال الجد والعمل وأهل الشيم والهمم وقادة العلماء والعظم لم يتركوا مظنة للفخار الا وردوها ولا راية للمجد إلا رفعوها حتى اعلو كلمة الحق على الاباطيل وقوضوا دعائم الجور والاضاليل مما يدل مطالع سيرتهم على همة لو صادت الجبال لسحقتها سحقا أو لحظت الثريا لحققتها محقا، همة يقف أمامها غطاريف هذا العصر حيارى ولا تعد همتهم بجانبها إلا عجزا وانتصاراً، همة عرجت بنفوسهم الى سموات الرفعة عن دنايا الامور وسفاسف الاعمال وعلت بهم عن التدنى للفجور وخسائس الاميال، همة كما زادتهم عن الرتوع في مموه السهوات بعثتهم الى منازل الكمالات وكما ردتهم عن وهاد الزلات حثتهم الى تسنم نجاد المكرمات حتى صاروا ملائكة فى صورة آدميين ونوراً ساطعا ولو كان غلافه من طين وهذه هى التقوى التى رسمها الاسلام لمتبعه وخطها لذويه لا مانراه الآن من التقوى التى لو طبقت على الاسلام لرأيناها عين الفجور ونفس المحظور.

هذا الفهم السيء في التقوى الذى اوقعنا فيه جهلنا بحقيقة الاسلام جعلنا تقسم الناس الى قسمين قسم سميناه أهل الدنيا وهم الذين يعملون لفلاح البلاد وصلاح العباد سواء بصناعاتهم اليدوية أو بابحاثهم الفكرية وقسم سميناه

هل الاخرى وهم الذين تركوا الدنيا جانبا وأوقفوا أنفسهم على الصلاة والصيام والمشى في الطرقات خلف الطبول وتحت الاعلام ، وانبنى على هذا التقسيم الوهمى الذى تاصلت جذوره فى العالم الاسلامى من منذ قرون عديدة أن وقف أهل الدنيا أنفسهم لتعلم العلوى التى عليها مدار السعادة المادية كما قصر أهل الآخرة انفسهم على الاشتغال بالعلوم العبادية ، فصار القسم الاول بهذا الاعتبار جاهلا للدين جهلا يوقعه فى الشكوك والشبهات وصار القسم الثانى جاهلا للدنيا وأمورها جهلا أداه الى العماية من سياسة أحواله المعاشية فوقع فى العوز الذى أداه الى مد يده وأراقه ماء محياه ولو كان ذلك تحت ستار رقيق وحاجز شفاف .

هذا التفريق بين الدين والدنيا مناقض تمام المناقضة لمبادىء الدين الاسلامى من كل وجه ومعارض لاوامره بل ومعطل لاكثرها تعطيلا .

قلنا فيما سبق ان الاسلام هو الدين العام الذى يوفق بين مطالب النفس والجسم توفيقا لا حميص منه لمن اراد أن يستقيم على الجادة الحكيمه واثبتنا ذلك بالادلة القاطعة وقلنا ان الانقطاع للعبادة ليس من مقررات الاسلام « من تبتل فليس منا » وانه جاء لصلاح الدين والدنيا معا « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخره حسنة ☆ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم . » وأكدنا بالادلة الناطقة انه يحض على الكسب والعمل ويردع عن الخمول والكسل بعبارات أشد تأثيرا على الاذهان من أقوال فلاسفة هذا الزمان وان الاعمال فى نظره مرتبطة بنية الفاعل ومقصده فان ترك الانسان المحرمات كلها وكان مقصده الرياء عد منافقا مزوالا وان نوى صالحا فاخطأ فيه كان مثابا مأجورا قال عليه الصلاة والسلام « انما الاعمال بالنيات » قال على رضى الله عنه مامعناه : « من أخذ الدنيا بما فيها وأراد بها وجه الله فهو زاهد ومن ترك الدنيا وما فيها ولم يرد بها وجه الله فليس بزاهد »

قلنا كل هذا أو ما يقرب منه فى فصولنا المتقدمة وأقمنا عليه الادلة التى لاتقبل النقض وتزيد هنا تحويل الانظار الى أحوال الجمعية الاسلامية الاولى فان افرادها لم يكونوا منقسمين الى قسم دنيوى وآخر أخروى . بل يروى لنا التاريخ انهم كانوا كلهم يدا واحدة فى العمل للدين والدنيا معا فان أبا بكر وهو أول المسلمين كان تاجرا ولم يبطل مهنته إلا حين تبوأ عرش الخلافة وروى الامام احمد بن حنبل ان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يتجرون فى البر والبحر ويعملون فى نخيلهم . ولقى ابو قلابة رضى الله عنه صديقا له فى المسجد فقال له : « لان أراك تطلب معاشك خير من أن أراك فى زاوية المسجد » وكان عمر رضى الله عنه يقول « مامن موضع يأتينى الموت فيه أحب الى من موطن أتسوق فيه لأهلى أبيع وأشترى » ذلك لان النبى صلى الله عليه وسلم كان يحثهم على العمل للدنيا كما يحثهم على العمل للاخرى فكان يقول « اعمل لدنياك كانك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كانك تموت غدا » ويقول « احرثوا فان الحرث مبارك » ويقول « اطلبوا الرزق فى خبايا الارض » ويقول « تسعة أعشار الرزق فى التجارة » ويقول « العبادة عشرة أجزاء تسعة منها فى طلب الحلال » .

هذه هى نصوص الديانة الاسلامية واحوال جمعيتها الاولية فى عدم التفريق بين الحاجيات الدينية والدنيوية وهذا هو عين السبب الذى حمى المسلمين فى مبدأ امرهم من الانقسام الى حزب دينى وحزب دنيوى وهو الامر الذى يوجد التخالف بين نزعات الامة وينشىء التناقض فى أغراضها فيتولد التضاغن والتباغض بين آحادها رغما عن كل عوامل التأليف بينهم وبمرور الزمن يستحيل الأمر الى حدوث تلاطم بين هذين القسمين تلاطما يفضى بالجمعية الى الفوضى الفكرية ومتى تاصلت تلك الفوضى تفككت عرى الجامعة الاساسية التى تربط اجزاء الامة بعضهم ببعض وأخذوا يشعرون بسريان الفساد على مجموعهم وسوء منقلبهم فى مستقبلهم . فاذا انتهى حال

الامة الى هذه الدرجة اخذ القسمان الدينى والدنيوى يتبادلان القاء المسؤلية على بعضهما فينسب الدينيون ذلك الفساد الطارىء الى تمادى الكافة فى شهواتهم البهيمية ويعزوه الدنيويون الى تقصير أساتذة الدين عن الارشاد والقصور عن قمع نزعات ذوى الاهواء ويستمرون فى هذه الملاجة الفارغة بينما تكون جراثيم الفساد آخذة فى التفشى والانتشار جارفة الامة أمامها الى مهاوى الدمار والبوار .

هذه هى حالة الامة الاسلامية فانها بعد أن طرأ عليها من الحوادث ما فصم وحدتها الاولى فاوقعتها فيما وقعت فيه الامم السابقة من الفصل بين الدين والدنيا وبين اهلهما أخذ كل فريق ينابذ الآخر ويلقى التبعة على عاتقه ولعل جيلنا الحاضر هم أكثر الاجيال شعورا بضرورة فضائل الاسلام لبناء ما تهدم من مجدنا وأشدها تقريعا لعلمائنا فى تقصيرهم عن الارشاد والتعليم على حسب مقتضيات الزمان الحاضر . نعم اننا لنشعر بتهيء النفوس الى انتشاق نسمات الكمالات الاسلامية المنعشة لتبرأ مما تراكم عليها من جراح الفساد الاخلاقى الذى قد عم وطم وساق النشاة الحديثة الى نقطة فقدت فيه الاحساس إلا بالدنايا والادناس . نعم انا نرى بوادر ذلك الشعور لائحة الا اننا نستميح من قرائنا الحرية لاجل ان نقول أن ذلك الشعور لم يستكمل شرائطه الضرورية فكأنى بالناس يريدون أن تمطر السماء عليهم هذه الفضائل الاسلامية فتغمر اقاصيهم ودانيهم وهم جالسون على أسرتهم منصرفون عن كل ما يقرب ذلك الامل أو يجعله ممكنا . بل كأنى بهم يرون أن تلك الفضائل لايمكن تاتيها إلا بواسطة رجال يلبسون شكلا خاصا من الالبسة أو يقرأون كتبا مخصوصة في العلوم .

كلا . فاما ان ظننا ذلك فقد بخسنا بحقوق عقولنا . وكنا كالكسالى يودون لو يرزقوا بكل حاجياتهم وهم قعود فى دورهم المنزوية . كلا . ان الفضائل

الاسلامية التى كان يفهمها الاعرابى الخلوى فى مدة قصيرة لاتعسر مطلقا على نشأة هذه الامة المتهذبة .

أسس الاسلام لا تحتاج لاجل أن تنفذ الى العقول إلى جدال أو الى تمهيد بل هى قواعد سهلة المأخذ واضحة المسالك تشعر النفس عند علمها بها بطمأنينة وراحة لايستطاع التعبير عنها بوجه من الوجوه . فان كان الرجل عالما بحقائق الكون وأراد أن يفسر سر تلك الطمأنينة التى سادت على نفسه فاستقرت بعد اضطرابها وهدأت بعد ثورتها فما عليه الا أن يتدبر فى أسرار الخلق وفى تكاليف الحياة البشرية وفى النواميس الناطقة السائدة على مجموع هذا الكون باسره وفى الغرض الذى يسعى اليه الانسان رغما عنه ليرى بعينيه عيانا أن تلك الاسس الاسلامية على سهولتها وسرعة تعقل الجاهل لها هى الحجة الوحيدة التي توصل الانسان سعادة مادته ومعناه وراحة دنياه وأخراه . وأنها هى نفس الحجة التى خلق الانسان مطبوعا على تلمسها رغما عنه والتى يراها الآن علماء العالم على بعد منهم ويسعون فى تذليل كل الصعوبات للوصول اليها .

اذا كان هذا شأن أسس الاسلام من السهولة ومتانة القواعد فلماذا يتباكى على فقداننا تلك القواعد ونشتكى من قصور المرشدين عن ابانته مع أنها مبسوطة باصرح عبارة وأرق اشارة فى القرآن الشريف وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كتبه سلفنا الصالح ؟ هل يظن المسلمون أن الله تعالى لم ينزل القرآن الا ليفهمه رجال مخصوصون أو ليقرأ سردا وبدون تعقل على رؤوس القبور وفى أوساط الطرقات أو ليتلى بألحان الغناء فى ليالى الافراح بين لغط الترجيلات ودخان السيجارات ؟ أم هل يظنون أن أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لايصح أن تتلى الالقضاء الحوائج

وحصول البركات فى المنازل ؟ ليعلم المسلمون ان كل هذه الامور تنافى الاسلام وتساعد على اسجلاب سخط رب الاسلام

ان القرآن وهو مجتمع زبد الحكمة وأحاديث رسول الله وهى خلاصة قوانين العمران لم يامر الله بتدوينها فى الطروس ونشرها بين سائر طبقات الأمة الا ليتدبروا حكمها ويأتمروا بها فانها ملاك السعادتين ومساك الحياتين وفى تاريخ المسلمين أكبر حجة على قولنا هذا . هانحن شعرنا بالحاجة الى كمالات الاسلام فما بالنا قعود عن أخذ حاجتنا منه كل على قدر استطاعته « ولا تكلف نفسا الا وسعها »

ألسنا الآن كالكسالى يرون الغذاء أمام أعينهم وهم على شفا الهلاك من الجوع فينتظرون انصباب الطعام الى افواههم بدون مد أيديهم

أليس من العار الشائن أن نصرف كل أوقاتنا في مطالعة روايات (ايميل زولا) و (پول بورجيه) مع ضننا بجزء من ذلك الزمن على مطالعة ذلك الكتاب الذى جمع بين دفتيه أسرار هذا الوجود باسره

اندعى التمدن والتنور ونميل للتشبه بالمتمدنين فى الجرى وراء اكتشاف مساتير الكون ونرى القاعدين منا بالخمول والموت الفكرى ونخنى رؤوسنا اعجابا بنظريات (سبينسر) فى العمران و (جمبتا) و (تيروس) فى السياسة و (ريبو) فى الفلسفة حالة كوننا صارفين النظر عن تدبر أسرار ذلك الكتاب (القرآن) الذى افنى علماء العالم كله أعمارهم فى تدبر بدائعه وحكمه لما وصلوا الى جزء منها .

لعلنا نخجل من الاشغال بالأمور الدينية تقليداً لغيرنا خشية من أن نتهم بالقصور العقلى : ان كان كذلك فهو تقليد أعمى كان يغنينا عنه احالة نظرنا قليلا فى كتابنا السماوى لنرى ان الاسلام ليس بالدين الذى يامر بالانزواء والاستكانة أو بالتعصب مع الانغماس في المهانة أو باضناء الجسم في العبادة مما هو مناف لمطالب المدنية الحاضرة والمستقبلة بل هو الدين الذى

يامر بالكد والعمل ويحبب للانسان السؤدد وعلوالهم ويهديه الى الفضائل والشيم . كل ذلك بحكم لاتقارن حكم الفلاسفة بها الا كما يقارن نور المصباح بنور الشمس فى رابعة النهار . فالمتكلم فى الاسلام والحالة هـذه لايكون مردد الافكار قامت بتكذيبها الشواهد الحاضرة بل يكون ناطقا عن لسان الحكيم العليم بحكم لاياتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . بنظريات تصحيح بالدلالة عليها ألسنة هذا الوجود الصامت . بقواعد لايعتريها خلل ولا يعتورها زلل . باسس عليها يقوم العمران ومنها يشرف الانسان على جنان العرفان . بانوار تنفذ الى صميم الفؤادفتشرق فيه شمسا لايخبوا ضياؤها ولا تنطمس لآلئها تنير على المرء حزون هذه الحياة الكدرة وتفك له عقدها العسرة . تداوى جراح الافئدة مما أصابها من سهام الحوادث وتضمد جروحها من طعنات الكوارث وتطرد عن النفوس شياطين أوهامها وتطردها من غاشيات أحلامها فتسكن بعد اضطرابها وتجعلها تتجه الى اسعادها من بابها وتمزق دونها كثيف حجابها حتى تجعلها صالحة لأن تطل على الملكوت الاعلى وتنال منه زبد العلم الاجلى .

ألا تنظر الى حالة العرب من الخشونة والجهالة والهمجية قبل اشراق الاسلام عليهم ثم إلى مصيرهم بعده ؟ ان الرجل منهم فى الجاهلية كان يذهب بابنته إلى الفلاة وهى على ذراعه فيحفر لها حفرة وهى تنظر اليه وتحنو بفوائدها عليه فلا يجد فى نفسه فؤاداً يحن عليه وكان يدفنها حية بيديه ثم يذهب الى اهله فرحا مسرورا كأنه لم يفعل الا ما يستحق حسن السمعة ويغسل عنه وضر الشنعة . تدبر بعيشك الى هـذه القلوب القاسية والاحساسات العاتية ثم انظر اليهم بعد اعتناقهم للاسلام ترى ماذا ؟ ترى رجالا نالوا من العواطف الكريمة ما لم ينله رجل ربى فى مهد الحكمة وغذى بلبان الرحمة . ترى أمثلة للشهامة والفضيلة ، وأساطين للسجايا الجليلة والاخلاق الجميلة قاموا يعلمون فلاسفة الاخلاق بمثالهم ومقالهم قصور

ما دونوه فى أسفارهم : ترى اناسا نورهم يسعى بين أيديهم وفضلهم يغمر قاصيهم ودانيهم يفضلون الملائكة تقوى ووقاراً ويفوقون الاكاسرة همة واقتداراً . انظر إلى عمر بن الخطاب وهو الذى تعلم تاريخه فى زمن الجاهلية والى ماذا آل أمره بعد أن أسلم ببضع وعشرين سنة آل أمره الى ادراك حكمة وسياسة وثبات أعز بها الاسلام والمسلمين وحفظ بها قوام ملكه العظيم مما يقصر عنه أكبر ملك تربى فى مهاد التشريع ويكبوا دونه أعظم فيلسوف ولد فى حجر الحكمة والسياسة وبلغ من رقة الفؤاد والتقوى درجة كان يسمع الآية من كتاب فيغشى عليه منها أو يمرض لاجلها أياما عديدة فكان المتنبى عناه بهذا البيت :

قسا فالأسد تفزع من يديه ورق فنحن نفزع أن يذوبا

من أين حصل له هذا وبماذا ناله ؟ هل درس الاخلاق فى مدارسها الكلية أو علم العمران فى المجامع العلمية أو السياسة على المنابر البرلمانية او التشريع فى المدارس الحقوقية ؟ — كلا . لاشىء من ذلك ولكنه كان يتلو القرآن وأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم ويتدبر فيهما ويسال غيره فيما كان يتعسر عليه منهما .

هذا رجل واحد قد ضربناه لك مثلا لترى بعينيك سلطة الدين الاسلامى فى احالة الطباع وسرعة تأثيره فى تغيير اتجاه النزعات وفى تنوير أذهان أبنائه ومتبعيه .

فما بالنا ننبذ هذه الكنوز وراء ظهورنا ونظل نتساءل عن حكمة نتعلمها أو أخلاق نتصف بها ونقتنع بعد اخفاق المسعى بان نلقى تبعة فسادنا على غيرنا ونهدر بشقاشق تسىء حالنا وتقبح مآلنا تاركين حكم الله تعالى وسنن رسوله مقصورة على والمدافن يتلوها رجال لا خلاق لهم من العلم؟ هكذا نفعل كلنا الآن والله شهيد علينا حيث يقول « واتخذوا القرآن عضين فوربك لنسئلنهم أجمعين »

خلاصة القول أن دواء المسلمين الوحيد هو أن يفهموا معنى الاسلام ويدركوا أن غرضه الاول هو ترقية حالتى الانسان المادية والادبية معا لارتباطهما ببعضهما ارتباطا كليا لاجل أن تستطيع النفس أن تعرج الى ما أعد لها من مقاوم العلاء عروجا سريعا . وأن يفقهوا أن لفظة عبادة فى الاسلام لاتغنى العبادة الجسمية من ركوع وسجود فقط بل أن كل ما يفعله الانسان مريداً به أمراً ينبنى عليه اصلاح لذاته أو لعائلته أو لجمعيته أو لبنى نوعه أو للكائنات كلها هو نظر فى الاسلام من أحسن انواع العبادة والشرف أشكال الطاعة لله عز وجل : « ان المؤمن ليؤجر فى كل شىء حتى فى اللقمة يرفعها الى فىّ امرأته ☆ والشاة ان رحمتها يرحمك الله . » حديثان شريفان وأن يدركوا أن الاسلام لايعارض التقدم فى الصناعات والاكتشافات بل يحث عليها ويندب اليها ويؤاخذ المتقاعسين عن مجاراة غيرهم فيها . هذه الاسس تنطق بتأييدها مئات من الآيات القرآنية وألوف من الاحاديث النبوية وأحوال الجمعية الاسلامية الاولية حتى أن المرشد المتنور ليستطيع أن ينقشها في مخيلة تلميذه فى درس واحد .

هذا هو دواء المسلمين ولكن دون وصوله للعامة المحرومين من المطالعة والاطلاع عقبات لايزحزحها عن مواضعها الاكرور الزمان عليها وحصول مناسبات مساعدة لنشرها .

وانا نختم مقالنا هذا برفع أكف الرجاء الى الله عز وجل أن يهدينا الى صراطه المستقيم ومنهاجه القويم وأن يوفقنا للسير على هدى رسوله الكريم وأن يحسن خواتمنا أجمعين . وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه ومتبعيه وسلم تسليما كثيراً .

مؤتمر التربية الاسلامى [1]

« فى كلكتا »

أشرنا فى المؤيد الى اخواننا فى الهند عازمون على عقد مؤتمرهم الخاص بالتربية في مدينة كلكتا عاصمة البلاد الهندية ، وقد جاءت الجرائد الهندية وكلها ملآى بمباحث المؤتمر والخطب العديدة التى ألقيت فيه حتى اضطر معظم الجرائد الاسلامية الى اصدار ملاحق خاصة بها وجريدة (مسلم كرونكل) الشهيرة التى تصدر في الاسبوع مرتين صارت تصدر يوميا فى حجمها المعتاد

ولعمر الحق أن نطاق المؤيد ليضيق عن نشر مفصلات هذا المؤتمر وما تناول من مباحث اخواننا المسلمين الذين تتالم نفوسهم وتشعر عواطفهم بضرورة العمل لايجاد نشأة اسلامية تنهض بالمسلمين من الوهدة التى سقطوا فيها بجهلهم وخمولهم بل اننا لو حاولنا نشر مظاهر السرور التى كانت تبدو على وجوه المسلمين فى ذلك اليوم كما شرحته الجرائد الهندية وهروعهم الى محل الاجتماع حتى صار عدد المجتمعين لايقل فى كل يوم عن ألفين من المسلمين كانما على رؤوسهم الطير كل يحمل فى صدره آمالا ملؤها حب التقدم والرفعة لكافة اخوانه ، أوحاولنا أن نترجم أقوال الخطباء وخصوصا خطبة رئيس المؤتمر الفاضل القاضى أمير على (صاحب المقالة التى نشرت فى مجلة القرن التاسع عشر الانجليزية عن حقوق النساء فى الاسلام كما يعرف ذلك كثيراً من القراء) فانه قد ألقى خطبة بليغة تستغرق الصحائف العديدة بحث فيها عن حالة مسلمي الهند بنوع خاص واستطرد الى الوسائل التى

---

(١) المؤيد ١٨ و ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ يناير سنة ١٩٠٠

ترقيهم والتربية التى تفيد أبناءهم ثم التفت الى المسلمين عموما فى كافة بقاع الارض وقارن بين تاريخهم الماضى وتاريخهم الحاضر مما سيراه القراء ملخصا فى هذه الرسالة أو حاولنا أن ننقل أقوال الخطباء الآخرين لاستلزم ذلك صدور المؤيد فى مائة صحيفة لا فى ثمان لكن ذلك لا يمنعنا من أن نلخص أعمال المؤتمر وننقل للمصرين أهم الموضوعات والعبارات التى تستلفت نظر القارىء وتطوى فى ثناياها حقائق تفيد المسلمين معرفتها

وقبل أن نبحث فى أعمال المؤتمر ننشر للقراء خلاصة ما كتبته الجرائد الهندية الاسلامية من عندها على المؤتمر وآراؤها فيه . قالت جريدة مسلم كرونكل .

« سيكون يوم ٢٧ ديسمبر سنة ٩٩ نقطة خضراء فى صحراء ذاكرة المسلمين عموما وأهل كلكتا منهم خصوصا لانه يوم رأى فيه المسلمون بعضهم يكاتف بعضا والغرض الذى يدفعهم لذلك هو نشر التربية والتعليم بين كافة المسلمين لينهض الشعب الاسلامى فى الهند نهضة الاسد القسور فيعود اليه ماضى عزمه وحزمه . كذلك لا ينسى أحد أن المؤتمر ينعقد لاول مرة فى كلكتا عاصمة البلاد الهندية وان هذا المؤتمر الذى أسس من سنين عديدة لا يزال قويا بهمة مؤسسيه الذين استفادت البلاد من أعمالهم فائدة عظمى ، ومتى تصور القارىء أن عدد الحضور فى الجلسات لم يقل عن الالفين فانه يتصور ضرورة النظام الواجب المقام والاستعدادات التي اهتم أعضاء المؤتمر بشأنها » ثم استطردت الجريدة الى وصف المحل الذى أعد للمؤتمر وهو إحدى سرايات أكبر العائلات الاسلامية واثراها .

وقالت جريدة (بنجاب ايسر فير) ما ياتى : كان يوم ٢٥ الجارى (ديسمبر) يوما مشهودا فى محطة « خوره » ـ محطة السكة الحديدية كلكتا كان منظرا مؤثرا فى ذاته سيبقى فى ذاكرة المسلمين الى ما شاء الله . فما كاد ينبلج نور الصباح حتى هرعت الوفود وازدحمت الاقدام وساد النظام فى

المحطة حتى استغرب الامر كثير ممن لم يقفوا على سره وغاية ما توهموه ان هناك حركة جديدة دبت فى نفوس مسلمى البنغال (الجزء الشرقى من الهند) ثم أقبلت القطارات تحمل المسلمين من جميع البقاع الهندية فى ملابسهم الهندية بين لابس العمامة المعروفة وبين لابس للطربوش العثمانى وبعد ان التقت وجوه المستقبلين بالقادمين ذهبوا جميعا الى المحل الذى اعد لاجتماع اعضاء المؤتمر . وهذا المؤتمر قد اسس من زمن مديد تحت رعاية وبهمة فقيد الوطن المرحوم السيد احمد خان وبمساعدة المستر (تيودوريك) الصدق الحميم للمسلمين الذى توفى منذ بضعة شهور و نضم له فى ذلك الوقت من كبار المسلمين ما جعل له نهضة عالية لاتزال آثارها باقية لليوم وممن حضروا فى هذا اليوم الى المحطة من الاعضاء نواب مجلس الملك وسردار محمد هيات خان (حامل نيشان الهند) ومولانا نادر احمد والاستاذ شبلى والسيد شاه الدين (دكتور فى علم الحقوق) المحامى وشاء زاده سلطان احمد واحمد عبد القادر وصاحب جريدة بنجاب ابسر فيرخان بها دربكة الله ونصر الله خان شاه بزاده وغيرهم كثيرون » .

ولنعد الى المؤتمر . قالت جريدة مسلم كرنكل : اجتمع الاعضاء وقام الرئيس وهو العالم الفاضل (أمير على) وألقى الخطاب الآتى :

أيها السادة : انى أعتبر الشرف مزيد : مزيد الشرف فى انتخابكم إياى الرئاسة هذه الجمعية الاسلامية وأؤمل ان تحملنى عن ثقتكم على تأدية الواجب الذى يدعو كل مسلم الى القيام به واننى أهنىء هذه الجمعية وأعضاؤها على ما أظهروه من الثبات فى تأدية العمل الذى كلفوا به أنفسهم أما غاية المؤتمر فانها غير خافية على أحد وكيف تخفى وكلنا يعلم أن القصد من هذا الاجتماع هو العمل لما فيه الصالح العام لجميع مسلمى هذه الديار ولا يسعنى كذلك اعلن استحسانى من اختيار عقد المؤتمر هذه السنة في مدينة كلكتا لانى ارى انه من الواجب على جماعة صرفوا قلوبهم لخدمة المسلمين أن لايقصروا

أعمالهم على جهة واحدة وأن ولاية بنغال بما يتبعها من ولايتى بيها وأوريسا تستدعى اهتمام المؤتمر وعنايته

ايها السادة ان أعمال الرجال الذين سبقونا وصاروا اليوم فى عالم غير هذا العالم لا تزال ناطقة بحسن مساعيهم التى انتجت تاسيس المدارس التى نراها اليوم زاهية زاهرة تؤدى وظيفتها بكل نجاح وفلاح ثم بعد أن شرح الخطيب حالة المدارس الاسلامية الموجودة فى بلاد الهند عطف على التربية اللازمة ففال « واننى أعتقد تمام الاعتقاد أن التربية التي لا تربى أخلاقا وتكون رجالا لا فائدة فيها بل لاتسمى تربية . يلزم أن تقصد التربية لتهذيب النفس وترقية مدارك الانسان الوجودية وبعث النظام الحيوى الاجتماعى فى عقول الناشئة وهذا مالم يتبع فى مدارسنا اليوم إلا بعض الاحايين الخصوصية ، أجل أن مسلمى الهند هم من سلالة عناصر متنوعة من ممالك مختلفة تجمعهم الرابطة الدينية ويلم شعثهم الاخاء الاسلامى المتين . وقد كان التعليم فى الزمن السابق دينيا محضا وحبذا لو سار على محور الجمع بين الدين والدنيا فانه قد تطرف فى الاول وأخل اللازم لضرورة الحياة الاجتماعية وهل تنتظرون من أولادكم وهم رجال المستقبل أن يعملوا لصالح امتهم وانفسهم الا اذا كانوا فى درجة من التربية الحقة تساعدهم على السعى فى مضمار الحياة الذى حربه المنافسة والمزاحمة ؟ لا سبيل لذلك إلا بخلع التقاليد القديمة والاوهام التى لم تعد لها قيمة فى الوجود ويأخذ العلوم الغربية والمدنية العصرية مصحوبة بآدابكم الاسلامية ومعتقداتكم الدينية

أقول العلوم الغربية لانى أعتقد أن النور اليوم يأتى من الغرب بعد أن كان يشرق من الشرق . فقد كان مسيحيو أسبانيا منذ عشرة قرون في ظلوم الجهل فلما دخل العرب بلادهم أخذوا العلوم عنهم وتمسكوا بآدابهم وتربوا على مدنيتهم واليوم كذلك نجد عقلاء هذا البلاد يميلون إلى الاخذ من علوم أوروبا ومدنيتها والسير مع الزمان في مضمار الحياة العصرية ،

ولا أنكر أن بعضكم يستدرك على بالانتقاد أن ذلك يستدعى فقدان الجامعة الملية : فاقول لكم ان ذلك مبحث آخر ولا تفقد الجامعة أو تضمحل إلا من التفريق والانشقاق الناشئين من الجهل لا من العلم . وان ضرورة احتكاك العناصر ببعضها تستدعي أن يندفع كل عصر فى تيار المنافسة وإلا فقد نفوذه وسقط فى هوة التأخر والاضمحلال .

فلنطرح رداء الماضى الميت ولنعمل مع الحاضر الحى فنجمع بين المنافع من المدنية الغربية وعلومها وما تستدعيه الروابط الملية القومية لايامنا فان العالم قد تغيرب احواله تغيرا عظيما من يوم كان العرب اصحاب السيادة والمعارف يعلمون الناس الحكمة والعلوم .

المعارف قوة . ومع المعارف ذهبت القوة من الشرق الى الغرب المعارف ثروة ومع المعارف نزحت الثروة من الشرق الى الغرب ، وبالمعارف تتمكن الامم التى فقدت قوتها وثروتها من ان ترد شيئا من ماضى مجدها وقوتها

نحن اليوم على عتبة باب قرن جديد واى رجل لا يمتلىء قلبه سروراً كلما تخيل الآمال التى تفتح مجالها أمام أعيننا والممكنات التى قد نتركها فى هذا القرن القادم علينا ؟ يجب أن يؤمل الناشئون منا أن القرن الذى سمح لهم الدهر بالوجود فى فاتحة أيامه ستكون أيامه نقطة بيضاء لامعة فى تاريخ تقدم أفكارنا وارتقاء مداركنا وأعمالنا وأن يعتقد كل فرد منا أن في سعيه فائدة ملته وبلاده وأنه قد يكون سببا في رفع شأن اخوانه وأمته ، واعتقدوا انكم فى وقت اذا لم نستفيدوا منه ضاعت عليكم الفرص وندمتم حيث لاينفع الندم . ثم انتقل الخطيب الى وصف حالة شعوب الهند وصعوبة الحكم فيها ورضى كل فريق إلى ان قال :

ولما كانت البلاد بهذا الخطل فلا ينتظر من الحكومة ان تجعل نظام المدارس على ما نحب ونهوى ويكون لمصلحتنا دون سوانا . وعلى ذلك

فالنظام الموجود باجماع آراء المسلمين لا يفيدنا فى تعليم أبنائنا وليس في الامكان ادخال الاصلاح الذى قرأه لازما لنا ، والامر بعد التجربة أرى أنه يلقى على عاتق المسلمين انفسهم لانهم أولى باصلاح حالهم ولا خلاف فى أن المسلمين اليوم قد تنبهوا الى ما يلزمهم وعرفوا أن الجهل مضرة كبرى وما يتعلق بهم والواجب عليهم اليوم أن يعملوا ويندفعوا في تيار التنافس ونبذ الشقاق والاختلاف فقد قال الله فى كتابه الكريم (ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم)

الوقف والتربية الدينية العصرية

بعد أن بين الخطيب لسامعيه أن نجاح المسلمين يتوقف على أعمالهم والاعتماد على أنفسهم قال : « نعم اننا نستمد المعونة من الخالق جل وعلا ولكن العمل يجب أن نكلف به أنفسنا « وان ليس للانسان الا ماسعى ». الا أن بعضهم يستدرك على بقوله « كل ماتقوله نحن نصدق به وأن الارادة تملأ صدورنا ولكن كيف السبيل إلى ابرازها من حيز الفكر إلى حيز القوة ؟ وماهى الوسائط الفعالة لادراك غايتنا ؟ » فاجاوب على هذا الاعتراض باختصار وايجاز لضيق المقام اذ لدينا عدة نقط مهمة نبحث فيها »

ثم تكلم الخطيب عن المدارس الاسلامية الموجودة الآن فى البلاد الهندية وأهمها « مدرسة عليكره » التى أسسها المرحوم السيد احمد خان وأشار إلى وسائل الاصلاح فى هذه المدارس ومايلزم لها من التغيير لتكون صالحة لتربية رجال يعتمد عليهم فى رفعة شأن المسلمين ثم انتقل إلى الكلام عن الأوقاف فقال ما ترجمته بالحرف الواحد :

« لا أنكر أيها السادة أننا جئنا في وقت متاخر لرفع هذه الملة من وهدة الخراب وانه ليس في امكان أحد من البشر أن يعيد إلى العائلات المضمحلة اليوم والتى كانت فى سعادة ونعيم ثروتها وعظمتها . ولكن أقول أن فى امكاننا أن لا يذهب منا ما بقى فى أيدينا حتى نتصور أن يأتى يوم نعيد فيه شيئا من ماضى عزنا ومجدنا .

أيها السادة الكرام . ان من أهم المسائل الاجتماعية التى لها علاقة بديننا القويم مسالة تقسيم الميراث بين أفراد العائلة . ولكن لما كان هذا التقسيم داعيا الى اضمحلال الثروة والقاء بعض العائلات في مخالب الفقر « ليتمهل على السامعون فانى استعمل هذا التعبير فى معناه البسيط » كان من قواعد هذا الدين الحنيفى التى هى من العدل والحكمة الالهية البالغة بمكان أن ينص

فى الشرع على وقف الثروة وربطها ببعضها بين وقف مقيد وغير مقيد . ولنضرب مثلا بمكتبة فخيمة اعتنى بجمع شوارد كتبها وجواهر كنوزها رجل من المسلمين تتفرق أيدى سبابين ورثته فتفقد الامه مزية وجود هذه المكتبة النافعة لخيرى الدين والدنيا

كذلك تفقد الامة وجود ثروة مجمعة عظيمة تتلاعب بها أيدى الضياع بعد توزيعها على الورثة ولهذا شرع فى ديننا القويم وقف الثروة على العائلة ومن يتناسل منها . وهذا عمل شريف وواجب دينى لان الشارع قصد بذلك أن تبقى الثروة مجموعة كاملة ينتفع منها أبناء العائلة ومن يتناسل منهم حتى إذا انقرضت العائلة يحول ريع هذا الوقف إلى الفقراء أو لمقصد خيرى آخر . هذا هو الوقف الذى أدى وظيفة نافعة عظيمة فى جميع الأقطار الاسلامية وكان له نفع عظيم فى البلاد الهندية لم ينقطع إلا من زمن قريب. فيا أيها السادة يتضح لكم أن الاوقاف مصدر ثروة المسلمين وزخيرتهم الثابتة إلى اليوم العبوس القمطرير . وبالاوقاف وخيراتها انتشرت العلوم وتقدمت المعارف وساعدت المشتغلين بها من قديم الزمان وسالف العصور والايام . ولكن تغيرت الاحوال وترحت أوقاف كثير من المسلمين إلى أيدى الغير وتلاعبت بها الايدى وأصبح الناس فى اشد الحاجات اليها . ولا يخفى على افكاركم السامية أن وجود العائلات المثرية حصن منيع دون هجمات فقر الأمة بل من الأمور النافعة لنفس الحكومة ولا ينتظر من الافراد أن ينظروا إلى ثروتهم وثروة عائلتهم بالنظر الذى تنظر به هيئة عادلة تسعى لخير المسلمين . إذ لايخفى عليكم ما يحتاط بالأفراد من العوامل الداعية إلى الاسراف والانهماك في الملاهي والملاذ واضاعة ثروة العائلة ومجدها القديم . ولهذا السبب المهم أنا أدعو المسلمين إلى السعى فى هذا الموضوع طالبا من الحكومة أن تعتنى بمسالة الاوقاف واحاطتها بما يحفظها. فهى فخر المسلمين وحصنهم الحصين تجاه الفقر والايام العسراء . ولا انكر

أنه ليس فى طاقة المسلمين أن يعيدوا للمسلمين اوقاف (اطناس) و (الجاغير) وغيرها مما تلاعبت به الايدى وعبثت بوجوده عوارض شتى ولكن يمكنهم ان يحافظوا على القليل الباقى

ولنرجع إلى موضوع المدرسة الكلية التى تكون مركزاً لدائرة التربية الاسلامية فاقول : إذا اتبع الرأى الذى لمحت اليه فى العبارة السابقة فانه يمكن وجود رأس مال ومنبع ثروة لمثل هذه المدرسة التى تجمع بين العلوم العصرية والعلوم الاسلامية التى زهت وأزهرت فى العصور السالفة لتكمل بذلك تربية الروح وترقية المدارك لاستعدادها للعمل فى مضمار الحياة الاجتماعية

ولكن أوجه أنظاركم إلى نقطة مهمة « وبحث هنا بحثا مفيداً يجدر بمؤسسى المدارس الاهلية فى مصر أن يتمعنوا فيه فما يقوله عن الهند ينطبق هنا تمام الانطباق قال » : « لا يخفى عليكم أن من أول أسباب نجاح مدارسكم التى تؤسسونها هو أن تسعو بكل جهدكم لتحملوا الحكومة على اعتبارها للشهادات التى تعطونها للناجحين من تلامذتكم ليتمكن الناشئون من ولوج ميادين الوظائف التى ينظر اليها الناس من جميع الطبقات . فنصيحتى لكم هى ان تنتظروا قليلا حتى تثبت أقدامكم وتامنوا على نجاحكم وعند ذلك تطلبون من الحكومة أن تعتمد شهادتكم فيقوى بذلك شانكم وتكونون بمثابة هيئة امتحانية تعليمية وتتمكنون من تربية ناشئة عاملة تخضع لاوامركم وتسير في التيار الذى توجهونها اليه وقبل أن أختتم الكلام فى هذا الموضوع أصرح لكم أنني أريد أن تكون التربية ذات وجهتين وجهة عصرية علمية ووجهة دينية وأشعر أنكم تنتظرون منى كلاما على التربية الدينية .

أيها السادة : انى أعتقد كثيراً فى التربية الدينية وأجعل لها أهمية عظمى فى تهذيب عقول الناشئين . ولكني لا أعتقد فيها بالمعنى الذى تسير عليه اليوم فى اعتقادى أن التعليم الدينى ينقسم إلى قسمين: قسم يبحث فى المذاهب والتفقه فى علوم الدين وأقوال رجاله الدين واختلاف آرائهم فى مباحثه

وقسم يتعلق بآداب الدين وهو المختص بنتائجه العلمية الفعالة . وفى اعتقادى أيضاً أن معرفة مذاهب الدين وأقوال رجاله واختلاف مباحثهم فيه ليست بذات أهمية ما لم تصحب بتقرير آدابه ونتائج مباحثه المرقية للمدارك المهذبة للروح أجل أعتقد أن تلقين أبنائنا آداب الدين الصحيحة الخالية من شوائب الأوهام الفاسدة أنفع بكثير من تعليمهم أصولا وقواعد رسمية باشكال مخصوصة . فالدين يسر والمسلم تفيده العقيدة الخالصة والطوية القلبية أكبر من تلقى المذاهب واختلاف أقوال الباحثين فيها . فان كان الناشىء يريد التوسع فى أمثال هذه المباحث فليقصر حياته على دراسة الشرع الشريف وفروعه التى تكون جزءا عظيما من العلوم الاسلامية وهى وحدها تحتاج إلى التفرغ لها سنين طوالا مع اجتهاد كبير ونصب كثير . أما إذا كنا ننتظر من شبابنا أن يتفرغوا لدراسة هذه الفروع بأجمعها مع هذا التنافس فى الحياة فاننا ننتظر المستحيل فى زمن توجهت فيه هم الأمم إلى الارتقاء وامتلأت بطون دفاتره من مباحث العلوم العصرية التى يعد الانسان بدونها جاهلا.

وانى أيها السادة أنسب كثيراً من تاخر المسلمين فى جميع أقطار الارض إلى زيادة اهتمامهم واشتغالهم بالجزء الظاهرى من الدين أكثر من الجزء الروحى النفسانى . ولذلك أحب أن تكون غاية المعلمين والمتعلمين من أبنائها موجهة إلى تهذيب الروح والعمل بآداب الدين لا بالأخذ بالظواهر من الاشياء فمثلا قبل أن نعلم أولادنا طريقة الصلاة نعلمهم ما معنى الصلاة فنعلمهم أن الصلاة هى عبارة عن الخشوع والخضوع لذات الله البارىء جل جلاله ويجب علينا أن نعلمهم كتاب الله سبحانه وتعالى فان هذا القرآن يهدى إلى الحق ويجمع مع آداب هذا الدين الحنيف كل ما يتعلق بالحياة الاجتماعية ويعلم الناس من الحياة روح الوجود ومعناه .

انى أيها السادة كثير الفكر فى هذا الموضوع الذى تجاسرت على الكلام فيه أمامكم وأخاف أن لا تنصفونى وأن يظن بعضكم أننى تخطيت

موقفى اللازم واندفعت إلى الامام . ولكنى اعتقد فى سلامة ضميركم انكم تحملون لى شفيعا من حسن الظن . ولو خالفتمونى فى آرائى فلا اقل من ان تعتقدوا أن ما أقوله هو نتيجة بحث وتجربة استغرقت بى السنين الطوال . وما قلت لكم ما قلت إلا حباً فى خيركم وأنتم اخوانى في الدين والوطن والغاية هي الوصول إلى ساحة الفلاح والصلاح والنجاح فى أى طريق سرتم فيه فهويوصل للغرض المقصود مادام مصحوباً بطهارة القلب وصدق العزيمة وسلامة النية والعمل الصالح . واننا إذ لم نضع اختلاف الأفكار وحزازات الصدور تحت أقدامنا فاننا نبقى فى شقاق وانقسام ونصبح مضغة فى أفواه المنتقدين من أهل هذا العالم الحديث .

سادتى : ان أكبر داء أودى بالمسلمين هو الشقاق وحب الذات واختلاف الكلمة وخصوصاً فى البلاد الهندية ولكم على ما أقول الف شاهد والف دليل ولا سبيل للخلاص من حب الذات والانقسام إلا بالتعليم الصحيح والتربية الحقة على المثال الأنفع الانجع وطريقة الوصول إلى ذلك هو أن نربى أولادنا على تقديم نفوسهم لاخوانهم واحترامهم لواجباتهم ومقامهم ولكى تاتى هذه الدروس بالثمرة المقصودة منها يجب أن تلقن للاولاد وهم فى حضون أمهاتهم .

الوقف ونتائجه

نشرنا فى عدد أمس قسما كبيراً من خطبة رجل هندى يعد فى الطبقة الأولى من نابغى مسلمى الهند وهو « أمير على » القاضى فى محكمة الهند العليا القاها على جمع عظيم من المسلمين في « مؤتمر التربية الاسلامية » وقد أشار فيها إلى المزايا الجليلة التى خدم بها الوقف الأمة الاسلامية فى عصور كثيرة وقال ان الوقف يجب أن يسمى الذخيرة الثابتة لليوم العبوس القمطرير لأنه من جهة يطيل أجل الثروة لعائلات المجد الكبيرة التى تعتبر الحصن المنيع دون هجمات فقر الأمة واضمحلالها ومن جهة أخرى يمكن من عمل الخير الذى يعز على الذرارى والافراد القيام به زمنا طويلا ثم تخلص من ذلك إلى حث قومه على الوقف فى منفعة العليم كما حثهم على تحرير العليم بجعله مستقلا عن تعليم الحكومة حتى في الشهادات التى يناها المتعلمون الخ .

وقد استلفتنا بالامس أنظار قراء المؤيد الى ما نقلناه من أقوال هذا الخطيب الغيور فى مسئلة الوقف وفى أمر التعليم ورأينا الآن أن نعود الى بسط شيء فى المسألة الاولى لنذهب من نفوس كثير من الناس غضاضة مشروعية الوقف . فان بعضهم يرى أنه قد يكون من معطلات العين التى لو لم تكن موقوفه لتنقل الناس بها في وجود التصرفات الى ما يطابق المصلحة ومقتضى الحال فى كل زمان ومكان وربما استأنس على قوله هذا بما يلقى عليه نظره يمينا وشمالا أنى ذهب فى المدن الاسلامية التى لا تزال تحترم الاوقاف وتحافظ على أعيانها فيرى من رسومها الدراس وسط العمران ما يلقى به التبعة على مشروعية الوقف من حيث هى . وهو خطأ عظيم فى الرأى ومذهب

باطل فى الاستئناس . فان الوقف من حيث هو لم يكن معطلا عن التصرف بعينه فى كل وقت بما يطابق مصلحة الحال والزمان والمكان والعين معه تكون مثل العين غير الموقوفة تستنتج غلتها بالاصلح فى كل وقت متى كان المتصرف محسنا وتعطل متى كان المتصرف مسيئا لافرق أن تكون وقفا أو غير وقف واذا شاهدنا دار موقوفة خرابا وسط عمران فذلك ليس لانها وقف بل لان القائم على الوقف لم يحسن ادارته وبقاؤه هكذا لأنه ممنوع من التصرف فى العين تصرف الاضاعة والاذهاب بخلاف المالك للعين فانه اذا أساء التصرف وفرغت يده وجيبه من الدراهم أسرع للعين فباعها لمن يحسن ادارتها فاذا أساء بعد ذلك المشترى أو ورثه مسيء وعجز عن التعمير باعها أيضا لمن يعمر وهكذا حتى قد يمكن أن تنتقل الدار المملوكة فى القرن الواحد لعشرات من الملاك فيهم ولا بد المعمرون بينما تكون عين الوقف فى جانبه باقية ولو رسما وطللا باليا . فاذا كان اصلاح الوقف موقوفا على نتاج غلته عز تعميره حيث لاغلة له ولا استئناس على عدم صلاح مشروعية الوقف بكثرة ما يرى خرابا من الاعيان الموقوفة لاينهض دليلا عليه . وفضلا عن ذلك فان مشروعية استبدال الوقف المعطى أو قليل الايراد بخير منه ذاهبة بكل ذلك الضرر وموجبة للتصرف في الاوقاف كل بما يستلزم بقاء عمرانها واستزادته .

بأن الوقف في ذاته كان فى كل زمان ومكان حصنا من اندثار عائلات اسلامية كبيرة بالفقر والاضمحلال زمنا ما . وبقاء هذه العائلات على حالة الثروة والغنى حصن منيع يلوذ به دائما ضعاف الامم وفقراؤها . ولهذا معنى فى عمران الامم وقوتها لا تعرفه حق المعرفة إلا أمة فقدتها : ولعل الامة الاسلامية الهندية التى تلاشت بيوتها الكبيرة بعد ما ذهب نعيمها أعرف الأمم بهذا المعنى وا كثرهم شعوراً بضروب شقاء العناصر التى ذهب من بينها كبراؤها

وأما نفع الوقف فى الوجوه الخيرية الكثيرة فاوضح من أن يجحده

جاحد وتاريخ مجد الاسلام قائم على دعامة الانتفاع بالوقف أكثر من كل دعامة أخرى : فالتكايا والمستشفيات القديمة وملاجىء العجزة والمعوزين والجسور والقناطر والمرابطات لحفظ الثغور وبث الارصاد والعيون على الاعداء واقامة الحصون والمعاقل الكبيرة وحفر الآبار والعيون فى الصحارى والسيل وبناء المساجد والمعابد والمدارس فى البلاد كل ذلك قام على دعائم الوقف فى العصر الخالية أضعاف ما قام على الصرف من بيت المال . والذى يقرأ خطط مصر للمرحوم على باشا مبارك يرى في تاريخ مدينتى الفسطاس العمرية أو القاهرة المعزية مثال الاعمال النافعة في كل حجر من أحجارها أو أثر من آثارها للوقف الاسلامى . وإذا كان يوجد بين ربوعها اليوم شىء من الدور أو المساجد خرابا بعلة الوقف كما يقولون فعمران المدينتين كله قد تناوب حظه فى أزمنة كثيرة من أثر بركة الوقف ، وما صارت مصر كعبة الاسلام العلمية الدينية إلا من اثر الوقف ، وما قام الجامع الازهر أكبر مدرسة علمية دينية فى العالم سبعة قرون واكثر إلا من اثر الوقف ، وما القصور الذى يلاحظه بعضهم عليه فى هذا الزمان إلا من أثر فقر العقول الذى يسىء صاحبه التصرف به فى أعز شىء لديه ولا تبعة في ذلك على الوقف.

فالوقف اذن نعمة كبرى على المسلمين فى كل زمان ومكان ولكن يجب أن لا يخطىء الواقفون قبل كل شىء فى تحديد وجوه استغلاله والتصرف بمزاياه إلى مايخرجه عن الغرض المقصود إلى مايشبه السفه المنهى عنه شرعا. ثم يجب أن يتصرف فيه الناظرون التصرف الحسن لتكون عين الوقف دائما عذبة المورد فائضة بالخيرات التى وقفت لاجلها . والآن نحن معاشر المسلمين أحوج إلى الوقف منا فى كل زمان . ثم اننا معاشر مسلمى مصر والهند وتونس وكل بلد اسلامية احتلها الاجنبي غير المسلم وضرب على يد حكومتها أن تتصرف بحريتها أو امتلكها امتلاكا واستعمرها استعباداً لأهلها أحوج إلى الوقف من المسلمين سوانا . لان أموراً كلية كثيرة

كانت تقوم بها الحكومات الاسلامية قبل الضغط عليها أو قبل ذهابها هى لازمة وضرورية لبقاء الهيئة الاجتماعية الاسلامية أولوقايتها من المصائب والموبقات قد قل عملها أو ذهب الغرض منها أو بطلت بالكلية ولا يمكن الحفاظ عليها إلا بالوقف . ومن أهم هذه الاعمال الكلية في هذا الزمان تعليم الناشئين من أولاد المسلمين على المبادىء التى تؤلف بين قلوبهم وتحفظ جامعتهم أو كما قال القاضى « أمير على » الهندى فى خطبته « أن نربى اولادنا على أن يهدوا قلوبهم لاخوانهم وأن يحترموا واجباتهم وكرامة انفسهم » .

واذا كان المسلمون فى مصر مجمعين اليوم على أن أسلوب التعليم الرسمى الذى يتولاه جماعة من الانكليز — وفيهم من أصله قسيس بين قومه — غير نافع لابناء المسلمين فيما يتعلق بجامعتهم الدينية ومحبة وطنهم فلا سبيل إلى تحصيل هذا الغرض إلا بالوقف . فالوقف هو الذى يسهل الطريق لعقلاء المصريين أن ينشئوا ادارة معارف أهلية توحد طرق التعليم الاهلى بين كل الذين يتعلمون في غير المدارس الرسمية وتجعله محترماً فى مبدئه وغايته

وإذا وجدت ادارة معارف أهلية بين ظهرانينا أمكنها فى وقت من الاوقات أن توجد لها الثقة التامة التى تمكنها من منح شهادات محترمة معتبرة عند الحكومة كما سأل القاضى (أمير على) الهندى قومه أن يسموا لهذه الغاية التى هي نتيجة سامية من نتائج التعليم وضامنة نجاحا كبيراً للناشئة الاسلامية ، فعلى سراتنا الاغنياء التدبر فيما قدمنا والعمل لما ينفع النشأة الاسلامية اليوم وغدا والله الموفق ؟ المؤيد

تربية البنين والبنات

تتمة خطبة القاضى أمير على

أيها السادة . قلت لكم أن التربية لا تثمر ولا تأتى بالفائدة المقصودة منها مالم تلقن مبادئها للاطفال فى أحضان امهاتهم . فنحن نتساءل اليوم هل نساؤنا اليوم فى درجة تمكنهم من تعليم ابنائنا ما نريد ؟

لقد اتى على المسلمين حين من الدهر طويل كان النساء يلقبن فيه « بامهات الرجال » فهل يمكننا أن ننعتهن اليوم بهذه الصفة ؟ كلا وليس ذلك ذنبهن ايها السادة فان المرأة كانت ولاتزال آلة فى أيدى الرجال يوجهونها حيثما أرادوا وكيفما شاؤا ، فلذلك اعتقد اعتقادا لا شك فيه اننا اذا كنا نريد ان نرفع انفسنا فوق سلم المدنية والارتقاء واذا كنا نحب ان يحترمنا الناس ويجلنا ابناء هذا الزمان فلا بد لنا من تربية بناتنا حتى يصلن الى الدرجة التى وصلنها فى ايام اسلافنا الكرام . واعلموا انه توجد الآن ببلاد الدولة العلية ومصر مدارس زاهرة لتعليم الناشئات من فتيات المسلمين وان النساء فى هاتيك الديار قد أخذن يعملن فى دائرة الحياة الاجتماعية كما كان لهن فى ايام عظمة الاسلام ومجده الفخيم

اجل ايها السادة انى اعتقد ان تربية البنات يجب ان تسير يدا بيد مع تربية الاولاد اذا كنا نود ان ياتى التعليم بالفائدة المطلوبة . ويجب ان نعلم اننا لا ننظر اخيرا ما لم تكن نسبة التربية بين الابناء والبنات متساوية لاننا اذا اهملنا نصفا من الهيئة المكونة لحياتنا الاجتماعية واعتنينا بالنصف الآخر فان النتيجة تكون سيئة فاسدة اذ من الامور المقررة انه اذا ترقت افكار نصف الامة وبقى النصف الآخر ملقى فى ظلمات الجهل وانحطاط الفكر فان الجزء المتعلم ينفر من الجزء الجاهل ويبعد عن مصاحبته ومعاشرته ما استطاع

الى ذلك سبيلا و يحاول اما ان يسير فى تيار لا يرضى الشرف والصالح وإما ان يخفض نفسه وينحط بفكره ليعاشر ذلك الشريك المنحط فى حياته

ولذلك ارى من اللازم الضرورى ان يسعى مسلمو الهند في تعليم بناتهم من هذا الوقت وان يضعوا امام اعينهم النموذج الذى يسيرون عليه للامام . سادتى ان كلمة « الاصلاح » ترن في آذانكم بنغم غريب وربما لا يستحسنها بعض الذين تعودوا على سماع اقوال رسخ معناها فى الاذهان من قديم الزمان ولهذا السبب اراني مضطرا لان اردف كلمة « اصلاح » ببيان معناها فانا لا اريد بهذه الكلمة اصلاحا فى الدين بل اقصد بها بلا خلاف الاصلاح في طريق التربية وفى نظام المجتمع الادبى والاعتيادى وخلع اردية المعتقدات والاوهام الفاسدة مما ليس من الدين فى شيء والتحلى بالآداب الصادقة الصحيحة المعقولة ، واننى اعتمد في هذا الاصلاح على الشبان الناشئين من ابنائنا الذين يرون انفسهم على باب معترك الحياة ومزدحم الوجود إذ ليس فى امكاننا نحن اكثر من أن نضع لهؤلاء الناشئين الحجر الاساسى لهذا العمل وعليهم هم أن يرفعوا البناء ويشيدوه بأنفسهم ، اولئك الذين اتجاسر أن القى اليهم بعض النصائح التى يجب أن يتخذوها رائدهم فى هذا السبيل وعليكم أن تكونوا خير الواسطة فى تبليغ هذه الاقوال الى مسامع بل قلوب أبنائكم وناشئيكم

ان من الضرورى للنجاح سواء فى ترقية المدارك وارتقاء سنام العلياء أن نضع أمام أعيننا مهادىء مخصوصة نضرب اليها بسهامنا ونرمى اليها آمالنا ومن لا مبدأ له فذلك الذى يسير على غير هدى ، ذلك الذى يعيش فى الظلام ذلك الذى يطرح بنفسه فى تيار التعاسة والشقاء ، اذا فأول واجباتنا أن نضع هذه المبادىء نصب أعيننا ظاهرة واضحة فى أيام شبيبتنا وكهولتنا حتى نعيش بها شرفاء متحدى الغايات والقلوب كى نختم أيامنا بالسعادة الابدية

فاول مبدأ لنا يجب أن يكون الصدق والاخلاص ولم يخلق الله تعالى

انسانا فى الوجود حث غلى مبدأ الصدق واخلاص الضمير أكثر من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . واذكر لكم معنى الصدق فى الوجود فى كلمات لكاتب من كتاب هذا الزمان قال : « هو أن تجاهد بعزيمة لايشوبها ضعف فى سبيل الحق حتى ولو كان الحق سلاحا يلصق بك الباطل فانك لابد أن تفوز فى النهاية واعلم أن رجوعك عنه ليس إلا احتقار لمبدأ الصدق الذى يحكم قلوبنا »

وليكن نصب عينى كل واحد منا الاعتقاد التام باننا نعمل أعمالنا تحت نظر ورعاية الله الذى لا تاخذه سنة ولا نوم كما يجب علينا أن نساله الهداية والرشاد ونستمد منه المعونة فى جهادنا واعمالنا لان العمل على هذا الاعتقاد القلبى يرفع المرأ من الحضيض الادنى الى مسماك الاعلى ويجعل حياتنا نموذجا صالحا لاعقابنا

ولابد لنا فى هذه الحرب القادمين عليها أن نوطد العزيمة على الثبات كما يلزمنا قبل كل شىء أن نرقى عاداتنا الاجتماعية والعائلية فان الناشئين بنوع خاص يؤثر على عقولهم كل ما يحوط بهم فاسدا كان او كان صالحا . كذلك يلزمنا لبلوغ الغاية التى ننشد ضالتها ان نعلم نساءنا الاخلاص والمروءة والشهامه والاحترام وكل الاخلاق الفاضلة التى كانت لنساء المسلمين فى الايام الماضية فاننا اذا لم نرب الناشئات على الطهارة وشرف النفس والحياة معرفة واجباتهن التى كلفن بها الخالق سبحانه وتعالى لايليق بنا ان ننتظر من الناشئين حياة شريفة ومدارك عالية سامية

ومن المبادىء التى يلزم ان تكون نصب عيني كل ناشىء مبدأ الامل فى النجاح

كل فرد فى الوجود خلق وفى نفسه الترقى التي لا يستنبتها إلا التعليم والتربية والتجربة ، العلم يخرج الناس من الظلمات الى النور ولكن التعليم

يكون عديم الجدوى مالم نعرف انه كما ان العلم بحر واسع لاساحل له كذلك النجاح محيط زاخر لاحد له ونعرف ايضا ان الوقوف فى نقطة واحدة معناه التاخر والاضمحلال ، نحن نرى امامنا وحولنا بعض الشبان يبدأون العمل في ألحياة بنشاط فتبرق لهم اسرة الآمال ويخطون فى سبيل التقدم والنجاح بضع خطوات ثم يدركهم الملل فيقفون فى مراكزهم ثم يسقطون ويضمحلون فلا تدعوا اولادكم يرتكبون هذا الخطا بل لاتدعوهم يفتكرون انه متى اتم الواحد منهم دراسته وحاز شهادته فقد جاء فى العلوم بما فيها ، او انه يقدر في المعارف بمن تخرج من كليات اوروبا

سادتى : لابد للوصول الى ساحة النجاح ما دمنا نعمل بايدينا لانفسنا ومتى كان امامنا غرض نضرب اليه فان الرجل بغير قصد كالسفينة بلا دفة فان لم توطدوا عزائمكم على الثبات وعدم التحول عن الغرض فانى اؤكد لكم الفشل والخذلان فان القائد الذى ينتصر على عدوه فى معترك الحياة هو الذى يتقدم بارادة تملأ جوانحه ثباتا وصبرا الى ميدان الحرب وهكذا حتى يصل الى غايته المقصودة ، وهذا التاريخ يقول لكم انه لم ينجح فى الوجود من كبار الرجال الا الذين رسموا لانفسهم خطة العمل مع قصر الزمن ، أجل أيها السادة اذا كنتم تريدون النجاح فاعملوا بارادة صادقة وعزيمة ثابتة ، كنت أطالع كتابا رأيت فيه نبذة تنطبق على أحوال شبابنا أكررها لكم قال مؤلف الكتاب : « انى لا أعتقد في شاب يكثر التذمر والشكوى من حالته ويملأ الدنيا كلاما وادعاء بانه قادر على أن يعمل اعمالا عظيمة يشهد بها التاريخ لو أتاح له الحظ وسطا غير الوسط الذى هو فيه » فهذا أمثال الاطفال الذين لم توضع تربيتهم على أساس صالح فانبذوهم ولا تقربوهم فان الحظ فى أغلب الاحوال لادخل له فى النجاح بل العزيمة والاقدام ورسوخ النية وجلدها على مقابلة المصاعب والمتاعب أمام نداء الواجب

والتعود على الشغل والنصب الذى لا يتم إلا بمذاولة العمل حينا من الزمن. فكل هذه الصفات هى التى ترفع المرء الى حيث شاء وأراد

وعلى هذا فاول واجب هو أن يتعلم الاولاد أن يضعوا ذروة الارتقاء دائما نصب اعينهم ليجتهدوا فى الوصول اليها ، نعم ربما اننا لا نصل الى كل ما نتمنى ولكننا نتقدم فى سبيل التقدم خطوة كبرى ما دامت غاياتنا كذلك .

مؤتمر التربية الاسلامى [1]

(في رامبور)

اجتمع مؤتمر التربية الاسلامى الهندى هذا العام فى مدينة رامبور ووفد اليه خلق كثيرون من جميع الجهات الهندية وكان رئيس هذه الجلسة حضرة العالم الفاضل (نواب عماد الملك سيد حسين بلغرامى الحيدر آبادى) وبعد افتتاح المؤتمر قام حضرة الرئيس فألقى خطبة بليغة طويلة باللغة الاوردية رأينا أن نلخص أهم نقطها للقراء فان المقام يضيق دون ترجمتها برمتها قال :

أيها السادة : تعلمون حفظكم الله أن الغرض من جلسات المؤتمر الاسلامى للتربية يرمى إلى ثلاث مقاصد « الاول » بث روح التعاون والائتلاف بين جميع كبار المسلمين من الجهات المختلفة وجمعهم فى صعيد واحد وبغير ذلك قد يكون من النادر اجتماعهم . « الثانى » أن يمهد لهم سبيل البحث والمناقشة فيما يرونه صالحا للتربية ومنفعة اخوانهم المسلمين : (والثالث) الاتفاق وربط القلوب على القيام بعمل نافع يفيد أبناء ملتنا ويسمو بنا فى سبيل الفلاح والنجاح . ولايكون . ذلك إلا بعقد الخناصر على نشر العلوم والمعارف العصرية ومساعدة مدرسة عليكدة الاسلامية . وهى المدرسة الوحيدة التى أسسها المسلمون بايديهم ولا يليق بهم أن يهملوها حتى تضيع هباء منثوراً . أما هذا المؤتمر فقد أسسه المرحوم السيد احمد خان من خمس عشرة سنة مضت وحضر بنفسه خمس جلسات له قبل أن يتوفاه الله . ثم صار المؤتمر ينعقد بعد ذلك فى المدن الهندية حتى اجتمع فى العالم الماضى في مدينة كلكتا وكان له الشأن العظيم الذى عرفتموه . فهذا المؤتمر نعده أكبر خطوة فى سبيل التقدم لانه يدل على أن المسلمين متحدون

---

(١) المؤيد ١٢ و ١٤ فبراير سنة ١٩٠١ عدد ٤٢٨٧ ٣٢٨٨

عارفون بتاخرهم وانحطاطهم وانهم يجتمعون من كل صقع وناد للمداولة والاتفاق على الوسائل التى تنهض بهم . ولاشىء فى العالم يرقى الامم ويسير بها في طريق النجاح والفلاح سوى العلم والتعليم والتربية والعمل والتجربة

نحن نكتفى بأن نقول أن كل مسلم الآن كيفما كانت درجته من الجهل يرى من الواجب عليه أن يربى ولده ويعلمه . ولكن الجزء الاعظم منا يرى أنه من الواجب بكونه سلم ولده إلى فقيه أو إلى مكتب أو إلى أقرب مدرسة اليه ويظنون أن ذلك هو الغاية والنهاية التى ليس بعدها غاية ولا نهاية ، فترتاح ضمائرهم وتفرح نفوسهم وربما يتبجحون على أولادهم بأنهم أرسلوا بهم إلى المدارس وصرفوا عليهم ما صرفوا من النقود هذا هو منتهى اهتمامنا بتربية أبنائنا وتكون النتيجة أن ينشأ الاولاد فى حياض الجهل وينساقوا فى طريق الفساد والضلال وترجع تبعة ذلك على آبائهم لانهم لم يعيروا تربية أبنائهم الاهتمام الواجب فلم يختاروا لهم التربية المناسبة للزمان والمكان ولم يبحثوا عن الوسائل الموصلة إلى ادراكها . وحجة الجهل ليست مقبولة فى محكمة الوجود كما انها لا تقبل فى محكمة القانون . فهؤلاء الآباء يعاقبون على جهلهم فى أشخاص فلذات أكبادهم وأحب الناس اليهم

تغير الزمان فتغيرت معه التربية وتغيرت معه المعارف والعلوم . كان الناس يكتفون في الأزمان الأولى بان يعرف الواحد منهم الكتابة والقراءة وشيئا من علوم الادب كنظم الشعر وتقفيته ويعد نفسه بذلك شاعراً أديبا وكان الذين يريدون أن يكونوا علماء يذهبون إلى المدارس العربية ويصرفون السنين الطوال فى دراسة التوحيد والنحو والمنطق والفقه

أما الآن فقد تغيرت وتبدلت كل هذه الاحوال وأخذ العالم شكلا جديداً والبست العلوم ثوبا قشيباً فلم يعد لذلك الاديب الذى اكتفى بنظم القوافى مكان يمرح فيه . كذلك أصبحت طبيعيات أرسطو وابن سينا قديمة عتيقة نخر سوس الزمان عظامها . وأصبح جبر الخيام وكيمياء جابر وساوس

وأوهاما . كذلك لم يعد لنظريات ابن رشد ولا لفلسفة أفلاطون ولا الفارابى ذلك المقام الاعلى انها أصبحت لا يدرسها أحد وإذا أعارها طالب نظره فانما يفعل ذلك بقصد الافادة والوقوف على التغييرات والاختلافات التى طرأت على عقل الانسان

والحقيقة أيها السادة أننا وقعنا فى سبات عميق عدة قرون من الزمان بينما كانت الامم الاخرى تسير فى طريق التقدم يومابعديوم . فكنا بعبارة أخرى واقفين والارض متحركة تحت أقدامنا وكأنما غرسنا لانفسنا بذور الانحلال والاضمحلال فى ساعة وقفت فيها أقدامنا فنمنا على صماخ آذاننا لانسمع دوى البروق ولا قصف الرعود مطمئنين مقتنعين بما علمناه في الازمان الماضية ولم نتحرك للسعى وراء أسلافنا فنزيد العلم علما ونكمل النقص ونصلح المختل . وماذا جرى بعدذلك ؟ أقول لكم بالصراحة والايجاز أننا قد فقدنا كل شيء حتى ماتت فينا صفات الشجاعة والشهامة والاقدام والمطامع التى كانت من مزايا الأمة وذهبت أدراج الرياح . ومن الغلط أن نتصور أن المسلمين فقدوا هذه المزايا بعد أن فقدوا سلطانهم ونفوذهم . فان التاريخ ينطق بلسان فصيح أن الأمر لم يكن كذلك ولكن الحقيقة أننا فقدنا سلطاننا لاننا أضعنا صفاتنا وأهملنا نفوسنا

ويظهر أن المسلمين الان تنبهوا لحالتهم الاجتماعية وتأخرهم فى كل شيء وهذا المجتمع اليوم مثال ناطق على هـذه اليقظة والنهضة الجديدة . ابتدأ المسلمون يعرفون أنه من الصالح أن ينتبهوا من غفلتهم وأن ليس عليهم فقط أن يحيوا ما اندرس من آثار أسلافهم بل أن ياخذوا من العلوم العصرية والتقدم العقلى الذى وصل اليه الانسان في الازمان التى كنا فيها غافلين نائمين

واننى أعرف أنه يوجد بيننا فريق من الناس يظن أن علوم المتقدمين كانت كافية كافلة وأنها منتهى ما يمكن أن يصل اليه عقل الانسان وأن المتاخرين كانوا فى منتهى درجات الكمال . وأننى أشعر بالراحة والسرور

كلما عرفت أن هذا الفكر السخيف ليس عموميا بين افراد هذه الأمة . فان حوادث هذا الزمان الحادة والحقائق الساطعة طردت من أدمغة الناس ذلك الاعتقاد وعرفتهم أن لانجاح ولا فلاح بغير العلوم العصرية وأن أصحابها فاقوا العالم وقهروا سواهم بعلومهم وفنونهم والعاقل العاقل من يسعى للاستفادة منهم بقدر ما يمكن الوصول اليه ليقف معهم على سلم واحد من درجات الحياة »

(المؤيد) ثم انتقل الخطيب من ذلك إلى علاقة الهنود بالحكومة وأن من حسن حظ الهنود ان احتلت انكلترا بلادهم بدل دولة أخرى أجنبية وحمل الحكومة ثناء لاتطيق النفوس حمله . وهو شيء يعرف عقلاء الهنود فائدته لمصلحتهم وخصوصا المسلمين منهم واستطرد من هذا البحث الثانى الى أهمية العلوم العصرية والمدنية الغربية ثانيا ، وكيف أن علوم العصور السابقة ليست بكافية في هذا الزمان وأنها متاخرة عن سواها عدة قرون حتى قال :

« إذا كان فى هذا المجتمع واحد لايقبل هذا الرأى وتجاسر بالقول على أن علومنا القديمة كافية لنا فلينظر إلى ممالك الاسلام فى العالم كله : لينظر الى بلاد الجزائر ومراكش التى عبر من شاطئها طارق وموسى بن نصير ليتغلبا على بلاد الاندلس . لينظر إلى تونس تلك البلاد التى كانت دولة بحرية عظيمة ذات شهرة ذائعة فى العالم أجمع . فالجزائر مستعمرة فرنساوية وتونس مثلها أو تكاد أن تكون مثلها ومراكش منحلة معتلة تريد أسبانيا التى أغار عليها أبناء العرب سابقا أن تغير عليها وتضمها اليها . وهذه فارس فى حالة ضعف شديد اقفل التعصب والجهل والحماقة أبواب التقدم في سبيلها فهى اقل من الولايات الهندية المستقلة

فانا أسالكم أن تنهضوا بانفسكم وتعملوا عملا يليق بكم ما دامت ابواب التقدم مفتوحة امامنا وكل مانريد أن نسعى اليه هو العلم والتربية

أهم شيء نحتاج اليه كما ذكرت لكم هى التربية والتعليم ولدينا الآن طريقان للوصول الى الغاية المطلوبة . (الاول) هو اصلاح مدرسة عليكده وترقيتها حتى نصل الى درجة تساعد على تهذيب وترقية النشاة الحديثة في الاقطار الهندية بل قد تصل الى درجة تكون فيها منبع العلوم ومحط رجال الطلبة من جميع الاقطار الاسلامية . وليس من البعيد عند ذلك أن ينبغ فيها أمثال ابن سينا وابن رشد وغيرهما من العلماء السابقين ينشأون فى مهد العلوم الحديثة ويبحثون فيها وينهضون بها . فان هؤلاء الناشئين بمساعدة المباحث والتجارب الكيماوية والطبيعية والفنون العصرية والقواعد الطبية يعيدون لنا سالف مجدنا القديم فيكون فيهم ابن موسى جديد يخترع آلات جديدة وطوسى آخر يكتشف كواكب ويحدد دوائرها ويضع كتبا فى علم الهيئة الحديثة وهلم جرا

وهل يخطر ببالكم أيها السادة أن هذه أضغاث أحلام وأمانى لا تحققها الايام ؟ إذا كنتم تظنون ذلك فانا أوجه انظاركم الى دولة اليابان فقد رأيتم باعينكم ما وصلت اليه الجزائر وتونس ومراكش وفارس من الانحطاط لانها لم تقبل السير مع التقدم العصرى . انظروا الى اليابان وما عملته لنفسها باتباعها طريقا يخالف الذى اتبعته الممالك التى اشرت اليها آنفاً . فقد بقيت اليابان متأخرة غير مذكورة مدة طويلة لم تلتفت فيها الى المدنية العصرية ولكنها تنبهت قبل فوات الفرصة واغتنمت الظروف ووصلت الى درجة من النجاح والتقدم فى أقل من عشرين عاما جعلتها فى صف الدول المهمة التى يعتد بها بين الدول الاوروبية حيث خطت خطوات واسعة فى العلوم والفنون ونشرت ألوية المعارف والآداب فى أطراف بلادها . وانتم تعلمون انه ظهر بين رجالها من اكتشف اكتشافات حديثة فى عدة علوم اعترف الاوروبيون بفضلهم فيها وهى اليوم (اليابان) تعد نفسها فى صف الدول المتمدنة وانها هى النور الذى يسطع من الشرق على القارة الاسيوية »

(المؤيد) ثم استطرد الخطيب من ذلك الى الاستشهاد بالنهضة العلمية التى بعثتها مدرسة عليكيده فى نفوس المسلمين فى الهند على حداثة عهد تلك المدرسة وشرح لسامعيه نتائج تلك النهضة وعدد الكتب التى الفها المتخرجون من المدرسة المذكورة وما سببته من الحركة الفكرية والحياة العلمية بينهم دلالة على أن السير في طريق التربية ونشر انوار العرفان وتشييد المدارس يؤدى حتما الى النتيجة التى وصلت اليابان اليها . ثم قال : « والذى نريده الآن هو أن ينشأ أولادنا فى المستقبل فى عالم من الحرية بعيدين عن المضار والأوهام الفاسدة والعادات السخيفة التى تحيط بهم من كل جانب . فقل ان يوجد بيت في الهند لاتنشأ فيه الاولاد بين الخدم والرعاع الذين يغرسون المفاسد وسوء الاخلاق والخرافات فى نفوس الاطفال ولا يليق بنا أن نهملهم الى هذا الحد فان المرء يفسده القرين السوء

نعم ان الاباء مكلفون بواجب الشرع والقانون أن يربوا أبناءهم ويهذبوا أخلاق أولادهم : ولكن اين هم الآباء الذين يعرفون ما هى التربية وما هي الطرق والوسائل النافعة الناجحة فى اصلاح شؤون عائلاتهم واذا اردتم الحقيقة اقول لكم بالصراحة ان عائلاتنا ومنازلنا لاتصلح لتربية ابنائنا بل هى تلحق بهم ضرراً بليغا وانجح وسيلة هى ان نرسل بهم الى مدرسة كمدرسة عليكدة ليقيموا فيها بين أساتذتهم ومعلميهم ولا تخافوا من كثرة المصاريف فانها ترد لكم اضعاف ما تصرفونه على ابنائكم

ولتسمحوا لى أن أقول للاغنياء والقادرين اذا أردتم خيراً لأمتكم فساعدوا أبناء الفقراء بالمال ليتمكنوا من البقاء فى هذه المدرسة

أيها السادة : لا يوجد فريق من الناس يستحق الاحترام كثيراً مثل السادة العلماء « يعنى علماء الدين لان كلمة عالم فى الهند لا تطلق إلا على من كان فقيهاً فى الدين » فانهم يساعدون على بث مبادىء الدين الاسلامى ويوقدون جذوته فى نفوس الامة . ولكن أيها السادة لم يخلق الناس كلهم

ليكونوا علماء أو فقهاء فان الدين يضمحل ويتلاشى أو يسقط اعتباره مالم يساعد المال على نشره وتقويته . واننا نعترف أن من الواجب على كل مسلم أن يعرف أصول دينه ولكن التوسع فيه والانقطاع له يترك إلى فريق من العلماء يبقون فى الامة كالمنارات التى يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر . ونحن الذين نريد أن نلقى بأنفسنا فى معمعان الحياة وجهادها لا يمكننا أن نقوم بالوظيفتين ونعمل فى الطريقين .

اعتقدوا سادتى أن الاسلام معزز مؤيد ان شاء الله لاتضيع قوته ولا تنزل مكانته فان العلماء محافظون على رفعته ومكانته . وإذا كان الاسلام يخشى شيئا فى الوجود فانما يخشى قصورنا واهمالنا وبقاءنا فى آخر صف من صفوف الامم متقاعسين عن السير مع الزمان والأخذ بعلومه وفنونه الحديثة ولا تنسوا أبداً أن العالم جهاد وكل فرد فيه محارب مقاتل رضى أو لم يرض فاننا لو اردنا ان نترك الدنيا فانها لا تتركنا ولا تتخلى عنا فى اى زمان او مكان ومن الجهل والجنون ان نتكاسل ونتغافل ونحن مطلقوا الأيادى قادرون على الاستعداد واخذ الاهبة للحرب والقتال

اى فائدة تأتى من وراء الاعجاب والفخر بمجدنا السالف ما لم يكن الغرض من ذلك بث روح الحياة واقتفاء آثار الماضين والتشبه بهم فى حبهم للعلم والعمل. اقول ذلك لانى ارى كثيراً من الناس يتفاخرون بمدنية الاسلام السابقة . وانهم من سلالة تلك الامة العربية العظيمة وان اهل تلك العصور التى يتناهون فى حبها كانوا فى منتهى درجات الكمال الشخصى ، وان لا مدنية ولا علوم ولا آداب بعد الذى مضى وانقضى اى جهل بعد هذا وأى ضرر أعظم من هذا . وأى داء أشد فتكا من هذا ؟

إذا اعتقدنا أن صحيفة الكتاب طويت وان طرق النجاح سدت فى وجوهنا وأنه من المستحيل أن تطهر نفوسنا فاى وسيلة تنهض بنا ، نعم لا أنكر ان الانسان يفتخر بآبائه وأجداده ولكن يلزمه ان يخجل عند

ذكرهم ووصف درجتهم مع مقارنتها بدرجته ، ثم ان اهل تلك العصور لم يصلوا إلى درجة الكمال الشخصى حتى تقول ان العالم فى تقهقر بل ان عيوننا الشخصية التى نشكو منها تدرجت منهم الينا . هذه هى الحقيقة ولا يصح ان نجهلها

اذ متى عرف الانسان نفسه أمكنه أن يصلحها . أما اذا وضعناها في غير مكانها وأخطانا في التاريخ هذا الخطا فاننا لا نقدر أن نعرف مبدأ سعينا ومنتهى آمالنا

أيها السادة : ان كل مندوب منكم مكلف أن يؤدى لهذه الامة الاسلامية واجبا عظيما . يلزم ان يكون كل واحد منكم مرشداً واعظا بين قومه وعشيرته . عاملا على رفعتهم . حاثا لهم على الاتحاد والائتلاف ونشر انوار العلوم . فلا تدعو هذه الفرصة تمر عليكم دون ان تؤدوا فيها لهذا المؤتمر الوظيفة التى يكلفكم بها . ونحب ان ننتهز هذه الفرصة فنقرر شيئا نستفيد منه لأن انعقاد المؤتمر لا يثمر ولا يجدى إلا إذا جاءت من ورائه فائدة نافعة . . . الخ

(المؤيد) وهنا بحث الخطيب فى طرق جمع الاموال من الجهات الهندية لمساعدة المدارس الاسلامية وما شابه ذلك مما لا محل له هنا . وقد اقتطفنا هذه الرسالة وما قبلها من خطبته مع المحافظة التامة على افكاره وآرائه واقتصرنا على النقط التى تتعلق بالمسلمين كافة فلا تختص بالهنود دون المصريين او غيرهم . ولا شك ان فى خطبته عبارات جديرة بالامعان تستدعى التفات المسلمين واهتمامهم : نسأله سبحانه وتعالى أن يوفق المسلمين فى كل قطر ومملكة إلى ما فيه صالحهم حتى لا يذهبوا فريسة الطوائف الاخرى وطعمة لغيرهم من المجاهدين فى ميدان هذه الحياة

خطبة

النواب المعظم (مهدى على خان محسن الملك بهادر)

نشرنا في عدد مضى خلاصة خطبة جناب الفاضل رئيس مؤتمر التربية الاسلامية مما أعجب بها القراء كل الاعجاب

وقد وقفنا الآن على قطعة كبرة من خطبة النواب المعظم مهدى على خان محسن الملك بهارد رئيس لجنة أدارة (كلية عليكدة) وخلف المرحوم السيد احمد خان مؤسس النهضة العلمية الاسلامية فى البلاد الهندية منشورة فى جريدة (وطن) التى تصدر بلغة أوردو فى مدينة (لاهور) فرأينا أن نقتطف منها ما يفيد القراء وهو :

العلم العلم عليكم بالتعلم والعلم ، فاذاشئتم أن تتعلموا وتستفيدوا فانسلخوا من كثير من عاداتكم القديمة واخلاقكم الوخيمة واهتدوا بنور العلم فى طريق حياتكم التى تسيرون فيها ، استلوا سخائم النفوس من صدوركم ، وكونوا يدا واحدة فى كل أموركم لاتكونوا عالة على الحكومة ولاعلى زيد وعمرو وابحثوا واطلعوا فى مشكلات الامور السياسية التى تجرى بين ظهرانيكم فان وجدتم فيها مايخالف مصلحتكم فامضحوا النصيحة للحكومة . ابذلوا الجهد فى أن تعرف منكم سلامة النية فيما تقولون لتشتروا منها التفاتها والاستضاءة بثاقب آرائكم لانها متى رأتكم أهلا للثقة كانت فى حاجة شديدة الى الاسترشاد بكم . وبعبارة أخرى يجب علينا أن نحافظ على ناموس كرامتنا لنقوم لنا بهذه المحافظة مصالحنا وما بقى لنا من المناصب فى الحكومة واعلموا أن كل حكومة لاتخلو من خطأ أو شطط أو عيب فى أحكامها وقوانينها لان الانسان مهما بلغت منزلته من العلم والعقل والتحرى فى الحكم

فلا يخلو من خطا إذ العقل محدود ولكن حكومتنا التى يدير رحى شؤونها جم غفير وعدد كثير من فطاحل الساسة ودهاة الامة اقل الحكومات خطأ لكثرة ما يتبادل رجالها الآراء والبحث والتنقيب ، فالتهور فى تسفيه اعمالها قبل النقد ودقة الامعان قد يسمى تعصبا وجهلا

وهذا وان كثيرين من الذين استعبدهم التقليد القديم وخيمت عليهم عنا كب الجهل والضلال ولم يبارح احدهم قرار داره او ظل جداره يفوقون سهام التنديد والاعتراض على من يريد اقتطاف ثمار التمدن الجديد واكتساب العلوم العصرية فهؤلاء معطلون لانفسهم ولمن يصغى لقولهم وان كانوا باعتبار الحكم الغالب لا يؤثرون بشيء إلا كما يؤثر الضرب فى الحديد البارد

واني لاثق من حضرات الافاضل الذين جمعهم هذا المجلس الحافل انهم يشكون فى أن ما القيه على مسامعهم لايخرج عن دائرة الاصول المرعية والقواعد المتبعة بمقتضى الدين المحمدى الحنيفى ، وهو إنا اذا رمنا اصلاح قومنا وحالنا وما آلنا ، اذا رمنا ترقية شؤوننا وتخليد آثار تدل علينا وتشهد لنا اذا رمنا محو حروف قهقهة الغربيين علينا من صفحات تاريخنا كما تمحى الحروف التى يهفو بها قلم الكاتب البليغ — فاعلموا انه يتعين علينا أن نشارك الامم العربيه فى معارفهم وأن نزاحمهم فى مساعيهم بالمناكب والاقدام فى كل خطوة يخطونها لكسب علم أو اختراع عمل ولا منقذ لنا من براثن الفقر ومخالب الجهل إلا اقتطاف جنى علومهم وادخال مدنيتهم بين ظهرانينا ليكون هناك شيء من التكافؤ بيننا وبينهم حيث لا حافظ لنا من الهلاك فى هذا المزدحم الشديد الا التكافؤ أصبح من المقرر المعلوم انه لاتكاد توجد صناعة أو تجارة أو أى حرفة كانت من حرف هذه الحياة إلا وهى متوقفة على معرفة اللغات والعلوم العصرية الغربية توقف اللازم على الملزوم والموصول على الصلة حتى أن خدمة العسكرية التى هى عمل القتل وسفك دماء البشر صارت متوقفة أشد التوقف على لغات الغربيين وعلومهم ، فنحن حتى لو

أردنا قتالهم فلا محيص لنا عن تعلم فنون قتالهم منهم وهم لايبخلون علينا أن يعلمونا ذلك

هذه العلوم من أهم وسائلها لدينا تعلم اللغة الانجليزية فيلزمنا قبل كل شيء تحصيلها واتقانها

رجعنا الى مبحث التعلم والتعليم ولعل جميع الحاضرين ظنوا انني ساتكلم عن مسالة المكاتب والمدارس الاميرية الموجودة الآن فى بلادنا وهل هي كافية بحاجتنا أو أن طريقتها في التعليم ناقصة غير مفيدة

على اننا قد بينا فى مواقف كثيرة أن الفريق المخالف لنا الذى يرجح اختيار طريقة التعليم الموجودة فى تلك المدارس والمكاتب يعترف معنا بانها ناقصة تحتاج الى تقويم بل الى ترميم وتغيير كثير

وبالجملة فانه يحق لنا أن نقول اننا لم نر أحدا من المسلمين الهنديين نبغ فى تلك الطريقة المسلوكة الآن فصار حكيما فيلسوفا أو مديرا يقتدى بسياسته ويفزع فى المهمات اليه وينتفع الوطن بعلومه ، ولعل بعض الناس يحتج على عدم صحة مدعانا بمثل المرحوم (السيد احمد خان) حكيم الهند المؤسس لنهضتنا أو بالمرحوم (النواب تراب على خان مختار الملك) وزير الدكن الشهير فاقول ان المذكورين لم يكونا كما يزعم الناس فيهما من نتائج تلك الطريقة وحدها بل هما أبناء جدها وكدها ومثابرتهما الطويلة على الاطلاع على كثير من العلوم والفنون دون الوقوف عند حد منها

ان مدار التعليم فى المدارس والمكاتب الموجودة على الامتحان المقرر وهو ليس اختياريا بل اجبارى يسد على الطالب مسام استنشاق أرواح العلم فيما ينفعه

وان للطريقة الجارية عيوبا جمة لايرضى بها من له مسكة ودين ومن اكبر عيوبها انها خالية من الكتب الدينية الاسلامية والاسفار التاريخية المتعلقه بالاسلام والمسلمين ولذلك نرى الطالب يقضى نضرة شبابه فى تلك

المدارس ثم يخرج منها لا يعرف من امور دينه شيئا ثم هو لا يعرف شيئا من تواريخ الاسلام ومغازى حضرة سيد الانام عليه الصلاة والسلام على انه لادير ولا رهبانية فى الاسلام .

ومعلوم ان قوى النفس الانسانية مفتقرة الى تعهدها بالتربية والتثقيف فالارض مثلا لا تعطى مافى ارحامها إلا بالفلاحة وهى لاتكون إلا بادوات خاصة بها واسباب تهيئها . والكتابة لا تكون إلا بالقلم وتوابعه .

وهذه الادات في التربية هى عبارة عن العلم الصحيح والمعلم الكامل والاخلاق المهذبة وحسن القدوة من الاهل والاقران وأحكام المراقبة التى يكون بها اجتناب كل ما يخل بالشرف والآداب المصطلح عليها مع تعهد مستمر فى تقويم الطباع المتاصلة والعقائد الموروثة إلى الصحيح السليم منها — والتربية بهذا المعنى تشمل الوقوف عند الاوامر والمناهي الشرعية بعد معرفة الحلال والحرام ومقاومة شهوات النفس وصرف قواها إلى صوالح الأعمال والكمالات الكافلة لسعادة الحياة وبعد الممات . وقوام التربية الاول رفض الافكار الخبيثة والاوهام الفاسدة المعطلة وتطهير الجوارح الظاهرة والباطنة من أدرانها الملوثة :

وانى لاعجب ممن يسلم زمام ولده إلى الشيخ أو البابو (البابو في اللغة الهندية المعلم الوثنى) ليعلمه ثم هو ينفض يده من كل شيء يتعلق به مقابل أن يدفع للمعلم عشر روبيات فى الشهر مثلا . فهل العشر روبيات المذكورة توجد فى المعلم تلك الصفات التى تؤهله لتربية وتقويم أخلاق التلميذ الذى بين يديه على تلك القواعد التي شرحتها — كلا ثم كلا . اننا إذاً نسلم أولادنا فى أنضر أيام حياتهم وأحسن أوقات قابلياتهم ليبقوا على الحالة التى يرثى لها من الجهل وشكاسة الاخلاق . والعشر روبيات فى الشهر وحدها لا يمكن أن توجد لنا أولاداً مهذبين

اننى لا أخطو بعيداً عن مقام التربية ولكن أريد أن أجيب نداء ذلك

الرجل الذى خاطبنا من أخريات الناس : خطابا مقتضيا قائلا : ان الكسب على الطريقة المشروعة أصبح أمراً غير ممكن ولذلك قعدنا عن الكسب تورعا وبعدا عن ارتكاب الشبهات فمر أرباب الثروة واليسار أن يدفعوا لنا زكاة أموالهم حتى نعيش" :

أيها الرافع عقيرته بهذا القول وما حملك عليه إلا خلع جلباب الحياء وتلبية نعيق سلطان الخمول والكسل لنقرع الابواب بعصا الفقر : إذا كنت تحب لنا ما تحب لنفسك — ولا نخالك إلا كذلك — فمن أين نكسب وكيف نعيش وكيف يكون للأغنياء مال يدفعون منه زكاته للفقراء ؟ إذا كنت صادقا فيما تقول ، فعلى م تطالب الاغنياء بفضلة مالهم المشوب بالحرام ؟

إذا تركنا الكسب من وجوهه الممكنة فكيف يحيا أمثالك وكيف يبقى لنا شرف وجامعة وحمية عصبية ؟ ياسبحان الله ؟ ما كنت أظن أن أحدا لا يردعه حاكم العقل والحياء عن أن يتفوه بمثل هذه الكلمات فى محفل عام كهذا . اننا وان كنا نخالف في الرأى بعض ما نهجته لجنة ندوة العلماء فاننا معترفون بالخدم الجليلة التى قامت بها وشاكرون لحسن مسعاها فى الاصلاح وترقية شؤون القوم . إذا كانت الغاية حميدة وكلنا يرمى إلى غرض حسن فحبذا ناضل منا ومنضول . استحسنت هى طريقا لخير الامة فنهجته ونحن استحسنا طريقا فسلكناه والله سبحانه يوفق الكل إلى ما اليه قصد

ولا بأس بان أقص عليكم بعض ما قد شاهدته فى (لكنهو) فقد ساقتنى البواعث إلى زيارتها منذ أيام وجمعتني الصدف بصديق الحميم القديم (مستر سايكس برنسيل لانارة تيزكالج) فاخذ بيدى إلى تلك المدرسة الشهيرة فشاهدت فيها ما بهرنى وسر ناظرى من رحب الموضع واتقان العمارة وأحكام البناء وتنسيق الغرف وترتيب محال جلوس الطلبة ونومهم وأكلهم ورياضتهم وحسن ادارة المعلمين والمستخدمين وما اشتملت عليه

من مناظر النزهة والبرك الفوارة والحمامات ومحل العبادة

وبالجملة فانه لم يقع نظرى على شىء استحسنته إلا انتقل بى إلى احسن منه حتى كأنى فى جنة فيحاء فسيحة الارجاء ممتدة الفضاء كما هى ممدودة الظلال يتخللها نهر جار على ضفتيه اشجار مصفوفة على ابدع مثال فاذا سبح الطلاب خرجوا إلى ملعب الرياضة والكرة

والخلاصة أن مدرسة كهذه مشتملة على ما ذكرنا من المرافق والمنافع وأنواع الرياضة والتعليم والتهذيب هي أحسن معهد الطالبين . تنفعهم في كل شىء ويعلق منها بعدها بهم كل شىء: وعلى هذا الوضع مدرسة كلكوتا ومدرسة في بلاد فرنسا : اسس المدارس الثلاث كما تعلمون رجل واحد هو ذلك الخادم للانسانية (الجنرال كلاد مارتن) ولم يقتصر هذا الرجل العظيم على تأسيسها وتشييد مبانيها بل انه وقف لها من الاموال والواردات مايقوم بمصارفها ابد الآباد

والغرض من ذكر مدرسة « لكنهو » أن لا أشق عليكم بذكر ما شط وبعد عنكم . فاذا كانت هذه المدرسة على مرمى النظر منكم فتأملوا اصلحكم الله وأرجوا الطرف الى هذه المدارس الثلاث وما ينفق عليها من الاموال الطائلة فى كل عام بل فى كل شهر بل فى كل يوم وننهض باعبائها همة رجل واحد. ان للوسط الذى يعيش فيه الانسان أكبر تاثيراً عليه وخصوصا فى أيام صباه فالطالب الذى يتعلم فى وسط يروقه من كل وجه ينطبع فى نفسه لرغم عنه مثال ذلك الوسط وتستهويه محاسنه او عكسها . والمدرسة التى شرحت لكم مثالها هى خير وسط يشب فيه الناشىء ويوثر مجلاه على نفسه فابذلوا كل جهدكم فى أن يتعلم أبناؤكم قبل كل شىء فى مدارس منظمة منسقة كهذه كل شىء بها حسن فى عين من يراه فذلكم خير من أن ينشا بين يدى ذلك الشيخ أو البابو بالعشر روبيات فى مكان قذر مظلم ليس فيه مايروق العين ويستهوى النفس فضلا عن حسن التعليم في تلك وسوئه فى هذا

أسس بطاليموس أحد حلفاء الاسكندر المقدونى مدرسة فى الاسكندرية كانت جامعة بين فنون التعليم والتربية وأنشا بجانبها مكتبة احتوت على أفيد كتب العلوم والفنون ، بتلك المدرسة وهذه المكتبة لا غيرهما أصبحت الاسكندرية مدينة العلم وكعبة طلابه من كل فج قريب وواد سحيق اصبحت المدينة بعد ذلك غاية مرمى كل قاصد فى علوم الفلسفة والطب والهيئة والرياضات كلها والموسيقى والشعر فجمعت بين العلوم والآداب وكانت أجل معاهد العلم فى أوقات عديدة حتى أن جاليانوس معلمها الشهير ألف أشهر كتبه وبطليموس ألف مجسطيه فيها ، منها أشرقت أنوار فلسفة الاشراقيين حتى كان الفلسفة كلها اسكندرية المهد ، حيث الاسكندرية بمدرستها وأحيت بعلومها مدنا شتى في قرون عديدة ولانزال تذكر بتاريخها العلمى المجيد من فضل مدرسة واحدة ومكتبة واحدة . فانظروا كيف تفعل المدرسة الواحدة فى العالم الكبير وفى الزمن الطويل ان شيدت على أساس متين وأسلوب نافع » .

مؤتمر التربية الاسلامى

(فى مدراس)

(خطبة الرئيس)

يتذكر القراء ما نشرناه في مثل هذا الوقت من العام الماضى عن مؤتمر التربية الاسلامى الذى انعقد فى رامبو تحت رئاسة العالم العامل (نواب عماد الملك سيد حسين بلغرامى الحيدر آبادى) ويتذكر القراء تلك الخطبة البليغة التى ألقاها حضرته في افتتاح المؤتمر المشار اليه . وقد كان يوم السبت ٢٨ ديسمبر مشهودا يوما فى مدينة مدارس حيث انعقد فيها المؤتمر الاسلامى للمرة الخامسة عشر من يوم تاسيسه، والذى يطالع الجرائد الهندية الاسلامية فى الاسبوعين الماضيين يجدها مشحونة بما ألقى فى المؤتمر من الخطب المهمة والمباحث الاسلامية والاقتراحات المختصة بكل مايرتبط بتربية المسلمين وترقية شئونهم ولكن انعقاد المؤتمر هذه المرة فى مدينة مدراس يمتاز عن غيره بنقطة واحدة كانت موضع الاخذ والرد بين كثير من فقهاء المسلمين هناك الا وهى كون الرئيس فى هذه المرة ليس مسلما ولكن انكليزيا ، والسبب فى ذلك ان حضرة (القاضى بودام) الذى ترأس المؤتمر هذه المرة كان من قبل رئيس الفرع مدينة مدراس. فلهذا السبب ولعدم وجود من يليق بين المسلمين فى ايالة مدراس لتولى المدرسة المؤتمر ترأس القاضى المشار اليه والقى خطبة افتتاحية لا تقل فى الاهمية عن خطبة العالم « نوب عماد الملك سيد حسين بلغرامى الحيدر آبادى » وقد استحسنها كل المسلمين هناك وشهدوا له بالفضل واعترفوا له بجزيل الخدمة. ومما يمتاز به انعقاد المؤتمر هذه المرة أيضاً حضور كثيرين من كبار الانجليز ومن ضمنهم الحاكم العام لولاية مدراس فانه حضر جلسات المؤتمر والقى

خطبة قصيرة قال فيها انه مشارك للمؤتمر فى مساعيه راض عن خدماته واعترف أن الحكومة تستقبل اعماله بكل سرور وانشراح

ولما كانت خطبة حضرة القاضى بودام مهمة فى حد ذاتها لتعلقها بكثير من المسائل الاسلامية من جهة ولكونها ايضاحا لرأى باحث أجنبى عن المسلمين هناك يرى الامور بغير العين التى يراها بها المسلمون ويعتبر حكمه حكم المشاهد الخالى من الاغراض من جهة أخرى رأينا أن نبدأ بترجمة خطبته المذكورة قال :

انى أعتبر نفسى سعيداً ولى الشرف الأكبر بانتخابكم إياى لرئاسة مؤتمر التربية الاسلامى للمرة الخامسة عشرة من انعقاده . لكننى مع ذلك لا أجد مندوحة عن الاسف من أجلكم لاسباب كثيرة : منها أنه لو كان رئيس المؤتمر من بينكم لكان أحسن وأنفع لانه بصفته واحد منكم يحس بما تحسون ويالم بما تألمون وينظر كما تنظرون ويقدر الغاية المطلوبة من المؤتمر كما تطلبون ويرجو النتيجة كما ترجون فانه يقدر على مشاركتكم ويقوم بخدمتكم . وكان يمكنه أن يخطب بينكم بلغتكم ويفهم الخطب التى تلقى بلسانكم ويلاحظ الاقتراحات التي تقدم منكم وكنتم تضعون فيه ثقتكم وتنظرون إلى آرائه بغير العين التى تنظرون بها إلى آرائى وأفكارى . وتعتبرونه غير الاعتبار الذى أخاف أن تنسبوه إلى لكونى غير مسلم مثلكم . ولكن من الاسف أن المسلمين فى هذه الولايه لا رئيس لهم يلجاون اليه فى مثل هذه الظروف لانهم مختلفون منشقون كل يشايع حزبا ويعضد فريقا . فلذلك كان من الصعب جدا أن يتم الوفاق على رئيس المؤتمر وعسى أن انعقاد مؤتمر التربية فى عاصمة هذه الولاية يكون سبباً فى جمع كلمتهم وارتباط جامعتهم ووسيلة لبث روح الوطنية فى أفئدتهم ان لم يكن من كل الوجوه فعلى الاقل فيما يؤدى إلى رفع شانهم واعلاء مقامهم وطرح أسباب الشقاق

والشحناء من بينهم ليقوموا بما يعود بالخير عليهم وعلى أبنائهم واخوانهم فى الدين والجنس

لهذه الاسباب قبلت رئاسة المؤتمر مضطرا بالرغم عنى بعد التردد الكثير . قبلت الرئاسة أملا فى أن أكون سبباً فى افادة الامة الاسلامية فى هذه البلاد عسى بذلك أن أؤدى خدمة تقوم مقام ترأسى على مؤتمرهم مؤملا منكم أن تسبلوا ذيل العفو عن هفواتى ولا تقارنوا أقوال الركيكة بما القى على مسامع أعضاء هذا المؤتمر فى جلساته السابقة من خطب البلغاء وملح الحكماء والفصحاء

منذ عقد المؤتمر فى العام الماضى لم يقع فى العالم إلا حادثان مهمان بالنسبة النا ولكم : أحدهما وفاة جلالة الملكة فكتوريا أول امبراطورة لهذه الديار والتى كانت أخلاقها الشخصية مثال آداب المدنية الحقة والتى كانت مشهورة بحبها لرعاياها الهنود وخصوصاً المسلمين. وثانيهما وفاة الامير عبد الرحمن خان جاركم وصديقكم الذى اشتهر بالسياسة والحكمة . فارى من الواجب عند اجتماع هذا المؤتمر أن يعلن أسفه على وفاة هذين الملكين الجليلين واكتفى بان اشير إلى أن فى كلا الخطبين مصابا لنا جميعا

كلكم تعلمون علم اليقين أن مؤسس هذا المؤتمر هو المرحوم (السيد احمد خان بهادر) الذى أسس أيضاً « مدرسة عليكدة الاسلامية » . وأقول أنه لا توجد ذكرى ناطقة ولا تمثال حى ثابت أعلى وأرفع من هذا التذكار الذى شيده بيده . ففى كل عام يجتمع قادة الافكار من المسلمين في مدينة من مدن الهند ملبين لندائه للبحث في كل ما يتعلق بالتربية للناشئة وما يخص المسلمين من المسائل المهمة الاجتماعية وغيرها . هذا والمدرسة تربى كل يوم افرادا من الناشئة الاسلامية يكونون رجال المستقبل النافعين الناجحين .

كذلك أقول أن بقاء هذا المؤتمر حيا ناميا يرجع إلى مساعى الدين لبوا دعوته فى هذا العام وأتوا اليه من كل فج عميق للقيام بما تفرضه عليهم جامعتهم ودينهم

ان الغرض الذى يرمى اليه هذا المؤتمر الاسلامى هو نشر التربية العصرية اللازمة لهذا الزمن بين أفراد الأمة الاسلامية فى الهند مع ما يصلح وينفع من علوم الشرق وآدابه المشهورة . ولهذه الأسباب يلزم أن يشارك هذا المؤتمر فى مقاصده كل من يريد الخير والاصلاح للأمة الاسلامية ومن أكبر الدلائل على نهضة المسلمين أنهم بعد أن أهملوا وسائل التعليم التى وضعتها أمامهم الحكومة قاموا اليوم يسعون للبحث عن أنفع الوسائل لتربية ناشئتهم الاسلامية كما يبغون لعلمهم أن نظامات المدارس التابعة للحكومة لا تصلح لهم تماما لاسباب تعرفونها . وقد كان المرحوم السيد احمد خان أول من تنبه إلى ذلك وعرف أن المسلمين نافرون من العلوم العصرية فاراد أن يجذبهم فيها ويعرفهم ضرورتها لهذا الزمن . فكان أول عمله السعى فى تاسيس (مدرسة عليكده) التى بدأت تعلم المسلمين قيمة الاعتماد على أنفسهم والسعى لنجاحهم بانفسهم وصارت تخرج شبانا عارفين بمقدار الواجب عليهم . كذلك كان المؤتمر الاسلامى فى كل جلساته الماضية واسطة كبرى لبث هذه الروح التى يؤمل كلنا أن تقوى وتشتد فى نفوسكم وتاتى بالفائدة المطلوبة

أجل اذا كان المسلمون يريدون أن يعودوا إلى سالف مجدهم وسابق عزهم فليضعوا نصب أعينهم صفتى الاعتماد على النفس والسعى بالنفس . وحيث أن هذا المؤتمر مؤسس على هذا المبدأ ناشىء على هذا المنهاج فهو جدير باعجاب كل العقلاء ومساعدة كل انسان يحب أن يجعل السعى والعمل والاجتهاد والتيقظ مكان الكسل والخمول والنوم مما اشتهر المسلمون به فى العصور الاخيرة . وانتم تعلمون أنه فى مزدحم هذه الحياة يتخلى الضعيف للقوى ويقتضى المتيقظ على النائم وكل ما يقال عن الافراد يقال عن الامم سواء بسواء

ولا أظن أنه يوجد من يشك ولو لحظة فى أن هذا المؤتمر يؤدى

للمسلمين خدمة كبرى . إذ قد نام المسلمون بينما ارتقت الامم الاخرى وساروا سيراً بطيئا بينما كان غيرهم يعدوا عدوا . وقد كان للمسلمين من زمن قديم مركز عال فى هذا الوجود وكانوا أمة راقية سامية . فاى داع يمنعهم من أن يصلوا يوما من الايام إلى درجتهم الاولى ؟ انما يتعلق هـذا الامل بهم انفسهم فلن يخدم أحد أحداً

كان المسلمون أولا ذوى نفوذ وسطوة . ومع انهم كانوا أمة حربية رجال سيف فقد كانوا أيضا رجال قلم وأرباب علوم . طالما اشتهروا فى الفلسفة والآداب والعلوم الرياضية والطبيعية وكانت لهم المدارس الشهيرة فى القاهرة وبغداد وسمرقند حيث كان الطلبة يزدحمون على ورود مناهل العلوم وهذه بلاد الاندلس كانت أرقى بلاد العالم في المدنية والعلوم ومن العدل أن تتذكروا هذا المجد القديم وتنشدوه . لاتفتخروا به كما يفتخر بالعظم الرميم ولكن ليبعث فيكم روح العمل والتشبه والهمة العالية

حقيقة ان كنتم تتذكرون الماضى العظيم وتكتفون بلذة الذكرى وتنامون بعدها على اصمخة آذانكم فالاولى بكم أن تنسوا الماضى وأن تعرفوا أن مانقل اليكم عن مجد آبائكم محض أقاويل ملفقة . وأما ان كنتم تتخذون الماضي عبرة وتتشبهون بالاباء والاجداد وتسعون لنيل ما ادركوه من قديم الا زمان والاباد فافتخروا بماضيكم فهو جدير بالافتخار

وعلى كل حال فالماضى ماض والحاضر حاضر وقد مرت عليكم السنون الطوال وانتم لاهون غافلون حتى اذا تيقظتم من ثباتكم العميق وجدتم الامم الأخرى التى هى دونكم قد أخذت بالقسط الاوفر من التقدم وسبقتكم بشوط بعيد فى الثروة والقوة والعلم . ويعجبنى قول (النواب عماد الملك السيد على بلغرامى) فى الخطبة التى القاها فى العام الماضى على هـذا المؤتمر حيث قال : « غرست بذور التأخر والاضمحلال فى اليوم الذى غفلت فيه عيوننا ونامت عقولنا واكتفينا بمجد آبائنا وأسلافنا . عندذلك فقدنا الشهرة

فى أدراك العلوم وعند ذلك ضاع كل شيء وتراخت أعصاب الامة وقواها الحيوية وفقدنا الشجاعة والنشاط والمطامع ومعها فقدت الثروة والقوة والحياة ، ومن الغلط أن يتصور بعضهم أن المسلمين فقدوا كل ما بقى لديهم بعد أن فقدوا قوتهم والتاريخ شاهد عدل على أننا بدأنا بفقد كل شيء حينما أهملنا كل الوسائل التى تحفظ قوام القوة . »

وفى هذه الايام أصبحت العلوم قوة ولا يتأخر فى ميدان الحياة الا الجهلاء الاغبياء أما الذين يسيرون مع تيار الزمن ويحصلون على كل ما فيه من العلوم والمعارف والمطالب فهؤلاء الذين يصلون الى أغراضهم ويدركون أمانيهم ويحصلون على الثروة والجاه والشرف . وأن أمثال هـذه المؤتمرات هى التى تنهض بكم وتعلى شأنكم وتعيد لكم سابق مجدكم وعزكم . وان المحور الذى دار عليه المؤتمر منذ أنشيء هو أن المسلمين فى الهند ليسوا فى درجة تماثل اخوانهم من بقية رعايا جلالة الملك وأنه إذا لم يجتهد المسلمون فى رفع شأنهم حتى يساووا غيرهم من الانكليز وسواهم فلا يطمعون فى المساواة بغيرهم ومما يعلى قدر المسلمين فى أعين العالم أنهم فقهوا هـذه الحقيقة من انفسهم بعد اعتمادهم على الحكومة الانكليزية وثقتهم التى علمهم اياها المرحوم السيد احمد خان الذى أدرك قبل غيره أنه فى الوقت الذى يصبح فيه المسلمون فى درجة مساوية لاخوانهم الانكليز والهندوس فى العلوم والمعارف والاستعداد فانهم يقفون مع الجميع فى صف واحد

والآن نسأل كيف يكون الوصول الى هذه الغاية المتمناة ؟ أقول ان أمثال هذه المؤتمرات الاسلامية هى من أكبر الوسائل لنيل هذا الغرض لانه بواسطتها يجتمع المسلمون فى صعيد واحد ويتبادل قادة أفكارهم أطراف البحث في كل ما يتعلق بالتربية ومستقبل أمتهم . هنا حيث يجتمع مسلمو الشمال بمسلمى الجنوب والشرق والغرب تأتى الفائدة وتثمر المساعى لانهم متى رأوا انفسهم مشتركين فى عمل واحد يعرفون قيمة الاتحاد ويدركون

أن على عاتقهم واجبا يجب أن يقوموا به جميعا وان كل فرد منهم مكلف بان يجهد نفسه آناء الليل وأطراف النهار ليرفع شان أمته . ومتى اتحدت كلمتهم نشا من ارتباطهم كل صالح ونافع لكم

ومن الآراء الأساسية عند قادة المصلحين من زعماء المسلمين ان نظام التربية الذى تسير عليه مدارس الحكومة فى الهند غير صالح لهم ولا يؤدى الى العادية التى رسموها لمستقبلهم ، وانه يجب أن يجتهدوا انفسهم بكل الوسائل لجعل التربية والتعليم صالحين لحاجاتهم ، ويجب أن تنشر هذه الفكرة بينكم وهى أن مدارس الحكومة كما قلت لا تكفيكم حتى يمكن لامثال هذه المؤتمرات أن ترسم الخطة اللازم اتباعها ، نعم وإن كانت الحكومة منذ تولى شئونها أول حاكم اتى الى هذه الديار الى الان ميالة الى نشر التربية والتعليم بين رعاياها ، إلا أن ذلك لايمسكم من الاعتماد على انفسكم لايجاد الاصلاحات فى التربية اللازمة لكم . واسمحوا لى أن اقتطف من خطبة (القاضى امير على) التى القاها فى العام الماضى على هذا المؤتمر الجملة الاتية لان عبارته فيها تكون اوقع فى نفوسكم من غيرها قال .

« نحن اليوم على عتبة باب قرن جديد وكل انسان لا يسعه إلا أن يستقبله بقلب ماؤه الفرح والسرور بما يتخيله من الآمال التى يمكن تحقيقها والغايات التى يؤمل الوصول اليها عند نهاية هذا القرن الجديد . يجب أن يكون اعتقاد الناشئة التى حضرت افتتاح هذا القرن أنه عصر لايفوز فيه إلا كل معتمد على نفسه وانه يترتب على مساعى كل فرد منهم وقيامه بواجب مستقبل الامة التى هو فرد من أفرادها . ويجب كذلك أن تضع الناشئة نصب عينيها أن هذا القرن سيكون قرن تقدم وارتقاء فى العلوم والمعاوف بين أبناء هذه الامة وانتم اليوم فى أيدى حكومة عادلة تحب الخير والنجاح لكم ولتكونوا على يقين أنها من أفضل الحكومات وأميلها الى نشر راية العدل والتوفيق بين رعاياها . وانما أقول هذا توطئة لما أريد ان القيه عليكم اذا انتم تعلمون ان

الهنود ليسوا أمة واحدة ولنهم يتألفون من عناصر مختلفة فى الاديان والعادات وكل عنصر من العناصر منقسم الى شيع ومذاهب دينية واجتماعية وان لكل عنصر آمالا ومقاصد خاصة به. لهذا أصبح الواجب الملقى على عاتق الحكومة ثقيلا ولا يوجد رجل ذو ذمة صادقة ينكر على أن الحكومة مع ذلك تعمل كل ما فى وسعها لاتباع خطة عادلة حرة لا تميل الى فريق دون فريق لكنكم تعلمون من ذلك أن الحكومة لا تقدر أن تعضد فريقا دون آخر وانه من الواجب على كل عنصر أن يسعى بنفسه لاصلاح حاله وترقية شئونه . ولا أنكر عليكم انه ربما ظهر في بعض الاحايين أن الحكومة عضدت عنصراً أو رفعت شان فريق لكن متى اعتقدنا ان ذلك قد وقع بلا غرض أو بدون ظلم يتضح لنا أن الحكومة كما اعتقد وكما اعرفه بالتجربة لا تشايع حزبا ولا تميل الى عنصر مخصوص دون سواه . متى عرفتم ذلك فلا تنتظروا من الحكومة أن تغير نظام التربية والتعليم فى مدارسها لاجل مصلحتنا وحدنا »

هكذا قال « القاضى أمير على » وهكذا أقول لكم . وانه ان كان التعليم فى مدارس الحكومة الهندية صالحا لعامة رعاياها فليس من جهة أخرى بصالح لكم تماما . ولذا بقى عليكم أن تسدوا الخلل بايديكم . واعتقد أن الحكومة لو أمكنها أن تساعدكم دون أن تظلم بقية رعاياها من الطوائف الاخرى لفعلت ذلك من تلقاء نفسها مع السرور والرضى

صرح اللورد كورزون « فى الخطبة التى القاها على طلبة مدرسة عليكيده وترجمناها عندئذ فى المؤيد »[1] انه لا تكون التربية كاملة ما لم تؤسس على مبادىء الدين . تلك حقيقة لا يعارض فيها أحد لانه لا تكون التربية كاملة أو مفيدة ما لم ترم إلى تقويم الاخلاق والنفوس . والتربية الخالية من المبادىء الدينية انما يقصد بها تربية الملكات العقلية والجثمانية لتؤدى الوظيفة

---

(١) راجع هذه الخطبة بتمامها في هذه المجموعة

المطلوبة منها والغاية التى نسير فى طريقها . لكن التربية بمعناها الحقيق لها مقصد أوسع من ذلك وغاية أرفع وأعلى . فان الرجل قد يكون عالما نبيها لكنه في حاجة إلى من يدبر قواه العقلية ويقودها فى طريق يؤدى إلى مصلحة العنصر الذى هو منه فضلا عن مصلحته الشخصية . وأنه يغير التربية الكاملة قد يكون سببا فى جلب الضرر بدلا من الخير إلى أمته ونفسه وكثيراً ما تكون تربية الشخص وتعليمه سببا في زيادة جلب الضرر وجر البلاء والمصائب على قومه ونفسه . واذكر لكم حادثة وقعت تحت نظرى من هذا القبيل فى انكلترا .

منذ بضع سنوات اتهمت احدى شركات السكك الحديدية أحدعمالها بانه زور تذاكر عديدة وقد كان هذا المتهم أحد موظفى قلم الهندسة ، وكان من أبرع العمال وانبههم ولكنه كان مضطراً الى الانتقال بعد تأدية وظيفته الى جهة بعيدة عن محل شغله : ولما كان راتبه قليلا لايكفى لحاجاته ونفقات الانتقال زور تذاكر لسفره ولكنه انقن التقليد وصارت التذاكر المزورة أشبه بالحقيقة فى حروفها ورسمها وشكلها حتى أن الشركة مع علمها أن هناك غشا لم تقدر أن تعرف كيف دخل عليها هذا الغش ولا أى التذاكر مزورة وحتى أنه لما جاء وقت المحاكمة ووضعت التذاكر المكذوبة بجانب الحقيقة لم يقدر القاضى أن يميز بينهما ، ثم حكم على الرجل بمدة سجن طويلة وثلم شرفه ولم يعد له أدنى أمل فى نيل وظيفة مثل وظيفته السابقة التى هو جدير بالحصول على مثلها وأعلى منها . وهذا الرجل تربى تربية طيبه معنى مخصوص ولكن ليست التربية التى تجعله عضواً نافعا فى الهيئة الاجتماعية . بل بالعكس جعلته ضرراً وداء فى وسطها . ولو أنه تربى التربية الكاملة بالمبادىء الدينية لكان مع اليقين أصلح وأنفع ولوجد فى ذمته ما يردعه عن الغش والتزوير .

ولا تكون التربية كاملة نافعة مؤدية للغرض الحقيقي مالم يكن من نتائجها تهذيب النفوس وتقويم الاخلاق وارشاد الاميال الانسانية وترقية العقول البشرية : واننى أعرف أن المسلمون يهتمون بالعقائد الدينية ، إلا أن المقصود يجب أن يكون عند الذين يطمحون الى ايجاد الرجال ذوى النفوس الكبيرة التربية الدينية لتقويم الاخلاق بها لا العقائد وحدها

من الراسخ فى الاذهان بل من القضايا المسلمة بالبداهة ان كل مسلم عارف بمنافع التربية راغب فيها له ولابنائه . ولكن هل هـذا ينطبق على الواقع ؟ ألا نرى كثيرين من أولاد المسلمين الراقين نوعا يلعبون فى الطرق والحارات وهم صغار ويقضون العمر فى سفاسف الامور وهم كبار ؟ وان لم يكن كذلك افلا نجد ان أغلب المسلمين يكتفى بارسال ابنه الى اقرب مكتب ويقتنع بانه سلم ولده وفلذة كبده الى فقيه أو معلم قريب منه ؟ أهذا كل الواجب وبعبارة أخرى أليس الواقع كذلك ؟ بل اليس الكثيرون من المسلمين يهملون أولادهم بعد المدارس ولا يعيرونهم ادنى التفات لتقويم أخلاقهم أو مراقبتهم ؟ أو لايكتفى المسلم بان يرى ابنه قد تعلم مبادىء القراءة والكتابة وبعض العلوم السطحية ويظن بعد ذلك ان ابنه قد حصل على التربية اللازمة بل الكاملة ؟ مثل هؤلاء الاولاد في الحقيقة يشبون جهلاء يقودون انفسهم الى مهاوى الضلال والفساد . والذنب ذنب الآباء حقيقة لانهم لم يكلفوا انفسهم مشقة البحث عن انفع السبل لتربية أولادهم أوماهى الوسائط اللازمة لحمايتهم وتربيتهم التربية الحقة

ولا شك فى أنكم تفهمون أن الغرض من التربية الدينية فى أول تعليم الاطفال هو لكى تنطبع فى عقولهم المرنة مبادىء الفضيلة والتقوى التى تؤسس عليها دعائم التربية الحقة النافعة فى مستقبل الايام . وأؤكد لكم ان هذه هى الطريقة المثلى : ولكن يجب أن لاتقف التربية الدينية عند هـذا الحد أى حد الطفولية بل يجب الاستمرار على تلقينها حتى اذا ارتقى عقل

الناشئة تنمو الفضيلة فيه كما ينمو جسمه ويشب بعد ذلك على المبادىء العالية والمقاصد السامية مع شرف الغاية وطهارة الذمة . وفى بلادنا نحن الانكليز يتلقن الطفل وهو فى حجر أمه كل ما يهذب نفسه ويقوم أخلاقه ويؤسس فى قلبه مبدأ الشرف ودعامة الادب . وحينما يأتى الزمن الذى يذهب فيه للمدرسة عادة الى مدرسة داخلية حيث تكمل تربيته الدينية ويلتفت المعلمون الى ترقية آدابه النفسانية حتى تنغرس فيه وهو فى المدرسة مبادىء النظام وآثار الاجتماع وغير ذلك من الصفات التى تنشأ من وجوده فى وسط شريف مع أساتذه ومعلميه والطلبة أمثاله مما يكون سياجا له من الوقوع فى الشرور والمفاسد بعد المدرسة .

ولا أنكر أن كثيراً من الناشئين بعد أن يخرجوا من المدارس ينسون ما تاسس فى نفوسهم من الفضائل وينساقون فى طرق المفاسد عند احتكاكهم بالعالم وما فيه من المقدمات التى تؤثر على عقول الشبان بنوع خاص ، ولكن هذا أيضا لايكون الا لنقص سابق فى ناموس تربيتهم وأننى أقول لكم صريحا أن أفضل مدرسة لتعليم الطفل هى حجر أمه حيث ينشا فيه على الفضائل وتنغرس فى نفسه المبادىء الشريفة . وان الأمة التى لاتعظم مقام المرأة وتعلى شانها لايمكن أن تكون أمة راقية . وكل أمة لايشترك فيها النساء مع الرجال في الاميال والمقاصد ويلتفتن الى تربية الابناء فلا بد لها من السقوط والاضمحلال مهما كانت راقية عالية ، فلذلك أرى من اكبر الواجبات على المؤتمر أن ينظر فى شان تربية البنات بل أرى ان يجعل ذلك من أول واجباته ، واقول أيضا ان أكبر عامل في ترقية الامم يرتبط بالنساء وتربيتهن . وسواء كانت نساؤكم على درجة طيبة من التربية والتعليم أولا فذلك مما أتركه لكم للبحث فيه وأكتفى بان استلفت انظاركم الى هذا الأمر المهم :

يقولون ان الطفل هو ولد الرجل . وفى هذه البلاد ينشا الطفل وأمامه

عقبات شتى أكثر منها فى جهة أخرى . والسبب في ذلك أن الطفل محتاج الى تعلم اللغة الهندوستانية لضرورتها له فى مستقبل الايام ومحتاج أيضا الى تعلم اللغة الانكليزية وهذا بلا شك من العقبات الكبرى . ولا أرى لهذا المشكل سوى زيادة العمل والاجتهاد . والعقبة الثانية تتعلق بالتربية الدينية لان المدارس التى يمكن أن ترسلوا أولادكم اليها خالية من التربية المذكورة لكونها مدارس عامة لجميع الطوائف . والمدرسة النافعة لمستقبل الناشىء من المسلمين هي المدرسة التى تكون التربية الدينية الاسلامية فرعا من فروع التعليم فيها . »

ثم بحث الخطيب فى مسائل كثيرة تتعلق بالمدارس المخصوصة فى ولاية مدارس مما لايهم القراء فى مصر فنكتفى بالاشارة اليها الى أن قال

« يقولون لى ان الامة الاسلامية فى هذه الديار في فقر مدقع . واقول ان السبب في ذلك ان المسلمين فاتتهم فرص كثيرة لم ينتهزوها وانكم اذا لم توطدوا العزائم على النهوض من وهدة الفقر التى سقطتم فيها فلا أمل لكم فى نجاح : والسبيل الممكن لذلك هو انه تعملون كل ما فى امكان لتخليص أبنائكم من قيود الجهل ليقوموا بما لم تقدروا ان تقوموا به ولا تفوتهم الفرص التى فاتتكم ، والذى يراقب عاداتكم يرى أنكم تنفقون الاموال الطائلة في الاحتفالات والمظاهر الفارغة مما لايفيدكم ولا يفيد أبناءكم فهل يزيدكم شرفا ورفعة أن تنفقوا الاموال فى العادات حتى يقول الناس ان هذا الرجل غني وعظيم ؟ — لاأقول لكم اتركوا عاداتكم واحتفالاتكم اللازمة ولكن أنصحكم أن تقتصروا منها على ما يفيد ويؤدى إلى انفاق المال فى السفاسف . وليكن ما تقتصدون من ذلك مقصوراً على تربية أبنائكم وتعليمهم . اتحدوا فيما بينكم وليكن اغنياؤكم وكبراؤكم نموذجاً لاخوانهم فى الاقتصاد . وليعضد أغنياؤكم الفقراء منكم فى طلب العلوم والمعارف . وهذا الوقت صالح لكم فلا تضيعوا الفرص التى أمامكم ولا تتأخروا إلى

الوراء أبداً فان الحيوان إذا جفل سبقه سواه وحاز قصب السبق . أسسوا لكم مدارس كالتى أسسها لكم المرحوم احمد خان

أيها السادة : انكم قدمتم من كل بقعة من بقاع الأقطار الهندية لحضور هذا المؤتمر فاسمحوا لى أن أشكركم بالنيابة عن اخوانكم المسلمين فى هذه الولاية فانهم فى أشد الاحتياج إلى نصائحكم وتجاربكم المفيدة

يتضح لكم مما قلته أن أفضل مدرسة لتعليم أبناء المسلمين هي المدرسة التى تجمع فى نظام تعليمها بين التربية الدينية والعلوم العصرية لانهم فى مثل هذه المدرسة يبتدءون في تلقى مبادىء الفضيلة وتقوم أخلاقهم فى صغرهم بينما يتعلمون العلوم النافعة لهم فى مستقبل الحياة . هذا هو رأيى واظنكم توافقونى عليه . ثم أزيد عليه أن الطريقة التى تسيرون عليها فى التربية الدينية غير كافلة بالغرض لانها مقصورة على تلقين معلومات دينية وعقائد تعلق بالاذهان ولكن لا تهذب النفوس كما هو المقصود . وإذا جعلتم تهذيب النفوس وتقويم الاخلاق مندمجا فى تعليم دروس العلوم والعصرية فانكم تحصلون على مرادكم وتقتصدون فى الزمن إذ بدلا من أن تبتدئوا بالتعلم الديني وحده وتمضون فيه الازمان الطويلة ثم تعكفوا بعد ذلك — أى بعد أن يشب الناشئون — على تعليم العلوم العصرية تضيعون الزمن فى وقت يكون أبناء الطوائف الاخرى قد حازوا الشهادات العالية وانخرطوا في سلك العاملين فى الحياة بل ربما يكونون قد وصلوا إلى درجات عالية فيها وتكونون بهذه المثابة أشبه بمن يسابقه غيره في ميدان واسع . فهذا يسير فى أرض سهلة وطريق ممهد وأنتم تسيرون فى سبيل كله عقبات وعوائق . وإذا أنتم اتبعتم الخطة التى رسمتها لكم فانكم تمهدون الطريق لأنفسكم وتتساوون بغيركم ولهذا السبب أرى أن مدرسة عليكدة التى يسير على هذا النظام من أنفع المدارس للمسلمين وحبذا لو كان لكم فى كل ولاية مدرسة مثلها .

والسبب فى كونها كذلك أنها مدرسة أهلية أسسها المسلمون بأنفسهم ولهم فائتم على ذلك تحتاجون إلى مدارس تكون ملكا لكم تسير على النظام الذى ترونه نافعا ناجحا. ويكون فى كل مدرسة أماكن لسكنى الطلبة تحت رعاية الاساتذة الفضلاء الذين يكونون حراسا رقباء على التلامذة ويكونون نموذجا للصفات الفاضلة وقدوة في مكارم الاخلاق

ولا تظنوا أن طائفة من الطوائف أو الحكومة أيضا تعاكسكم في مساعيكم . بل بالعكس متى وجدوكم تعملون كل مافى امكانكم وتجهدون أنفسكم لا يستريح لكم بال ولا يستقر لكم خاطر فانهم يكونون معجبين بكم ان لم يكونوا من أنصاركم . فالهندوس والطوائف الاخرى لا يبغضون أن يروا اخوانهم ناجحين مجتهدين ليتكون منكم ومنهم عمال ذوو كفاءة ينهضون بالامة الهندية كلها إلى ذرى السعادة والتقدم

ويجب عليكم أن لاتستبعدوا الغاية وتتخيلوا الوصول إلى المقاصد أمراً مستحيلا فمن جد وجد ومن سار على الدرب وصل . ولا تعتذروا بقولكم (اننا فقراء) وتطلبون من الحكومة أن تكون وصية عليكم سائرة بكم ان ذلك أمر مستحيل . لكن تيقنوا أن الحكومة لاتتاخر عن مساعدتكم متى رأتكم تعملون لانفسكم

وحيث كان الشرق فى الازمان الماضية منبع العلوم ومشرق شمس العرفان فقد أصبح الغرب هو محل مقتبس المعارف فى هذا الزمان ؛ فيجب أن توجه عنايتكم إلى الاخذ من علوم الغرب ومعارفه . هذا فضلا عن أن الحكومة التى تدبر شؤونكم غربية انكليزية وكل هذا دليل على أنه يلزمكم أن تاخذوا بالعلوم التى تفيدكم لدى هذه الحكومة لغة ومعارف

وانى أعرف أنه يوجد بينكم من ينظر إلى علوم الغرب بعين السخط ويخاف منها ويقول أيضا أن كل ما يلزم للدين والدنيا موجود في علوم العرب وعسى أن هذه الفكرة تكون آخذة فى السقوط والاضمحلال وان

المتمسكين بها قلال العدد . وان كان هذا الفريق يخاف من علوم الغرب العصرية ظنا منه أنها تؤثر على الدين الاسلامى وتضربه فانا أقول له اطمئن على دينك فالاسلام باق لا يتأثر بشيء من هذا والاسلام دين ليس فيه مايعارض العلوم أبداً لانه دين عظيم متين بحث على ترقى العقل فى المنطوق والمفهوم وسيبقى بينكم من علماء الدين من يحافظ على الدين دواما بل أقول ان زيادة ترقى العقل فى العلوم العصرية والمعارف الجديدة مما يساعد على تقوية الدين فى النفوس وانزاله المنزلة التى يستحقها . اذا تقرر هذا لديكم وأن لا خوف على الدين أصبح من الواجب عليكم أن تاخذوا من العلوم العصرية وصنائعها بالقسط الاوفر لتفوزوا بمعارفكم بين الامم كلها

وفى الختام أقول لكم أيها السادة أن وجودكم في هذا المؤتمر يدلكم على فائدة اتحاد المسلمين . ولذا أشير عليكم أن تزيدوا فى اهتمامكم بالمؤتمر فتؤسسوا له فروعا ثابتة فى كل مدينة تجمع بين أعضائها أهم رجال الاسلام حتى تصبحوا جميعا مرتبطين بروابط لا تنفك أبداً ، او بعبارة يصبح المسلمون كلهم فى كل بقعة من بقاع الهند ضمن دائرة واحدة يشعر كل فرد منهم بما يشعر به الآخر . وفضلا عن ذلك فانى اقترح عليكم أن يكون لكم اكتتاب اسلامى عام تقدم اليه تبرعات أعضاء المؤتمرات الفرعية ، وأن يبقى باب هذا الاكتتاب مفتوحاً على الدوام لمساعدة مدرسة عليكده وتأسيس المدارس اللازمة لكم في كل الولايات . ومن لا يقدر على دفع الاموال يجود بنفسه لخدمة أمته وتقديم النصائح مع السعى المتواصل

أيها السادة : اسمحوا لى أن أشكركم مرة ثانية على تكرمكم بالاصغاء لما القيته عليكم . وقد أطلت الكلام كثيراً عما يختص بهذه الولاية ومدارسها ، ولكن الم أكن محقا فى ذلك ؟ — وأعرف أننى قلت بعض الشيء الذى الايسركم ، ولكن اليس من وظيفة الصديق أن يحذر وينبه بدلا من أن يتملق ويفرح بالفاظ لطيفة لا تفيد البتة ؟ انى صرحت لكم بما أحس به

من صميم فؤادى وما أشعر به نحوكم وقلت لكم الحقيقة فى ثوبها العارى عن التنميق والتزويق لكى تسعوا بانفسكم إلى مصلحتكم فانكم ان لم تخدموا أنفسكم لا يخدمكم احد . وقلت واقول لكم أن الحكومة لا تساعدكم فقد عملت الواجب عليها ، وانكم إذا لم تنفضوا غبار الكسل عنكم ، وإذا لم تنفقوا أموالكم وتقدموا كل ما يجب عليكم ، وإذا لم ترتبطوا ببعضكم ، وإذا لم تؤسسوا مدارسكم فان الحكومة تبقى بعيدة عنكم : فلهذا أنصحكم أن لا تضيعوا أوقاتكم فى المناقشات والجدال وان تتفقوا على عمل فذلك انفع لكم من طويل الكلام لكى تشهد الحكومة وتشهد الطوائف الاخرى ويعترف العالم اجمع ان مسلمى الهند ليسوا امة خاملة جاهلة . »

خطبة

حضرة العالم الفاضل خوجة غلام الصقلى [1]

نشرنا ترجمة خطبة رئيس المؤتمر التى كان لها حسن الوقع عند جمهور القراء ووعدنا بترجمة كل مانراه مفيدا من الخطب والمناقشات التى تلقى أو تدور فى المؤتمر المذكور . ولا يخفى ان كثيراً من أعمال المؤتمر ومذاكراته تتعلق بمسائل هندية بحتة لا تهم المصريين كثيراً . ولكن يوجد بعض أمور عمومية مثل المبحث الذى نترجمه للقراء اليوم بهم أهل الهند وغيرهم :

ففى الجلسة الرابعة من جلسات المؤتمر اقترح حضرة الفاضل (خوجه غلام الصقلى) عمل شىء يؤدى الى الاصلاح الاجتماعى بين المسلمين. والمراد هنا بالاصلاح الاجتماعى هو تحسين العادات وترقية شؤون العائلات والمجتمعات وكل مايرتبط بالحياة الحقيقة للامة . وقد عضده فى هذا الاقتراح حضرة الفاضل (السيد عبد الحق) ناظر المدرسة الحربية بحيدر آباد. وقبل أخذ رأى الأعضاء في هذا الموضوع القى حضرة مقترحه الخطبة الآتية التى كان لها الوقع الحسن فى نفوس الحاضرين قال:

أيها السادة :

ان ماقترحته عليكم من أهم الامور وأنفعها . ولا شك فى أن بعض الافراد الذين يميلون الى المحافظة على كل قديم والتمسك بكل مألوف معتاد ينفرون من كلمة اصلاح ويقابلون اقتراحى بآذان صماء . واعترف لكم صريحا بأننى وقفت بين الاقدام والاحجام عندما أردت أن أبدى لكم هذا الاقتراح لعلمى انه ربما انه أدى الى انشقاق وانقسام بينكم ويكون موقفى بينكم أشبه بالقابض على الديناميت الذى ترتجف من هول وقعه القلوب ،

---

(١) المؤيد ١١ و١٢ فبراير سنة ١٩٠٢ عدد ٣٥٨٣ و ٣٥٨٥

ولكننى اكتفى بان أعيد عليكم ماقاله قبلى رجل غير محبوب من قومه لغرابة أفكاره حيث قال لسامعيه واخوانه فى مبدأ كلامه : « أيها السادة : استمعوا الىّ أولا وان شئتم بعد ذلك فاقتلونى . » ان العمل في طريق الاصلاح الاجتماعى معناه التربية العامة للامة الجاهلة . وأنا موافق مع اخوانى المسلمين على ان التربية ضرورية للناشئة الاسلامية وانه يجب السعى المتواصل فى نشرها . ولكننى على يقين أيها السادة من انكم لاتختلفون معى . ومن ذا الذى ينكر فى هذا الزمن الراقى في المدنية ان التربية ليست مقصورة على الكتب والدفاتر ؟ والا لاعتبرنا أمة سقراط وافلاطون وارسطو أمة جاهلة لانها لم تتعلم من الكتب . ولديكم مثال كبير فى قوله تعالى في القرآن الشريف « كما ارسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون » فاذا كان المراد أن تعليم الكتاب والحكمة والتزكية من الكتب والدفاتر فالنبى صلى الله عليه وسلم لم يعلم شيئا لاننا نعلم انه كان رسولا أميا

وانتم تعرفون أيها السادة ان احدى وسائل نشر التربية والتعليم تكون بالمباحثات والمناقشات والخطب والوعظ والارشاد والجرائد والسعى المتواصل فى التهذيب العام . ولا نطلب منكم إلا أن تأخذوا على عاتقكم تهذيب الذين لايقدرون على الذهاب الى المدارس وتكونوا لهم نموذجا فى الاعمال والاخلاق . وعلى فرض التمكن من التعليم فى المدارس فانها لاتكفى لنشر الآداب العامة واقتلاع جذور العادات القديمة السخيفة

اذا أنتم لم تنهضوا نهضة في طريق الاصلاح الاجتماعى فربما يأتى وقت لايمكن فيه الخلاص من الادواء التى تمكنت من جسم الامة . ولعمرى أن المراد بمؤتمر التربية انما هو ترقية الامة بكل الوسائل لا الاقتصار على التربية المخصوصة فى المدارس . ولا يخفى اننا أعضاء هذا المؤتمر لسنا من علماء التربية النابغين فيها ولسنا من المعلمين ولا من المفتشين فى ديوان المعارف

ومن الغريب اننا مع اهتمامنا وسعينا في كل طريق يؤدينا الى الرقى والنجاح لم نعمل شيئا فى سبيل الاصلاح الاجتماعى ، مع ان الطوائف الأخرى من الهندوس والبرهمن قد سارت فى هذا الطريق خطوات ولكن السبب فى اهمال المسلمين هذه الوجهة من التربية العامة

تذكرون ان المرحوم السيد احمد خان أصدر مجلة دورية سماها (تهذيب الاخلاق) ولم يكن مقصده بذلك الا الاصلاح العام فى الهيئة الاجتماعية الاسلامية لتسير التربية المدرسية مع التربية الاجتماعية يد بيد : ولكن المرحوم السيد احمد خان اشتغل عن تهذيب الاخلاق بكتاب تفسير القرآن الذى لم يصادف من المسلمين قبولا وهو تفسير كما تعلمون عظيم . ثم انتهى الأمر إلى تأسيس هذا المؤتمر ومدرسة عليكدة وكلاهما محبوب عند الأمة الاسلامية . ومن ذلك يتضح لكم ان المرحوم السيد احمد خان كان يسعى فى سبيل ترقية أخلاق الأمة واصلاح عاداتها بقدر مايستطيع . ويظهر لكم أيضاً انه لم يجد فى ذلك الوقت من العضدين والانصار كما نجد نحن اليوم . ومع كل هذا فقد ترك لنا مدرسة عظيمة أخرجت رجالا ذوى استعداد وكفاءة لتولى قيادة الامة . وحيث مضى الوقت الذى كانت المعارضات فيه قوية من المتمسكين بكل قديم فقد أصبح من الواجب ان نضيف على أعمال المؤتمر القيام باعباء الاصلاح الاجتماعى . وأقول ان هذه الخطوة تبعث فيه روحا جديدة وتنفخ فى صدور أعضائه حياة قوية

فأنتم ترون ان التربية فى المدرسة والتربية فى الحياة يجب ان يتفقا ويصطحبا واللازم الضرورى هو ان نسعى في ترقية الأمة : ومن المسلم ان التربية المدرسية تؤدى إلى صلاح اجتماعى : ولكن مالم يقف الجمهور على معائبه ليجتنبها ومحاسنه ليتمسك بها فيكون تأثير التربية فى المدارس ضعيفاً ويكون سيرنا فى سبيل الترقى بطيئاً . ويمكن أن يقال ربما لايحين الزمن الذى تكون فيه الأمة كلها متعلمة حتى لايبقى فى أيدينا شىء ونكون

قد أضعنا ممتلكاتنا وفقدنا نفوذنا . ويقول بعض الناس ان الزمن في حد ذاته مصلح كبير ولكنني أؤكد لكم أيها السادة ان هذا الرأى سخيف ساقط فما الزمن وما روح الوقت الا معنى لاتحادكم وسعيكم وما معنى اعتمادكم على الزمن واهمالكم الا الموت الزؤام الذى حل بغيركم من الامم الشرقية . وزيادة على ذلك فأقول لكم ان الحكومة تكون أول معضد لكم فى الاصلاح الاجتماعى ويمكن لكل موظف أن ينضم معكم علنا وينصركم رسميا

واذكر لكم على سبيل المثال بعض الادواء الاجتماعية المحتاجة إلى الدواء العاجل .

(أولا) التبذير والاسراف فى الأفراح والأعياد والمآتم . وهى لاتنتهى ولا تنقطع ولذلك لايجوز أبداً ان تنفق عليها الاموال الطائلة لأنها تكفى وحدها لاقائنا فى وهدة الفقر المدقع . ولا أقول لكم لاتحتفلوا بافراحكم وأعيادكم أوماتمكم ، ولكن أقول خففوا من نفقاتها بقدر مايستطاع وغيروا فى نظامها على قدر ماهو لائق ولازم

(ثانيا) يوجد بيننا جم غفير من الرجال الاصحاء والنساء القويات اتخذوا التسول حرفة واعتمدوا على مكارم اخوانهم المسلمين فتراهم فى كل مدينة كالذباب يقتاتون من كسب غيرهم . ويوجد كذلك عدد عديد ممن لاحرفة لهم فى منازل أقاربهم بعائلاتهم وأولادهم . فهؤلاء وامثالهم عالة على المسلمين وعقبة فى طريق تقدمهم المالى والادبى . أفلا يوجد بيننا من يعلم هؤلاء الكسالى قيمة العمل ويسير بهم فى طرق الشرف وأرفع وأنفع ؟

(ثالثا) نرى عدداً كبيراً ممن يدعون الولاية والتقوى من المشايخ والفقهاء يعيشون فى الحقيقة عالة على غيرهم إذ تراهم يطوفون البلاد وينزلون ضيوفا على الناس وتقدم لهم الهدايا وتذبح لهم الذبائح وتقام لهم الولائم وتعطى لهم النقود وهم لا يؤدون وعظا ولا يحيون سنة بل هم في الحقيقة يعلمون الناس البدع والخرافات . فالى متى نلقى فى مهامة الجهل والغرور

ونعتقد فى امثال هؤلاء القوم انهم واسطة بيننا وبين الله وهم عمال الغرور وآلات الفساد ؟ ولعمرى ان الرجل الذى يستولى ويعيش عالة على غيره لا يعلم سواه قيمة الحياة ولا معنى العمل وقال تعالى (وان ليس للانسان إلا ما سعى)

(رابعا) من العادات السخيفة التى يجب ان تذهب مع الزمن الماضى تمسك بعض العائلات التى تنسب لنفسها شرفا قديما متسلسلا بمبدأ عدم الاختلاط بالعائلات الاخرى فتراهم لا يقبلون بتزويج بناتهم واولادهم من العائلات الاخرى وليس ذلك من الدين الاسلامى في شيء . نعم ان من الحكمة ان تكون درجة الزوج والزوجة متساوية من جهة الثروة والمركز الاجتماعى ولكن من الجهل ان يمتنع الفقير عن تزويج ابنته برجل غنى لان الاولى شريف النسب والثانى ليس كذلك . ومن الجهل أيضاً أن تكون قيمة الرجال بالعظام الرميمة لابمراكزهم العالية ومعارفهم السامية . واضرب لكم مثلا بمدينة فى شمال الهند ليست أحسن من غيرها ولا أدنى من سواها . وتتألف هذه المدينة من أربع عائلات هذه تنسب لنفسها شرف الانتساب الى المدينة المنورة وهذه الى غيرها وتراهم منقسمين على بعضهم لايختلطون ولا يتساهرون ، وفى ذلك مضار طبيعية كثيرة أقلها اتلاف النسل وضعفه فضلا عن الانشقاق والانقسام ، وقد جاء فى الآية (انما المؤمنون اخوة) ولا فرق بين من تناسل من عربى مدنى أو عربى يمانى أو هندى مسلم ، وزد على ذلك أن السنيين منا والشيعة لايمترجون ولا يتساهرون مما يجر الى البلاء ويؤدى الى دوام التفرق والدمار

(خامسا) أوجه أنظاركم الى تهافت الطبقة العالية منا وخصوصا فى حيدر آباد على الخمور الاوروبية وترى الافيون والشاندى والمادك والسندى « أسماء مغيبات » وغيرها من المواد المخدرة والمسكرة منتشرة بين المسلمين فى كل الاقطار الهندية . افلا يوجد بيننا من العلماء والنبهاء من يحذر الناس

من عواقب هذه الشرور ويبين لهم المضار الناتجة من الانهماك فى شرب الخمور ليقلع الناس عنها ؟ هل هذه الحالة ترضيكم وتشرفكم بين الطوائف الاخرى ؟ — وأنا اقترح بعد أن ذكرت هـذه الادواء بعض وسائل لتخفيف البلوى فاوجه أنظاركم اليها :

« فمنها » يلزم أن يوجد فى كل مدينة وكل قرية نادلالقاء الخطب والمواعظ في أوقات معينة ليحضرها الناس . وان أمكن فتؤسس جمعيات محلية لكل بلدة .

« ومنها » البحث فى الطرق اللازمة لنشر التربية والتعليم بين النساء والبنات حتى لاتكون الجهالة والافكار القديمة عقبة فى طريق الناشئين

«ومنها» اتخاذ الوسائل لمنع زواج الاطفال الذين لم يبلغوا سن الرجولية فان هذا داء عضال منتشر بين المسلمين دون سواهم

«ومنها» أنه يجب أن تكون عندنا منزلة للفضيلة والآداب بان نحقر مكانة كل رجل يشتهر بسوء الادب والرذائل ولا نسمح له بالوجود فى مجالسنا ومجتمعاتنا .

هذه أيها السادة خلاصة سطحية قدمتها لكم لا لتكون هي انموذج العمل ولكن لتكون داعية الى حثكم للسير فى هذا الطريق . ولا انكر عليكم أن الاصلاح الاجتماعى أصعب منالا من سواه . والسبب فى ذلك أن الاصلاح الاجتماعى عندنا يرمى الى اقتلاع جذور عادات تأصلت فى النفوس ورسخت فى العقول مع جهل يحافظ الناس عليه وخرافات وأوهام ينسب بعضها إلى الدين كذبا وبهتانا . فالذين يريدون أن يخطوا بالأمة الاسلامية خطوة فى هذا الطريق يجب عليهم أن يعدوا انفسهم لمقاومة عقبات راسخة كافية أن تصدهم عن سبيلهم لاول وهلة . لهذا أرى أن أول ما نحتاج اليه لكل اصلاح بلادهم كل مرتخص وغال ولا يبالون بآراء الجهلاء وتسفيه الاغبياء . وانتم تعلمون أن كل من يطعن على عادات قوم ويحاول

اصلاح بعض أمورهم يرمى بالكفر والمروق عن الدين ويقابل بالرفض والسخط : وهكذا قوبل الانبياء جميعا عليهم الصلاة والسلام

كفانا أيها السادة نوما وخمولا وكفانا جهلا وغرورا وتمسكا بالخزعبلات والاوهام وكفانا انشقاقا على انفسنا وضعفا فى قلوبنا . اننا لسنا والحمد لله فى حالة جهل تقضى علينا بالموت ولسنا فى حالة ضعف تسوقنا الى الهلاك . . بل لايزال فينا رمق من الحياة فاذا نحن تمكنا من وضع قدمنا فى أول طريق الاصلاح واندفعنا الى الامام بقوة العزيمة خطونا الخطوة الاولى . ومن ذلك الوقت يمكننا أن نستريح قليلا ونترك الدفعة الاولى تسير بنا الى الغاية المقصودة وأريد بذلك أن صعوبة العمل لاتكون الا فى الاول فاذا اجتزنا العقبة الاولى فاستبشروا بحسن الخاتمة

خطبة

(اللورد امبثل حاكم ولاية مدراس)

أيها الرئيس وأيها السادة :

اننى لسوء حظى لم أتمكن من فهم الخطبة البليغة التى القاها الآن (حضرة النواب محسن الملك) واننى اشكر حضرة « الشيخ عبد القادر » على ترجمته لى إياها وخصوصا لانه اجاد فى ترجمتها إذ ليس من السهل ان يتناول السامع خطبة ويسرد ترجمتها بمثل ما فعل حضرة الشيخ عبد القادر . واننى أيها السادة أعجب كثيرا بمساعيكم واستقبل ما قاله النواب محسن الملك بصدر رحيب فانه شرح لى حقيقة المبدأ الذى يدور على محوره هذا المؤتمر لا فى هذه الجلسة وحدها ولكن فى كل جلساته السابقة . وانا بكل سرور أؤكد لكم أن الحكومة تنظر إلى خطواتكم هذه بعين الرضى والانشراح وأقول أيضا أنه لا توجد حكومة عادلة فى العالم لا يسرها أن ترى فريقا من

رعاياها يخطو بنفسه إلى ورود حياض العلوم والمعارف التى هى أس العمران ودعامة الرقى والفلاح

واننى على تمام الاعتقاد بأنه قد قيل أننى لا أنوى أن القى خطبة كبيرة على مسامعكم ولا زلت كذلك لا أريد أن أخوض فى غمرات مباحثكم ولكنكم على كل حال تسمحون لى أن أوضح لكم السبب فى امتناعى وأرجوكم رجاء خالصا قبل كل شىء أن تتيقنوا أن تاخرى عن الكلام ليس منشاه عدم الاهتمام أو المشاركة معكم فى مساعيكم أو من عدم الشعور بحالتكم ومقاصدكم التى اجتمعتم لاجلها في هذا المكان . أجل ان السبب لبعيد جداً إذ أن تاخرى عن الخطابة يرجع إلى شعورى بعدم كفاءتى لابداء آراء فى مسائل لست واقفا على الحقيقة فيها . والواجب على من يريد أن يلقى نصيحة على أحد أن يكون عارفا تمام المعرفة بمركزه الحقيقى وما يحتاجه وما هي الوسائل المؤدية اليه وما يتبع ذلك من النصائح الصادرة عن علم وروية . وقد وصلتنى دعوتكم منذ بضعة أيام كنت قبلها قد ارتبطت بمواعيد كثيرة ولولا أن لجنتكم أفهمتنى ان وجودى بينكم يعد دليلا على مشاركتى إياكم في مساعيكم ومقاصدكم لتعذر على المجىء . ولذا اعلنتهم برغبتى فى الحضور ولكن لا ينتظرون منى خطبة فى موضوعهم الذى لم اتمكن من دراسته وبحثه . فارجوكم ان تعتبروا وجودى بينكم دليلا على مشاركتى لكم بكل جوارحى واحساساتى فى كل مايتعلق بمساعيكم ومقاصدكم

ولقد اطلعت على تاريخ حركتكم هذه واطلعت كذلك على الخطبة البليغة المفيدة التى القاها رئيسكم فى هذا العام . والآن قد اتاح لى الحظ ان احضر اجتماعكم وان اسمع باذنى خطبكم ومباحثكم واقتراحاتكم واننى مما رايته من اصاختكم سمعا لاقوال الخطباء والتقاطكم لكل كلمة تخرج من افواههم احكم بقوة الشعور المتمكنة من صدوركم واشهد ان هذا المؤتمر سيكون له نفع عظيم . وساقرأ كل اعمالكم القادمة فى هذا المؤتمر بالاهتمام

اللائق وقد عرفت مما القاه رئيسكم انكم قد اتخذتم الوسائل للحصول على محل لمدرسة (مدرسىء اعظم) وانى مع سرور يخالج صدرى أؤكد لكم ان هذا الامر وصل الى الدرجة المرضية وأن الحكومه قد ابتاعت أوراندى بغ «محل أوسراى» لتكون محلا للمدرسة المذكورة : والحكومة تتخذ كل الوسائل ليكون هذا المحل مؤديا للغرض كافلا لكل الحاجات المطلوبة واحب أن تتخذوا هذا العمل دليلا على مشاركة الحكومة لكم فى كل عمل اسلامى يقصد به نشر التربية والتعليم بينكم . وفضلا عن ذلك فان الحكومة تساعدكم بمنحكم القوى اللازمة لزيادة النجاح والفلاح .

ويظهر لى انه من المقرر فى الاذهان ان هذه الحركة فى حاجة إلى شيئين الاتحاد والقيادة وخصوصا فى ولاية مدراس ، واننى لهذا سررت جداً بانعقاد المؤتمر فى هذه المرة بمدراس وعسى أن تكون النتيجة مؤدية الى جمع قلوبكم واعتماد من يليق لزعامتكم وقيادتكم ، ولاشك أنه باتحادكم وحماسكم الناشئين من اليقين بصحة مبادئكم وصدق مقاصدكم تتوصلون حتما الى حل عويص المشاكل المرتبطة بالتعليم اللازم لكم من العلوم العصرية والتربية الدينية ، وهي النقطة الوحيدة من حل كل مسئلة اجتماعية كيفما كان القوم وكيفما كانت حالتهم .

أيها السادة : لا أحب ان أزيد على هذا كلمة واحدة واكتفي بالثناء عليكم واعترافى لكم باخلاصى وحسن طويتى» .

جمعية الاداب الاسلامية [1]

في مدراس

(المؤيد) نشرنا منذ بضعة ايام ترجمة الخطبة البليغة التى ألقاها العالم الفاضل عنايت حسين الهندى فى (جمعية الآداب الاسلامية) الهندية ووعدنا القراء أن نوافيهم بخلاصة أعمال هذه الجمعية والغرض الذى انشئت له لما في ذلك من فائدة الاقتداء من جهة والسرور بنشاط اخواننا المسلمين فى البلاد الهندية من جهة أخرى، وقبل الشروع فى الموضوع نشكر أعضاء هذه الجمعية على اهدائهم للمؤيد نسخة من تقريرهم وخلاصة الموضوعات التى ألقيت فى جمعيتهم. والحق يقال اننا منذ ثلاث سنوات توسمنا فى مبدأ هذه الجمعية خيرا ولذلك والينا ارسال المؤيد الى مدراس باسمها مجانا حتى ورد ذكره بالثناء فى تقريرهم.

قلنا أن هذه الجمعية تأسست منذ ثلاث سنوات تحت رئاسة صاحب المكانة السامية حضرة والجى صاحب خان بهادر ووكالة السيد الجليل محمد سيف دار صاحب بهادر (صاحب بهادر وصاحب خان بهادر) من أسمى الرتب الهندية التى تداولت من أيام دولة الموغول الاسلامية ولا زالت الحكومة الانجليزية في الهند تسير على اعطاء هذه الالقاب فى جملة ماتعطيه للكبراء من الهنديين.

(غرض الجمعية) - افتتح السكرتير العام تقريره بالغرض الذى انشئت له الجمعية فقال ما نصه: «ترى الجمعية أن تعلن على رؤوس الاشهاد للغرض الذى من أجله أسست ليقف إخواننا المسلمون فى جميع الاصقاع والامصار

---

(١) مؤيد ١٩ يوليو سنة ١٩٠٠ نمرة ٣١١٥

على مقاصدنا ولنبين لهم الاعمال التى قمنا بها بالرغم عن اهمال المسلمين واحتقارهم للجمعية فى بادىء الامر ، ويمكننا أن نحصر الغرض فى العبارات الآتية :

(١) المحافظة على التمسك باهداب الدين المحمدى الشريف (٢) ونشر تعليم اللغة العربية واللغة الفارسية مع تربية انكليزية عالية حرة (٣) وتفسير صريح عادل لخطة الحكومة تجاه المسلمين (٤) وتوليد روح الالفة والاتفاق (٥) وأخيراً عرض حاجات المسلمين ومطالبهم على مسامع الحكومة الانجليزية متى وجدنا لذلك سبيلا وسببا

نعم لا ننكر أن الجمعية لهذا اليوم لم تعمل أعمالا عظيمة تذكر فى سبيل من السبل التى ذكرناها ، ولكن ليتذكر إخواننا أن هذا الواجب ليس بالامر الهين اللين واننا ابتدأنا ولا نزال نعمل فى ظروف صعبة وأمامنا عقبات شتى إلا اننا بحمد الله سائرون فى طريق الاعمال نقتفى آثار (جمعية كلكتا الاسلامية) التى سبقت فى هذا السبيل وأرشدتنا الى هذا العمل الجليل ، فهى اليوم تعمل لولاية كلكتا ومن فيها من المسلمين ونحن أخذنا على عاتقنا ما يخص ولاية مدراس . ومما يذكر فى هذا المقام أن جمعية كلكتا نجحت نجاحا باهراً وحركت العواطف واستفزت الشعور الكامن حتى ظهرت نشأة من أبناء المسلمين عاملة حية عارفة بما يقف أمامها من العقبات والضعوبات ، ولعمر الحق أن تأخر المسلمين وفقرهم المدقع وتقهقرهم دون مواطنيهم فى سبيل الوظائف وقلة المتعلمين منهم لمسائل تحتاج الى العمل والنشاط لاصلاح هذا الحال وإلا فتكون العاقبه وبالا والعياذ بالله من ذلك .

(أعمال الجمعية) ـ الاجتماعات العلنية بلغت فى السنة الأولى ٢٧ وفى السنة الثانية ٢٨ وفى الثالثة ٢٤ حضرها عدد عديد من المسلمين وألقيت الخطب والمقالات الموضحة عنواناتها بعد عدا المناظرات والمباحثات المذكورة

(المؤيد) نذكر هنا على سبيل الأمثال أهم المقالات والمباحثات التى ألقيت من الجمعية . فمنها بحث في الاعتماد على النفس - اختيار الوظائف والأعمال - قانون الصحة فى الدين الاسلامى - الطلاق فى الاسلام - فقر مسلمى الهند - الواجب على المتعلمين من المسلمين - بحث فلسفى في تاريخ الخلفاء الخ .

وأهم المناظرات . هل الرجل أرقى عقلا من المرأة ؟ ماعلاقة الاسلام بالرق ؟ هل الفلسفة تزيد أو تقلل الاعتماد في الدين ؟ أيهما أفضل : معيشة المتزوج أو الأعزب من الوجهة الأدبية ؟ هل لتربية المسلمين علاقة بالسياسة ؟هل الاسلام يتفق مع الاكتشافات والعلوم العصرية ؟ هل من العدل أن يتحامل الكتاب الاوربيون على الدين الاسلامى وصاحبه ؟ الزكاة فى الدين الاسلامى . أى الحالين يدل على أخلاق الرجل : النعيم أم الشقاء ؟ أيهما أسعد حالا : الرجل المتمدن العالم أم المتوحش الجاهل ؟ أيهما أنفع للبلاد الهندية . الصحافة الأهلية أم الصحافة الانكليزية الهندية ؟ هل فقر المسلمين فى الهند منشؤه منهم أو من أسباب أخرى ؟ هل تهذب الروح بغير الدين ؟ هل من العدل أن يحرم الواحد من وظيفة ما لأنه يدين بالدين الفلانى مثلا ؟ الخ

هذا من جهة الاجتماعات وما ألقى فيها من المباحث التى كانت تنشر بعض الاحايين فى الجرائد أو تطبع وتوزع . ولا يخفى ان فى طيات هذه المباحث ونشرها فائدة كبرى من عدة وجوه وخصوصا فيما يتعلق بالمقالات التى تبحث فى أمور المسلمين وما يترتب على ذلك من نشر آراء الجمعية عند الحكومة ليكون للمسلمين بذلك رأيا عاما تحترمه الحكومة قبل كل شىء .

ونذكر فى هذا المقام قول أحد فلاسفة الانكليز حيث قال « الأمة كالهواء لايشعر بوجوده الا متى تحرك ودوى فى الآذان »

« المكتبة » ـ أسست الجمعية مكتبة فى سنة ١٨٩٨ تبرع لها أفاضل المسلمين بعدة كتب نفيسة مذكورة أسماؤها وأسماء المتبرعين بها فى الملحق التابع لهذا التقرير وجزى الله المحسنين خيراً

وفي هذا المقام نشكر حكومة مدراس فانها أهدت الجمعية بعدة كتب رسمية واحصائيات عمومية اعترافا بمقام الجمعية

« قاعة المطالعة » ـ ويجاور المكتبة قاعة للمطالعة لكافة المريدين من المسلمين وفيها الكتب المذكورة غير الجرائد التى تبرع بها مجانا اخواننا المسلمون أهمها جريدة « محمدان » و « تيمس مدراس » و « مدراس ميل » « ومخبر دكن » و « النير الاصفى » وجريدة « المؤيد » العربية المصرية .

وزيادة عن ذلك فالجمعية تصرف من مالها على بعض أولاد المسلمين الذين أصيبوا بنكبات عائلية كادت لولا مساعدة الجمعية لهم تمنعهم عن اتمام علومهم كما هو موضح في ذيل التقرير عند جدول الايراد والمنصرف. ويعقب ذلك جدول شامل يشرح مقدار ما أعطى للجمعية من أموال المتبرعين اشتراكات الاعضاء وجدول آخر عن المنصرف بحذافيره

« المؤيد » غرضنا من نشر هذه الخلاصة عدة أمور أهمها شرح الخطة التى تسير عليها هذه الجمعية وخصوصا فيما يتعلق بموضوعها وغايتها فالباحث المدقق يرى من خلالها أن غرض الجمعية هو أن تكون بمثابة نفير يوصل صوت المسلمين الى مسامع الحكومة . وهذا غرض جليل فلا يستصغره القراء إذ هى بذلك تحذو حذو الجمعيات في أوربا التى تمثل فريقا من الناس ذوى آراء مخصوصة . ومتى قويت شوكتهم أى أن صار لاعضائها مكانة فى النفوس اضطرت الحكومة أن تحترم رأى الجمعية صوت لانه صوت الرأى العام بشكل مقبول معقول . وفي ذلك فائدة هى أعظم الفوائد السياسية والاجتماعية .

وغرضنا ايضا من هذا التلخيص أن نبين طريقة العمل خطوة فخطوة وكيف أن حضرة رئيس هذه الجمعيه يسير بها الغرض المقصود سلماً فسلماً ونقطة فنقطة فان الغايه تضيع بين الحدة والتهور والسرعه والطيش . وزد على ذلك فائدة نشر هذه التقارير مبينه اسماء الاعضاء وحساب الجمعيه بقليله وكثيره وأسماء الكتب الموجوده فى مكتبتها والجرائد اليوميه والعلميه ليقف الناس على الاعمال والحسابات ، وفى مصر بعض من الجمعيات لايعرف الاعضاء ولا الناس لها حسابا ولا يرى الغائبون عنها أعمالها مدونه فى تقاريرها مما يضعف الثقه ويسير بالجمعيه الى الانحطاط كما هو الحاصل فى بلادنا . فعسى ان يكون فى نشرها لهذه الخلاصه الفائدة التى نتمناها . وليس أبعث على العمل من النظر الى المثال الواضح والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم

فهرس

صحيفة

١٢ المقالة الاولى للمسيو جابرايبل هانوتو (بعنوان) قد أصبحنا اليوم اذاء الاسلام والمسالة الاسلامية

٢٠ المقالة الثانية له (فاتحتها) المسائل السياسية فى كل دين هى التى ترتبط بالقدر والمغفرة والحساب

٢٥ المقالة الاولى من رد الاستاذ الشيخ محمد عبده عليه

٣٥ المقالة الثانية للاستاذ فى الرد عليه في مسألتى القدر والتوحيد

٤٠ المقالة الثالثة للاستاذ (وفاتحها) اليوم آتى على آخر القول لكسر شرة هانوتو فى توثبه على الاسلام

٤٩ حديث لسعادة صاحب جريدة الاهرام مع هانوتو عن كتاباته التى يقصدها عن الشرقيين عامة والمسلمين بوجه خاص

٥٥ وصل للحديث المذكور وتتمته

٥٩ الرسالة الثالثة لصاحب الاهرام فى استدراك ما فاته نشره من حديثه مع هانوتو

٦٣ رد على هذا الحديث الآخر نشره المؤيد فى عدد ٣١٣٠

٦٧ وصل هذا الرد (بعنوان) شأن المسلمين اليوم والرد على هانوتو من ادعاته ظهور دعوة فيهم إلى توحيد كلمة المسلمين

٧٨ نشرة ثالثة (بعنوان) سوء ظن المسلمين بسياسة أوربا كلها

٨٤ دين الاسلام والامور التى تتم بها سعادة الامم - للسيد جمال الدين الافغانى

٩١ الدين الاسلامى أو الاسلام من قلم الاستاذ الشيخ محمد عبده رحمه الله

١٠٧ انتشار الاسلام بسرعة لم يعهد لها نظير فى التاريخ من قلمه أيضا

١١٥ ايراد سهل الايراد للاستاذ رحمه الله

صحيفة

١١٨ الجواب عليه للاستاذ أيضا ×
١١٩ نظرة على الاسلام والمسلمين من كتاب المدنية والاسلام لحضر
محمد بك فريد وجدى
١٣٤ مؤتمر التربية الاسلامى فى كلكتا لسعادة صاحب المؤيد
١٤٠ الكلام على الوقف والتربية الدينية العصرية
١٤٥ الكلام على الوقف ونتائجه
١٤٩ الكلام على تربية البنين والبنات تتمة خطبة القاضى أمير على
١٥٤ الكلام على مؤتمر التربية الاسلامى فى رامبور لسعادة صاحب المؤيد
١٦٢ الكلام على خطبة النواب المعظم مهدى على خان محسن الملك بهادر
١٦٩ مؤتمر التربية الاسلامى فى مدراس وخطبة الرئيس
١٨٥ الكلام على خطبة حضرة العالم الفاضل خوجه غلام الصقلى
١٩١ الكلام على خطبة اللورد امبثل حاكم ولاية مدراس فى شئون مؤتمر
التربية الاسلامى
١٩٣ الكلام على جمعية الآداب الاسلامية فى مدراس لصاحب المؤيد

﴿ تم ﴾

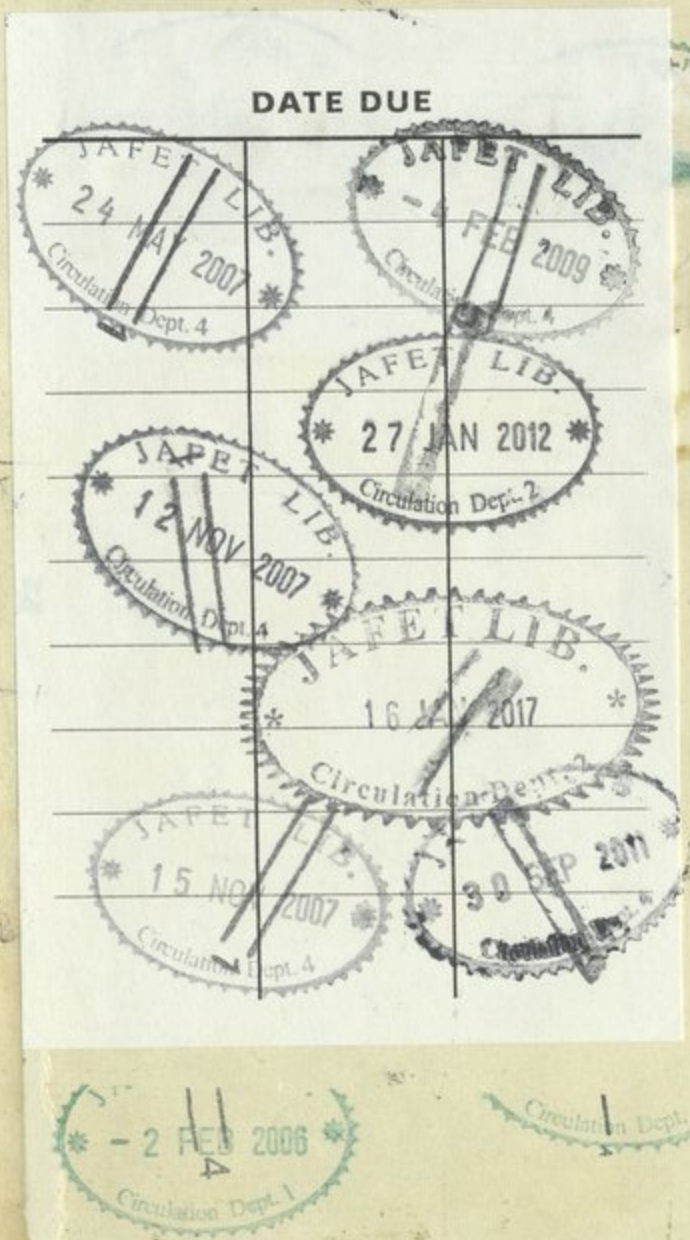
DATE DUE
JAFET LIB.
24 MAY 2007
Circulation Dept. 4
JAFET LIB.
- 4 FEB 2009
Circulation Dept. 4
JAFET LIB.
27 JAN 2012
Circulation Dept. 2
JAFET LIB.
12 NOV 2007
Circulation Dept. 4
JAFET LIB.
16 [illegible] 2017
Circulation Dept. 2
JAFET LIB.
15 NOV 2007
Circulation Dept. 4
30 SEP 2011
- 2 FEB 2006
Circulation Dept. 1

297.3:A13isA:c.1
عبده ،محمد
الاسلام والرد على منتقديه
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01008523

297.3
A13 is A